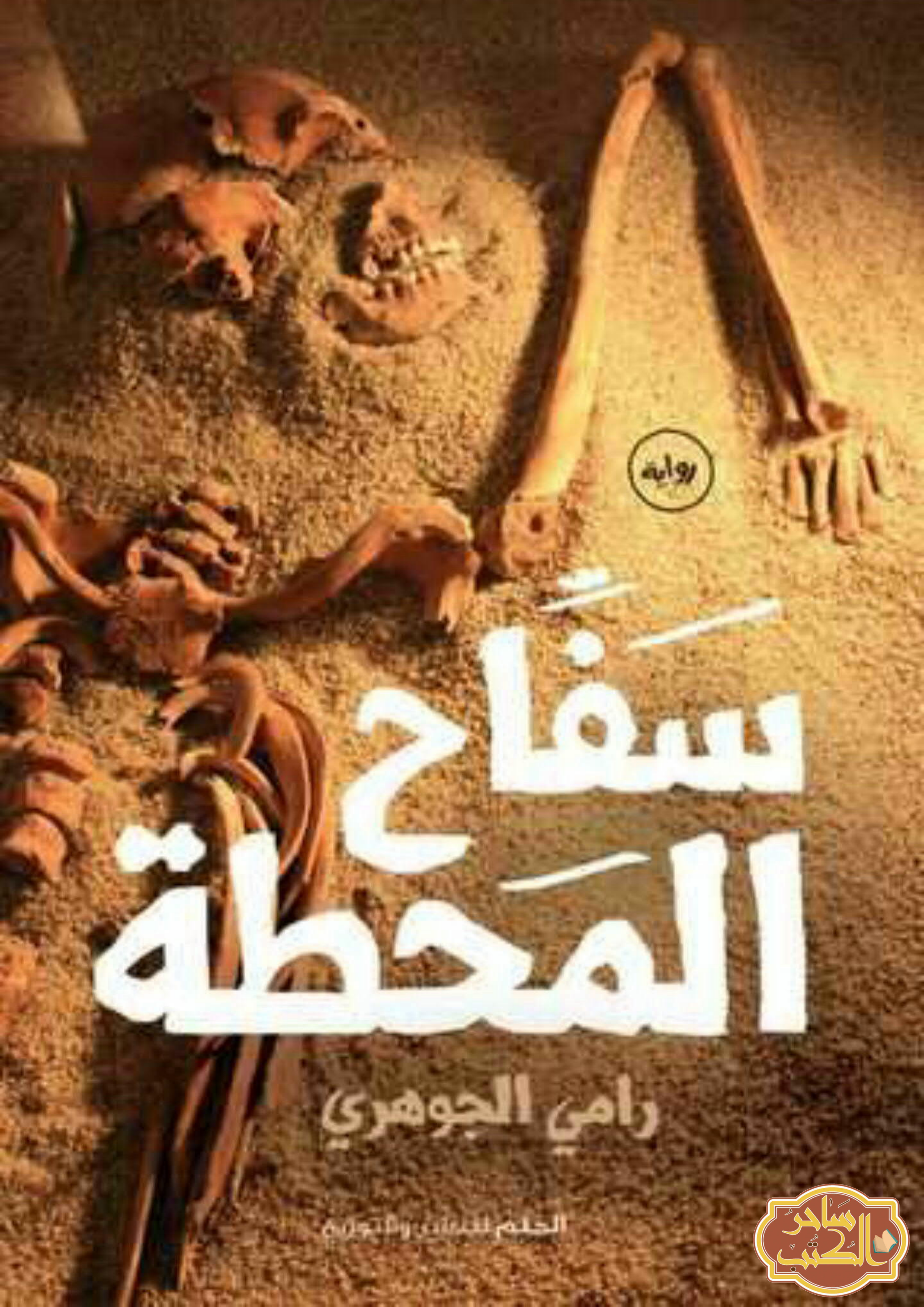

ساحر الكتب

سفاح المحطة

رواية

رامي الجوهري

سفاح المحطة

رواية

رامي الجوهري

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

إهداء

إلى أمي..

لكِ أولًا وأخيرًا.... لأنكِ كل شيء.

إلى مَن رحل عنا بجسده وبقيت ذكراه الطيبة حاضرة بيننا..

أبي الحبيب.. أفتقدك.

إلى زهرة عمري الوليدة وأملي الوحيد..

إلى (أحمد).

٧ ٧ ٧

السفَّاح.. هو قاتل قام على الأقل بثلاث جرائم قتل منفصلة عن بعضها بأيام إلى سنوات وهو بجرائمه يشعر بالرضى عن موت ضحيته...

السفَّاح.. هو في الغالب مَن يكون فيه خلل نفسي يتجلى في شرهه المرضي بالموت والمتعة التي يُحصِّلها من جرائمه وإحساسه بالقوة والعلو...

تعريف السفَّاح تبعًا لمكتب إحصائيات القضاء الأمريكي..

(Bureau Of Justice Statistics)

الظلم والانتقام سلسلة من الشر متصلة مفرغة.. لا فكاك منها

محمد كامل حسين

لا يطفئ الثأر الجراح.. كما لا يروي الماء المالح الظمأ

وولتر ويكلر

في سعيك للانتقام.. احفر قبرين.. أحدهما لنفسك

دوج هورتون

٧ ٧ ٧

الفصل الأول

الإسكندرية... شتاء 2015 م

غيوم كثيفة داكنة زحفت ببطء تجاه بعضها البعض وشيئًا فشيئًا تجمعت لتحجب شمس صباح ذلك اليوم من أيام شهر يناير الذي ازدادت لياليه برودةً مع موجة الصقيع التي تضرب البلاد في تلك الفترة وهبَّت رياح باردة مُحملة بأتربة جعلت (منصور) يضُم ياقة معطفه الشتوي الثقيل ويُحكم لف الكوفية حول رقبته بينما تُحيط يداه بكوب من الشاي الساخن علَّها تلتمس من سخونته بعضًا من الدفء المفقود وعيناه تتابعان العمال وهم يقومون بإزالة الركام الناتج عن هدم ذلك المنزل الكائن بجوار محطة قطار الأسكندرية.

كان الريس (منصور) كما اعتاد رجاله أن يلقبوه من أشهر المقاولين بالإسكندرية وقد اشترى هذا المنزل القديم ليُقيم مكانه برجًا سكنيًّا حديثًا يُدِرُّ عليه أرباحًا كبيرة تُساعده في زيادة حجم شركة المقاولات التي

أنشأها مؤخرًا والتي يتبعها نمو وزيادة ثروته أضعافًا مضاعفة.

كان البرد شديدًا إلا أن هذا لم يمنع (منصور) من أن يتراجع بظهره في مقعده وهو يُطلق تنهيدة ارتياح شديد وهو يتذكر كيف بدأ حياته عندما أتى من الصعيد لأول مرة إلى الإسكندرية وكيف بدأ كعامل بناء بسيط بأجر ضئيل دون أن يكون لديه عمل ثابت أو مكان يأويه وكيف قضى أيامًا طويلة يقتات على القليل وينام في الحدائق العامة.

لقد تحمل الكثير والكثير إلى أن جمع النواة الأولى لثروته التي حرص على نموها بالكد والعمل يومًا بيوم بل لحظة بلحظة إلى أن أصبح الآن الحاج (منصور المحمدي) صاحب شركة المقاولات الشهير.

استغرق (منصور) في أحلامه وحساباته عدة ساعات إلى ما بعد الظهيرة.. كان العمال قد انتهوا من إزالة الركام وبدأ الحفر باللوادر والمعدات المتواجدة معهم في موقع الحفر لرمي الأساسات ولم تمض دقائق

قليلة حتى تعالى صراخ بعض العمال مما لفت انتباه الجميع بمَن فيهم الريس (منصور) الذي هبَّ من مقعده بينما أحد العمال يأتي إليه مهرولًا وهو يهتف:

- يا ريس (منصور).... يا ريس (منصور).

استقبله (منصور) بالسؤال وملامح القلق تغزو وجهه:

- ماذا هناك يا (هلال)؟.. ما الذي حدث؟.. وما كل هذه الضجة؟

أجابه (هلال) وهو يلهث انفعالًا وذعرًا:

- هناك في موقع الحفر لن تصدق ماذا وجدنا.

- ماذا وجدتم.. تكلم؟

لوَّح (هلال) بذراعه تجاه موقع الحفر وبدا للحظة وكأن الكلمات لا تجد طريقًا للسانه قبل أن يقول:

- الأفضل أن تأتي وترى بنفسك.

اندفع (منصور) مع مساعده إلى حيث تجمهر العمال فأزاحهم بيده وألقى بنظره إلى حيث ينظرون قبل أن يرتد بجسده إلى الوراء مصعوقًا؛ فما رآه أمام عينيه كان أبعد ما يكون عن مخيلته فأمامه مباشرةً وفي موقع الحفر كانت تتناثر الكثير من الهياكل والعظام المتناثرة المختلطة بالرمال.

ظل (منصور) يحدِّق فيما أمامه وهو يردد:

- ما هذا النهار الأسود؟!!

بينما نظر له مساعده (هلال) متسائلًا:

- ماذا سنفعل الآن يا ريس؟

أجابه (منصور) وهو لا يزال ينظر لما أمامه ويضرب كفًّا بكفٍّ:

- سنُبلغ الشرطة بالطبع وهل في يدينا شيء غير ذلك.

اندفع مساعده يتصل بالشرطة بينما ظلَّ (منصور) واقفًا مكانه يُحدِّق في العظام والجماجم المتناثرة أمامه قبل أن يهز رأسه مغمغمًا:

- لا حول ولا قوة إلا باللّٰه.

* * *

تراقصت أضواء سيارات الشرطة التي تجمعت مع الحصار الأمني المُحكَم الذي ضُرب حول موقع الحفر بينما تجمهر العامة الذين أثارتهم هذه الضجة يتابعون من بعيد ما يحدث ورجال البحث الجنائي والطب الشرعي يقومون بعملهم في نفس الوقت الذي توقفت فيه سيارة أخرى من سيارات الشرطة هبط منها الرائد (شريف مدكور).. كان في منتصف الثلاثينيات تبدو عليه ملامح القوة من آثار التدريبات الرياضية، مع وجه قسيم الملامح، ذو نظرات حادة صارمة تظهر جليَّة من خلال عينيه اللتين يعلوهما حاجبان كثان يزيدان ملامحه حِدَّة وصرامة بينما يُكَلِّل رأسه شعر أسود مصفف بعناية إلى الخلف.

أشعل (شريف) سيجارته ونفث دخانها في ضيق بدا واضحًا في ملامحه وهو ينظر لما يحدث قبل أن يراه أحد رجال المباحث الشباب الذي اقترب منه بخطى سريعة وهو يرفع يده محييًا و(شريف) يُعاجله بالسؤال قائلًا:

- ماذا هناك؟.. هل توصلتم لشيء؟

أجابه النقيب (عادل) وهو يُشعل بدوره سيجارته:

- لم تتوفر معلومات واضحة حتى الآن ولكن يبدو أن هناك جثث كثيرة كانت مدفونة هنا من كمية العظام التي استخرجناها ويبدو أن هناك المزيد.

- حسنًا إلى أن تتوفر معلومات جديدة أريد منك كل المعلومات الممكنة عن هذه الأرض وعن تاريخها والناس الذين عاشوا فيها.

ثم التفت إلى موقع الحفر حيث يتواجد رجال البحث الجنائي والطب الشرعي متسائلًا:

- مَن المُتواجد من الطب الشرعي؟

ألقى (عادل) بنظره إلى حيث ينظر قبل أن يُجيب قائلًا:

- الدكتور (عماد مشالي).

تقلصت ملامح (شريف) في إستياء وهو يقول:

- ياللسخافة.

ارتسمت ابتسامة مُشفقة على شفتي (عادل) وهو يقول:

- الدكتور (عماد) دقيق في عمله.

نظر له (شريف) للحظة ثم قال في سخط:

- لكنه سخيف في معاملته.

قالها ثم أخذ يقترب إلى حيث يقومون باستخراج الهياكل العظمية وجال ببصره فيما حوله قبل أن

تلتقي عيناه بعيني (عماد) الذي ابتسم له في سماجة قبل أن يُشيح بوجهه عنه موجهًا تعليمات لأحد مساعديه فزفر (شريف) في ضيق واقترب أكثر من (عماد) وهو يتمتم بصوت خفيض:

- الصبر يا رب.

تقدم من (عماد) وهو ينفث دخان سيجارته مما أثار استياء الأخير الذي لاحظه (شريف) وإن تجاهله وهو يسأل:

- ماذا لديك لي؟.. أهناك جديد؟

أجابه (عماد):

- لاشيء حتى الآن.. يجب جمع العينات بالكامل وتصنيفها وإرسالها إلى المعمل لتحليلها قبل إعطاء أي تفاصيل ولكن مبدئيًا هذه العظام مدفونة منذ مدة ليست بالقصيرة.

أثار كلامه انتباه (شريف) فعاد يسأله:

- ماذا تعني؟

- هذه الجثث مدفونة منذ فترة طويلة ليست عامًا أو عامين بل قُل نصف قرن على الأقل وكلها قُتلت تقريبًا في فترة واحدة في تقديري وهذا من حالة العظام التي وجدناها.

استغرق (شريف) في التفكير للحظة قبل أن يسأل:

- متى تستطيع تقديم تقرير كامل عن القضية؟

أجابه (عماد):

- أمامنا أسبوع على أقل تقدير لحصر جميع العينات وتحليلها وتحديد نوع الضحايا ووقت الوفاة التقريبي قبل تقديم التقرير النهائي.

هز (شريف) رأسه متفهمًا وهو يقول:

- عظيم إلى أن يتم تجهيز التقرير سنقوم نحن بعمل تحرياتنا لنكسب بعض الوقت.

قالها والتفت إلى (عادل) الذي دنا منهما قائلًا:

- (عادل).. مَن المسئول عن عملية البناء؟

- المقاول (منصور المحمدي).

- إذن اصرف جميع العمال ولكن أبلغ المقاول أننا سنستدعيه قريبًا لبدء التحقيق ريثما ننتهي من جميع التحريات الممكنة عن هذه القضية.

قالها دون أن يدري أن هذه القضية ستُغير الكثير...

في حياته هو على الأقل.

* * *

إدارة المباحث الجنائية..

بعد ثلاثة أيام..

دلف (شريف) إلى مكتبه بإدارة المباحث الجنائية وخلع سترته ليُعلقها بحرص على المشجب وهو

يتناول منها علبة سجائره ثم جلس خلف مكتبه قبل أن يتطلع إلى الريس (منصور) الذي جلس أمامه باديًا عليه الارتباك الشديد وهو يفرك يديه في توتر..

ظلَّ يتطلع إليه لحظات ثم مد يده إلى علبة سجائره وتناول منها سيجارتين ناول إحداهما إلى (منصور) وأشعلها له ثم أشعل سيجارته هو ونفث دخانها قبل أن يبتدره قائلًا:

- اسمك (منصور المحمدي).

هز (منصور) رأسه أن نعم فعاد يسأله:

- قل لي متى اشتريت هذه الأرض ومَن باعها لك؟

أجابه (منصور) بسرعة:

- اشتريتها منذ حوالي سنة وهذه الأرض كانت بيتًا قديمًا يمتلكه ورثة قرروا هدمه وإعادة بنائه من جديد.

- مَن هم هؤلاء الورثة؟

- أنا لا أعرفهم كلهم أنا تعاملت فقط مع أحدهم بصفته وكيلًا عن الآخرين.

- ما اسمه؟

- الأستاذ (أحمد الطحان) وهو محام يسكن حاليًا في منطقة محطة الرمل.

التقط (شريف) قلمًا ودوّن الاسم والعنوان في ورقة صغيرة ثم عاد لسؤال الريس (منصور):

- ما معلوماتك عن هذا العقار؟

- كل ما أعرفه أن العقار كان ملكًا لأسرة الأستاذ (أحمد) ثم تم إغلاقه بعد وفاة جدته منذ فترة طويلة ومن حينها والمنزل مغلق لم يسكنه أحد حتى قرروا بيعه.

- إذن فالعقار مغلق منذ فترة طويلة.

هز (منصور) رأسه أن نعم وهو يتمتم:

- هذا ما عَلِمته.

أعاد (شريف) ظهره إلى الوراء وهو يُنهي التحقيق مع الريس (منصور) بعد أن تأكد أن لا جديد لديه فيما يخص هذه القضية قائلًا:

- حسنًا أعتقد أننا انتهينا ولكنك ستنتظر إلى أن ننتهي من التحقيقات في هذه القضية ثم يمكنك أن تستكمل عملك في الأرض من جديد.

تردد (منصور) للحظة قبل أن يحسم أمره ويقول:

- ولكنني أخشى يا سعادة البك أن يتسرب الأمر للصحافة ويتم نشر الموضوع بتفاصيله.. هذا سيفسد لي عملي بل سينسف المشروع من أساسه فمَن ذا الذي سيشتري شقة في عقار بُنى على مقبرة.

أومأ (شريف) برأسه دلالة على تفهمه الأمر وهو يقول مطمئنًا:

- اطمئن ياحاج (منصور) سيتم التحقيق في نطاق من السرية ولن تعلم الصحافة شيئًا عنه.

ثم أكمل بسرعة:

- من ناحيتنا نحن على الأقل.

- أعتبر هذا وعدًا من سيادتك.

ابتسم (شريف) ابتسامة خفيفة وهو يؤكد:

- أعدك.

تنهد (منصور) وهو يردد:

- للّه الأمر من قبل ومن بعد.

قالها ثم نهض مُنصرفًا..........

لحظات ودخل (عادل) إلى المكتب وهو ينظر خلفه إلى الباب حيث خرج (منصور) قائلًا:

- لا جديد لديه.. أليس كذلك؟

ابتسم (شريف) في سخرية وهو يُجيبه قائلًا:

- وأي جديد سيكون لديه أنت تعلم مثلي أن هذه التحقيقات لن تقود لشيء؛ إنما هي مجرد إجراءات روتينية ليس إلا.

ثم تنهد في ضيق مُكملًا:

- ونحن ملتزمون بتنفيذها.

هز (عادل) رأسه مؤمنًا على كلامه:

- صدقت.

التقط (شريف) الورقة المدوّن بها الاسم من على المكتب وهو يسأل:

- أثناء التحقيق ذكر (منصور) أنه اشترى العقار من شخص يُدعى (أحمد الطحان) بصفته وكيلًا عن الورثة.. ما معلوماتك عنه؟

جلس (عادل) على المقعد المواجه له.. نفس المقعد الذي كان يجلس عليه الريس (منصور) وهو يُجيب قائلًا:

- إنه أحد الورثة بالفعل.. يعمل محاميًا وهو حفيد صاحبة المنزل الذي أُغلق بعد وفاتها مباشرة.

- وماذا عن العقار نفسه؟

- العقار نفسه قديم يرجع بناؤه لثلاثينيات القرن الماضي.. كانت تسكنه الحاجة (فردوس) وبناتها بعد سفر ابنها للخارج ثم بعد زواج البنات عاشت (فردوس) وحدها حتى توفيت ومن ساعتها والبيت مغلق.. حاول الورثة تأجيره أكثر من مرة ولكن ذلك لم يدم طويلًا.

- لماذا؟

هز (عادل) كتفيه مجيبًا:

- لا أدري.

التقط (شريف) قلمه وأخذ ينقر به على سطح المكتب وقد بدا جليًا أنه استغرق في التفكير للحظات و(عادل) يتابعه دون أن ينبس ببنت شفة حتى التفت إليه قائلًا:

- أريد منك استدعاء (أحمد الطحان) واعرف أيضًا مَن هو آخر مستأجر سكن هذا البيت واستدعِه للتحقيق.

رن جرس الهاتف بجانبه فالتقطه بحركة سريعة وهو يستمع إلى مُحدثه على الطرف الآخر في اهتمام ثم أغلق الخط ونظر إلى (عادل) قائلًا:

- لقد عثر رجال البحث الجنائي في الموقع على صندوق مُغلق مدفون مع الجثث وسيتم فتحه ومعرفة محتوياته.

ثم صمت لحظات وأكمل قائلًا:

- يبدو أن أسرار هذه القضية لم تنتهِ بعد.

وكانت هذه هي البداية.

V V V

الفصل الثاني

أسيوط.... 1945م

الظلام يغمر كل شيء إلا من ضوء خافت يُحدثه المصباح الزيتي المُعلق في مدخل الدار..

نسمات خفيفة تسللت من بين قضبان النافذة الحديدية لتداعب بخفة الستارة البالية المُعلقة بمشبكين خشبيين إلا أنها لم تنجح في ترطيب جو الغرفة ولا في منع قطرات العرق التي تجمعت على جبينه وعلى رقبته.

لم يستطع (جابر) العودة للنوم من جديد مع هذه الحرارة المرتفعة التي جعلت حلقه جافًّا قاحلًا كأرض لم تُروَ منذ عام.

حاول العودة للنوم.. أخذ يتقلب يمينًا ويسارًا دون جدوى.. لقد أمرته أمه أن يخلد إلى النوم مبكرًا إلا أنه لم يستطع النوم أكثر من ساعة واحدة.

استمر لبرهة ممددًا كما هو على الفراش يصغي لصوت حشرات الليل ونباح الكلاب الذي يأتيه عبر النافذة قبل أن ينسل من فراشه ويجلس على حافته تداعب ساقيه الصغيرتين البارزتين من تحت جلبابه المنزلي فضاء الغرفة.

كان السرير مرتفعًا فلم تطل قدمه الأرض لذا دفع جسده للأمام ليهبط واقفًا على قدميه مُلقيًا نظرة إلى سريره النحاسي المرتفع ذي الأعمدة وأخذ يخطو بحذر خارجًا من غرفته.

كان لا يريد أن يُغضب أمه.. يعرف كم هي قاسية خاصة أن أباه غير موجود بالدار ليزود عنه كما يفعل دائمًا.. كان مُسافرًا لعمل ما ولن يعود حتى الغد ثم إنه يتذكر جيدًا كيف سيكون عقاب أمه عندما تجده خارج فراشه في هذا الوقت.

يتذكر كيف ربطته في عامود السرير وانهالت عليه ضربًا بالعصا لمجرد أنه ألَّح في طلب الطعام.. لقد

حاول وقتها ألا يطلب منها شيئًا إلا أن جوعه الشديد غلبه في النهاية ويومها رأى..

رأى كيف تبدّل وجه أمه وبرزت عيناها وهي تصرخ في وجهه، وكيف جرّته جرًّا لتُقيده بالسرير وتنهال عليه ضربًا..

كيف استمر بالصراخ وهو يستعطفها طالبًا الصفح والرحمة..

يتذكر كيف طالت العصا رأسه فسالت دماؤه التي أفزعه مرآها وكيف ثار والده عندما عاد وعَلِم بما حدث وظلَّ ينهرها ويعصب رأسه بمنديله بينما نظرت هي لأبيه باستخفاف ونظرت له بغضب شديد وهي تعود لغرفتها وتصفق الباب خلفها.

حركت الذكرى مشاعره وجعلته يتحسس موضع الندبة على جبينه والتي لازمته من يومها وكأنها تذكرة على ما سيُلاقيه إذا ما غضبت منه مجددًا.

ظلَّ يسير على أطراف أصابعه بحذر عبر ساحة الدار حتى الصينية الكبيرة الممتلئة بالمياه والموضوع بها قلة المياه فرفعها بيديه الاثنتين بحذر خشية أن تسقط منه فيكسرها فيكون عقابه مضاعفًا.

شرب حتى ارتوى فهو لن يستطيع مغادرة فراشه مجددًا ووضعها بحرص عائدًا بخفة إلى حيث غرفته الملاصقة لباب الدار إلا أنه سمع أثناء عودته صوت والدته من داخل غرفتها في نهاية ساحة الدار كان صوتها خفيضًا إلا أن السكون المحيط به وحذره الشديد جعلا سمعه مرهفًا ليلتقطه بسهولة.

كانت أعوام عمره الثمانية وخوفه الشديد من أمه يجعلانه خائفًا من كل شيء.. يخاف الظلام.. يخاف اللعب مع أصدقائه.. يخاف السهر.. يخاف طلب أي شيء.. كان الخوف يتملكه من كل شيء كأنه يُحيط به ويعيش معه يومًا بيوم إلا أن فضوله وتساؤله إن كان والده قد عاد من رحلته مبكرًا دفعاه ليخطو بحذر حتى باب غرفة والديه الذي كان مواربًا بعض الشيء

مما سمح له أن يختلس النظر إلى الداخل عبر الفرجة الضيقة من الباب.

لحظتها تسمر في مكانه واتسعت عيناه في ذهول.. كان ما يراه غير طبيعي على الإطلاق.. كانت أمه على السرير مستلقية على ظهرها وقد انحسرت ملابسها عنها حتى الخصر بينما هناك رجل يعتليها ويثبتها إلى السرير بيديه الاثنتين.

لم يستوعب عقله الصغير ما يحدث فأمه لم تحاول الصراخ أو الاستنجاد بأحد بل بدت كما لو كانت مستمتعة بما يحدث.. ومن داخله تصاعدت ضربات قلبه لتصم أذنيه وتتناغم مع صوت الصرير الذي يُحدثه السرير مع كل حركة من حركات هذا الرجل على أمه.. برودة كالثلج زحفت على جسده مع قطرات عرق باردة انسالت على وجهه وهو يسمع تنهدات أمه الحارة من داخل الغرفة بينما راقب يدها وهي ترتفع ببطء لتحيط بخصر ذلك الرجل وبدلًا من أن تبعده عنها أخذت تجذبه ليغوص بين ساقيها أكثر وأكثر بينما هي تتأوه بصوت أكثر ارتفاعًا مع وصولها لحالة

من النشوة والاستمتاع بدت ظاهرة جليَّة على وجهها وهي تُغلق عينيها وتبتسم في سعادة بينما طوَّح الرجل رأسه إلى الوراء مُطلقًا آهة خافتة بينما جسده ينتفض انتفاضة أخيرة قبل أن ينحني على أمه ليغيبا معًا في قُبلة طويلة بدت له وكأنها ستبقى أبد الدهر.

أغلق عينيه بقوة فلم يقدر على أن يحتمل أكثر مما رآه...

كانت مشاعره كلها مضطربة.. جسده يرتجف وعقله الصغير غير قادر على الاستيعاب أو التصديق.

حين فتح عينيه مرة أخرى واجهه زوجان من الأعين تُحدِّقان فيه والغضب والشر يعتمل فيهما؛ عينا أمه وعينا الرجل الذي يعتليها الذي ميَّز فيه عمه (عبد الحكيم) لحظتها كادت المفاجأة تدمره بل تنسفه من أساسه.

حاول التراجع والهروب إلا أن ساقيه تجمدتا في مكانهما كما لو أنهما غرستا في الأرض.. عجز عن

التراجع أو الصراخ.. حاول فتح فمه إلا أن الصرخة احتبست في حلقه.

لعن نفسه على عجزه.. خوفه صديقه الدائم أبا أن يفارقه.

انتفض عمه من مكانه واندفع نحوه وفتح الباب الموارب بقوة ثم أمسكه من تلابيب جلبابه ورفعه عن الأرض وعيناه تكادان تحرقانه وهو يندفع به خارج الحجرة بينما أمه تسوي ملابسها وتندفع خلفهما.

في منتصف ساحة الدار ألقاه عمه على الأرض.. أنَّت عظام جسده من عنف السقطة وعيناه ما زالتا على اتساعهما في هلع وفي بطء اقترب عمه منه مرة أخرى ومال ناحيته فرفع ذراعيه ليحمي وجهه إلا أن عمه جذبه من شعره في قسوة حتى أوقفه مرة ثانية وهو يسأله بصوت يقطر قسوة وغلًّا فاق أبشع تصوراته:

- ماذا رأيت؟

حاول أن يفتح فمه ليقول أي شيء إلا أن لسانه أبى أن يطاوعه.. نظر إلى أمه يستنجد بها.. كان يعلم مدى شدتها وقسوتها عليه إلا أنه تخيل أنها ستحُول بين عمه وبينه لكن هيهات ملامحها هذه المرة كانت تحمل ما هو أكثر من القسوة.. كانت تحمل البغض.

نظرتها حُفرت في داخله وكأنها ليست أمه التي أنجبته وكأنه ليس صغيرها الوحيد جذبه عمه من أذنه وقرَّب فمه منه قائلًا:

- أتعلم ماذا سيحدث إن أخبرت أحدًا بما رأيت؟. سأقطع لسانك وأقتلع عينيك فلا تتكلم أو ترى بعدها أبدًا.

كلماته كانت راسخة كالقدر.. بطيئة كالموت.. انسابت داخله كحمم ملتهبة تُحرق كيانه.

طفرت الدموع من عينيه وارتعش جسده في قوة ومن بين ساقيه انساب بوله ساخنًا يبلل جلبابه فأحنى رأسه في ذل وسط نظرات التشفي من عمه وأمه التي

ارتسمت على وجهها ابتسامة حملت بين طياتها كل ما يُمكن أن يُقال قبل أن يُلقيه عمه إليها قائلًا:

- نظفيه من قذارته واتركيه ينام وإن فتح فمه مرة أخرى سيكون في عِداد الأموات.

ثم اندفع مُغادرًا الدار..

ليلتها ظلَّ في سريره يرتجف ويبكي بحرقة..

يبكي ضعفه وذُله أمام خيانة أمه وعمه..

يبكي خوفه الذي تملكه.

كان يعلم أنه لن يتكلم أو يفتح فمه.. كلمات عمه كانت تتردد في أذنيه ونظرات أمه كانت تلاحقه أينما حوَّل عينيه.. كان مشهدهما معًا على سرير والده يتكرر أمام عينيه مرة تلو الأخرى في عرض مستمر يأبى أن ينزاح عن عقله واستمرت دموعه تنساب حسرة على أبيه الغافل وخوفًا مما سيلاقيه إن تجرأ وتكلم فهو أكثر

مَن يعلم طيبة والده وسيطرة أمه الكبيرة عليه عندها لن يصدقه والده ولن يرحمه أحد من العقاب.

ليلتها عَلم أن أيامه القادمة ستحمل له الكثير وأن ما حدث هو مجرد بداية لطريق طويل عليه أن يقطعه..

دون أن يدري ما ينتظره في نهايته.

* * *

في صباح اليوم التالي..

كان (جابر) الصغير جالسًا على المصطبة أمام الدار كتمثال من الحجر شاردًا ينظر إلى اللاشيء.. الأطفال في مثل عمره يلعبون أمامه وهو غائبٌ عنهم لم يحاول أن يجاريهم في لعبهم.

كانت أحداث أمس لا تزال ماثلة أمام عينيه فلم يطق البقاء في الدار.. خرج منها مع أول ضوء لشروق الشمس.. بقاؤه فيها يذكِّره بكل شيء.. لن يحتمل

النظر في عيني أمه مرةً أخرى.. لم يكن يدري كيف سيتعامل معها بعد ذلك.. شيء واحد كان على يقين منه أنه لن يتكلم أو يسرد ما حدث لأي مخلوق حتى والده..

والده المسكين الذي لا يعلم ما يحدث خلف ظهره من خيانة أقرب الناس إليه زوجته وأخيه و....

وابنه.. نعم هو مشارك معهما في خيانة والده بصمته.. أغلق عينيه في ألم وانسابت دمعة على خده عندما وصل بتفكيره إلى هذا ولم يشعر لحظتها بصديقه (محمود) وهو يقترب منه.. لم يشعر حتى مد يده يمسح دموعه من على خده.

انتفض جسده وهو ينظر له في انزعاج إلا أن نظرة (محمود) المشفقة نحوه جعلته يهدأ قبل أن يتكلم الأخير بصوت حنون:

- لماذا تبكي يا (جابر)؟

نظر له (جابر) في صمت دون أن يُجيبه فمد (محمود) يده يربت على كتفه وهو يخطف نظرة نحو باب الدار قائلًا:

- أهي أمك مرة أخرى؟

هز (جابر) رأسه في صمت فربت (محمود) على كتفه مرة أخرى مواسيًا قبل أن يجلس بجانبه متطلعًا إليه في إشفاق.

كان (محمود) صديق (جابر) المُقرَّب.. كان جاره وصديق لعبه وزميله في كُتَّاب الشيخ (صادق).. كانت ملامحه مختلفة عن (جابر) بجسده النحيل ووجهه الأسمر وشعره المُجعَّد القصير بينما (جابر) ورث عن والده بياض بشرته وشعره البني الناعم وعينيه اللتين تشربتا لون الزرع الأخضر فبقيَ فيهما إلى الأبد.

كانت ملامحه مثار حسد أصدقائه وغيرتهم حتى بعد الندبة الغائرة على جبينه جرَّاء قسوة أمه.. ظلَّ (جابر) أجمل صِبية القرية.

- عندما يعود أبوك يجب أن تُخبره بكل شيء.

قالها (محمود) فجأة فالتفت إليه (جابر) في حِدَّة متسائلًا:

- أُخبره بماذا؟

- بما تفعله أمك معك في كل مرة.. يجب أن يمنعها من أن تعاملك بهذه الطريقة.

هز (جابر) رأسه في يأس قائلًا:

- أتظن هذا سيصنع فارقًا.. إنه لن يستطيع حمايتي حتى لو أخبرته.. أنت تعلم أمي وما قد تفعله بي إن وشيت بها لأبي.

- إذن ماذا ستفعل؟

تردد (جابر) لحظة قبل أن يقول:

- قل لي هل تُخبر أباك بكل شيء؟

نظر له (محمود) مستغربًا قبل أن يتساءل:

- ماذا تقصد؟

- أعني إذا رأيت شيئًا ما سيئًا يحدث هل ستقول له ما رأيته؟

- إذا كان ما رأيته سيضره سأخبره بالتأكيد.

- حتى لو كان ما ستقوله له سيحمل لك الأذى.

تطلع (محمود) لـ (جابر) وهو يسأله:

- هل رأيت شيئًا تخشى أن تُخبر أباك به؟

لوّح (جابر) بيده في ذعر وهو يهتف:

- لا...لا.. أنا لم أر شيئًا.

ثم مد يده يمسك يد (محمود) وقد اغرورقت عيناه بالدموع مغمغمًا:

- أنا خائف.

- من ماذا؟

- لا أدري ربما مما سيحدث.

ربت (محمود) على يده حتى يهدأ قائلًا:

- (جابر) أنا صديقك إذا كان هناك ما يزعجك أو يخيفك أرجوك أخبرني به ربما أستطيع مساعدتك.

أطرق (جابر) برأسه وهو يقول في أسى:

- ليت كل الأمور تقال.

لحظتها تعلق بصره بجرو صغير يلهو على أطراف الحقل قبل أن يندفع ليدفن نفسه في حضن أمه الراقدة باستكانة والتي احتوته بداخلها وأخذت تلعق فروته بحنان بالغ..

وفي داخله شعر بأسى لا حدود له وأخذ يتساءل..

أيكون هذا الجرو أسعد حظًّا منه؟ أيعلم هذا الجرو معنى القسوة التي يلاقيها هو على يد أمه؟!. أتكون

هذه الكلبة أكثر حنانًا من أمه؟!.

أثار المشهد مشاعر (جابر) فانحدرت من عينه مرة أخرى دمعة أسى..

وألم.

* * *

في المساء..

ارتمى (جابر) في أحضان والده وتعلق بعنقه بشدة فربَّت والده (عبد الحميد وهدان) على ظهره قائلًا:

- أوحشتني كثيرًا يا (جابر).

فرد (جابر) وهو يدفن وجهه في صدر والده:

- وأنت أيضًا أوحشتني كثيرًا يا أبي.

استمر عناقهما فترة طويلة وظلَّ (جابر) متعلقًا بعنقه فارتسمت ابتسامة حانية على وجه (عبد الحميد) الذي نظر إلى (نعمة) زوجته قبل أن يُبادرها بالسؤال قائلًا:

- ألم يأت أحد إلى الدار؟

أجابت (نعمة) في كلمة مقتضبة بلا مبالاة وهي تتصنع الانشغال:

- كلا.

قالتها وهي تُلقي نظرة جانبية على (جابر) الذي أطرق برأسه في صمت فتابع (عبد الحميد) الذي لم يلحظ النظرات الجانبية بين (جابر) وأمه:

- ماذا عن أخي (عبد الحكيم) ألم يسأل عنكما أثناء غيابي؟

ردت (نعمة) بملامح جامدة:

- لم أره منذ أن سافرت.. يبدو أنه كان مشغولًا بشيء ما.

ابتسم (عبد الحميد) ابتسامة حزينة قائلًا:

- إن كل ما يشغل (عبد الحكيم) هو اللهو وسهرات الحشيش مع أصدقاء السوء الذين يلتفون حوله حتى يُنفق آخر مليم في جيبه.

ثم هز رأسه في أسى مردفًا:

- كم أُشفق عليه.. كم كنت أتمنى أن يتغير حاله ويقف بجانبي لنرعى الأرض التي تركها والدنا رحمه الله.

ردَّت (نعمة) بسرعة:

- (عبد الحكيم) ليس صغيرًا ولن يقف بجانبك وأنت المتحكم في كل شيء أعطه حقه يفعل به ما يشاء.

نظر لها (عبد الحميد) معاتبًا وهو يقول:

- وأخالف وصية والدنا.. لقد ترك كل شيء في عهدتي لأنه يعلم طيش (عبد الحكيم) وتهوره.. لقد كان رحمه الله يعلم أن (عبد الحكيم) سينفق كل ما لديه على نزواته وأنه أول ما سيحتاج سيبيع الأرض التي هي كل ما لدينا.. التي جمعها والدنا بكده وعرقه حتى يجعل لنا قيمة بين الناس.. كيف أخالف كل هذا وأنت تعلمين أن أبي مات حسرة على ابنه الذي لم يُكلِّف نفسه عناء زيارته أثناء مرضه الأخير.. أأكون أنا خائنًا لأمانة والدي؟!.

- إذن سيبقى الخلاف كما هو و(عبد الحكيم) لن يتنازل عن حقه وأنت تعرف.

تنهد (عبد الحميد) مرددًا:

- يعلم الله كم أحبه وأخشى عليه.

ثم سكت لحظة قبل أن يقول:

- إنني حتى فكرت أن أسعى في زواجه.

التفتت إليه (نعمة) في عصبية صائحة:

- زواجه.

فتابع (عبد الحميد):

- نعم لقد تحدثت مع الحاج (حمدان) شيخ القرية بشأن ابنته (زهرة) ولكني لم أُفاتح (عبد الحكيم) بعد.

لوَّحت (نعمة) بيدها في عصبية صائحة:

- ما شأنك أنت بزواج (عبد الحكيم) ثم ألم تجد له غير (زهرة).

رفع (عبد الحميد) حاجبيه في دهشة وهو يقول:

- وما العيب في (زهرة) فهي شابة جميلة ومن أسرة نعرفها جيدًا ووالدها الحاج (حمدان) من أفاضل الناس وما لديهم لا يقل عمَّا لدينا و(عبد الحكيم) لم يعد صغيرًا كما قلتِ منذ قليل وزواجه ربما يكون السبب

في صلاح حاله وأنا أخوه الأكبر ومن واجبي اختيار الأفضل له ولصالحه.

ثم أكمل متسائلًا:

- ثم لِم كل هذه العصبية؟

همَّت (نعمة) أن تقول شيئًا إلا أنها ترددت للحظة قبل أن تندفع مغادرة الحجرة بعصبية مرددة:

- افعل ما يحلو لك.

كان (جابر) يتابع الحوار الدائر بين أمه وأبيه ويعلم السبب الحقيقي وراء عصبية أمه إلا أنه ظلَّ صامتًا لم ينطق بحرف حتى وهو يتلقى نظرة أبيه الحائرة أما (نعمة) فقد اندفعت إلى حجرتها قبل أن تصفق الباب خلفها بعنف وتُلقي بنفسها على السرير وهي تقبض بيدها بقوة على الوسائد بينما جسدها يرتعد من فرط الغضب وهي تردِد:

- هذا لن يكون.. لن يكون.

لم تعتد (نعمة) طوال حياتها أن تستسلم لأمر ما مهما كان.. كان هذا جزءًا من شخصيتها منذ أن كانت طفلة.. حتى وهي صغيرة عندما تعهدها عمها برعايته ورباها وسط ابنيه (عبد الحميد) و(عبد الحكيم) كانت تسعى دائمًا لتنفيذ رغباتها بشتى الطرق.

ربما يعود ذلك لإحساسها الدائم باليتم منذ أن ماتت أمها أثناء ولادتها فحُرمت مبكرًا من حنان الأم ثم لحقها أبوها بفترة قصيرة فأصبحت يتيمة الأم والأب مما أورثها إحساسًا أنها لا بد وأن تكون قوية صلبة كي تجابه الحياة وحدها.. كي تكون كجزع شجرة راسخة في الأرض لا تستطيع قوة مهما كانت أن تكسرها.

المرة الوحيدة التي خضعت فيها لإرادة عمها رغمًا عنها كانت عندما أراد تزويجها من (عبد الحميد) ابنه البكر على الرغم من تعلقها الشديد ب(عبد الحكيم) فقد كان الأخير في نظر أبيه غير قادر على رعايتها أو على تكوين أسرة.

كانت (نعمة) ذات شخصية قوية نافذة تسعى لتنفيذ إرادتها حتى لو كان ذلك على حساب أقرب الناس إليها..

كانت كتلة غضب وسخط تسكن قلبها منذ أن كُسرت إرادتها وأصبحت زوجة لـ(عبد الحميد) وحتى عندما أنجبت (جابر) لم يغير ذلك منها شيئًا فقد كرهته كما كرهت والده خاصة مع وفاة عمها وتحكُّم (عبد الحميد) في كل شيء.

كان (عبد الحكيم) قد ملك قلبها منذ أن كانت صغيرة وهي لم تعتد أن تخسر شيئًا أرادته وحتى الآن لن تقبل أن يكون لأحد غيرها أيًا كانت الظروف ومهما كانت النتائج ومهما كان ما ستفعله في سبيل ذلك.. توقفت بأفكارها عند هذه النقطة وأخذت تتفكر فيها بتمعن قبل أن ترتسم على شفتيها ابتسامة شر وهي تغمغم:

- نعم ولِم لا؟.

واتسعت ابتسامتها أكثر وأكثر.

٧ ٧ ٧

الفصل الثالث

ارتقى (شريف) سلالم مبنى إدارة البحث الجنائي والطب الشرعي مسرعًا ومن خلفه مساعده (عادل) الذي كان يلهث ليحافظ على المسافة بينه وبين (شريف) كانت القضية على قدر غموضها تُثير في نفس (شريف) حماسة غير عادية لفك طلاسمها.. حماسة لم يدر (شريف) نفسه سببًا محددًا لها، صحيح أن القضية صعبة وغامضة؛ بل وتزداد غموضًا كلما أوغلوا في التحقيق فيها إلا أنها لم تكن أول قضية صعبة يقابلها.. لكن إحساس رجل الأمن داخله والذي صقلته الخبرة كان يُنبؤه أن هذه القضية مختلفة.

استمرا في السير في الرواق الطويل المفضي إلى مكاتب الطب الشرعي حتى وصلا إلى مكتب الدكتور (عماد مشالي) الذي ما إن لمحهما حتى بادرهما قائلًا:

- جئتما في الوقت المناسب.

سارع (شريف) يسأله وقد بدا الترقب عليه:

- هل توصلتم لشيء جديد؟

أجابه (عماد) قائلًا:

- بل قل: لشيء مهم.

أثارت كلماته المزيد من حماسة وفضول (شريف) الذي ظل صامتًا يتابع بعينيه (عماد) وهو يرتدي نظارته الطبية ويجلس خلف مكتبه ويتناول ملفًّا أمامه يفتحه ويقرأ من خلاله:

- بدايةً تم حصر وفحص العظام المستخرجة من موقع الحفر وتبين من الفحص أن تلك العظام تخص خمس جثث مختلفة ومن نتائج التحاليل والفحص ثبت أنها تخص تحديدًا بقايا ثلاث سيدات.

ثم رفع عينيه إلى (شريف) مكملًا:

- ورجلين.

ضيّق (شريف) ما بين عينيه متمتمًا:

- أمر غريب.

تابع (عماد):

- الأغرب أن وقت الوفاة التقريبي للجثث مجتمعة تم في خلال أشهر متتابعة بين عامي 1954م و1955م.

تدخل (عادل) في الحوار لأول مرة قائلًا:

- هذا يضعنا أمام العديد من الأسئلة.

هز (عماد) رأسه موافقًا بينما قال (شريف) متفكرًا:

- بالتأكيد فعدد الجثث ليس بالقليل وهذا يدفعنا للتفكير في الرابط بينهم جميعًا ثم أنهم قتلوا بشكلٍ متتالٍ فلماذا توقف قاتلهم وهل يقدر شخص واحد على قتل كل هذا العدد أم أننا أمام تشكيل عصابي تواجد في تلك الفترة.

أشار (عماد) بأصبعه مذكرًا:

- لا تنسَ أيضًا أن الجثث موزعة بين الجنسين ثلاث سيدات ورجلين.

هز (شريف) رأسه حائرًا وهو يقول:

- هذا سؤال آخر علينا البحث عن إجابة له.

ثم قال بسرعة وكأن المعلومات التي سمعها للتو قد أنسته:

- ماذا بشأن الصندوق؟.. هل تم فتحه ومعرفة محتوياته؟

هز (عماد) رأسه أن نعم ثم أشار بيده أن اتبعوني وسار أمامهما إلى غرفة أخرى ملحقة بمكتبه تبدو كمعمل صغير يحوي عددًا من موائد الفحص على كل منضدة منها عدد من الميكروسكوبات باستثناء منضدة في منتصف الحجرة كان في وسطها الصندوق المكتشف مفتوحًا وقد تم تفريغ محتوياته على المنضدة مع تغليفها وترقيمها كأحراز مُلحقة بالقضية.

- هذا كل ما كان بداخل الصندوق.

قالها (عماد) وهو يُشير لما أمامه فأخذت عينا (شريف) و(عادل) تجولان على المحتويات الموضوعة أمامهما يتفحصانها باهتمام بينما تساءل (شريف) وهو لا يزال ينظر لما أمامه:

- ماذا عن أسباب الوفاة؟.. هل توصلتم لشيء؟

أجابه (عماد) بالنفي وهو يشرح قائلًا:

- لقد تم فحص كل الهياكل العظمية التي وردتنا من موقع الحادث وأستطيع أن أؤكد لك أن حالة العظام كلها سليمة لا توجد إصابات أو أضرار قد تتسبب بالوفاة كما أننا اكتشفنا تلك الجثث بعد نصف قرن من قتلها مما يشكل عائقًا أمامنا في أن نحدد أي أسباب قد تؤدي للوفاة.

ثم تابع بسرعة كمَن تذكر شيئًا:

- باستثناء حالة إصابة واحدة في الهيكل العظمي الخاص بأحد الرجلين ضمن الضحايا.

كان (شريف) و(عادل) يتابعانه باهتمام فتوقف للحظه كي يلتقط أنفاسه قبل أن يُكمل قائلًا:

- بعد فحصه وجدنا كسرًا مُضاعفًا في عظام الجمجمة وأنا لا أستبعد أن تكون تلك الإصابة هي السبب في الوفاة.

- يبدو أننا سنسير في هذه القضية كالعميان.

كانت هذه الجملة من (عادل) فرد (شريف) عليه وعيناه تتفحصان محتويات الصندوق من جديد:

- إنها قضية معقدة منذ بدايتها ثم إن.....

توقف فجأة عن إكمال عبارته وقد تعلقت عيناه بأحد المحتويات أمامه.. كانت عبارة عن سلسلة ذهبية تنتهي بقلادة دائرية تحتوي على صورة بالأبيض والأسود لوجه طفل صغير لا يتعدى عمره الثلاث

سنوات وبجوارها ورقة صغيرة مطوية التقطها (شريف) وفردها بحذر ثم التمعت عيناه وهو يلتفت إلى (عادل) قائلًا في حماس:

- يبدو أننا قد عثرنا على طرف الخيط الذي كنا ننشده.

نظر له (عادل) في عدم فهم فجاوبته ابتسامة ارتسمت على شفتي (شريف) ربما لأول مرة منذ بداية هذه القضية وهو يتابع:

- استعد فأمامنا الكثير من العمل.

وازداد التماع عينيه أكثر.

v v v

الفصل الرابع

واقفًا بلا حراك جوار الباب كان (جابر) يتابع بعينه أمه وهي تضع صينية الشاي أمام أبيه وعمه (عبد الحكيم) الذي كان ثائرًا كعادته كلما تحدث مع والده فيما يخص الأرض والميراث فقد كان (عبد الحكيم) يعتقد -ولا يزال- أن أخاه يسلبه حقه بعد أن ظلمه والدهما عندما ترك كل شيء تحت تصرف ابنه الأكبر (عبد الحميد).

ظلَّ (عبد الحكيم) يلوِّح بذراعيه في وجه أخيه وهو يصرخ بغضب عارم:

- إنك تتحكم فيما ليس لك يا (عبد الحميد).. إنك بذلك تسلبني حقي في التصرف في ميراث والدي.

رد عليه (عبد الحميد) بهدوء وهو يصب الشاي من البراد الموضوع أمامه داخل الصينية:

- لا تغالط نفسك يا (عبد الحكيم) فأرباحك تصلك أول كل سنة وهذا لم يتغير منذ أن مات والدنا.

وجه (عبد الحكيم) أُصبعه إليه وهو يصرخ:

- أرباحك هذه لا تعنيني.. أنا أتحدث عن أرضي.. قسِّم الميراث ودعني أفعل بها ما أشاء.

تساءل (عبد الحميد) بحذر:

- مثل ماذا.. بيعها مثلًا؟

أجابه (عبد الحكيم) بتحدٍّ:

- أبيعها أو أحرقها حتى.. هذا ليس من شأنك.

انفعل (عبد الحميد) عليه قائلًا:

- والدنا -رحمه الله- جعله من شأني عندما ترك لي إدارة الأرض كلها وأنا لم أُخالف وصيته في أن أقتسم معك أرباحها بالتساوي ويعلم الله أنني لم أظلمك أو آخذ لنفسي ما ليس لي.

- إذن أنت تُصِّر على أن تستولي على كل شيء.. ولكن اعلم يا (عبد الحميد) أن (عبد الحكيم) لن يسمح لأحد بأن يأخذ حقه.

تحدث (عبد الحميد) بجِدَّة قائلًا:

- أي حق تتحدث عنه وأنت تريد أن تبيع الأرض التي عانى والدنا الأمرين في جمعها ورعايتها أم أنك تظن أنني لا أعلم الصفقة التي تُريد أن تُبرمها مع الحاج (بشير) عمدة القرية.. ألم تعرض عليه شراء نصيبك في الأرض؟

قال (عبد الحكيم) مُجيبًا:

- هذا حقي أتصرف فيه كيفما أشاء.

تم نظر إلى أخيه مُضيفًا بصوت أثار الرجفة في جسد (جابر) الذي ظلَّ يتابع الحديث من مكانه:

- لن أسمح لك أن تسلبني حقي يا (عبد الحميد) وسأحصل على ميراثي سواء شئت أم أبيت.

نظر له (عبد الحميد) للحظة في صمت وكأنه يراه لأول مرة قبل أن يتساءل:

- وكيف ستفعل ذلك؟

أجابه (عبد الحكيم) بصوت هادر:

- سأقتلك لو اقتضى الأمر.

ارتفع حاجبا (عبد الحميد) في ذهول وهو يردد:

- تقتلني!.

هبَّ (عبد الحكيم) من مكانه وهو يصرخ مهددًا:

- نعم سأقتلك ولن تقف قوة على الأرض في طريق ما أُريده وهذا آخر إنذار لك.

ثم اندفع مغادرًا الغرفة قبل أن يقف على بابها ويلتفت ل(عبد الحميد) ويقول مهددًا:

- سأمهلك أسبوعًا واحدًا لتُعيد لي ميراثي الذي سرقته وإلا لا تلومن إلا نفسك.

قالها واندفع مغادرًا الدار تاركًا أخاه جالسًا في ذهول ينظر إلى كوب الشاي الذي صبه لأخيه بينما تابع (جابر) عمه وهو يتجه ليفتح باب الدار ليخرج ولم تفته النظرة التي تبادلها مع أمه التي كانت تسترق السمع هي الأخرى..

نظرة حملت اتفاق شرٍّ غير معلن على الخلاص من أبيه..

وازدادت رجفة جسده وبشدة.

* * *

- اهدأ يا صاحبي كل مشكلة ولها حل.

قالها (طلبة) صديق (عبد الحكيم) وهو يُناوله بوصة الجوزة بينما بيده الأخرى يرص أحجارها بعد أن وضع عليها الحشيش الذي اشتراه بأموال (عبد الحكيم)

الذي جذبها من يده وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن ينفث دخانها الأزرق بينما جسده لا يزال يغلي من الغضب وهو يردد قائلًا:

- سأقتله.. أقسم أن أقتله لو لم يعطِني حقي.

ربت (مرزوق) على صديقه الآخر وشريكهما الثالث في جلسات اللهو وتدخين الحشيش الذي كان يجلس عن يمينه على كتفه وهو يقول بنبرة ماكرة:

- أخوك (عبد الحميد) يتصنع المسكنة والطيبة أمام الجميع ثم يحصل هو على كل شيء ويجعلك تظهر أمام الناس في صورة الأخ الجاحد وأنت تساعده على هذا.

التفت إليه (عبد الحكيم) قائلًا بانفعال:

- أنا؟!

جاءه الرد هذه المرة من (طلبة) الذي التمعت عيناه بنظرة ثعلب:

- نعم أنت.. عليك أن تسايره وتهادنه حتى تحصل منه على ما تريد وحتى لو قررت التخلص منه فيجب أن يكون ذلك بعيدًا عنك حتى لا تُوجه لك أصابع الاتهام، أما لو حدث هذا وأنت تهدده أمام الجميع بالقتل؛ فستكون أنت المتهم الوحيد.

تفكر (عبد الحكيم) في كلامهما وهو يجذب نفسًا آخر من الجوزة قبل أن يتساءل:

- ماذا أفعل إذن؟

أجابه (مرزوق) قائلًا:

- اذهب إليه غدًا في الصباح واعتذر له عما بدر منك وقل له أنك لم تقصد كلمة مما قلتها وأنك لم تحتمل أن ينقضي الليل وأنتما متخاصمان.

- أنا أذهب إليه؟! هذا الحقير يسلبني حقي ويستولي على أموالي ثم أعتذر له!. هذا لن يكون.

قالها (عبد الحكيم) محتديًا فعاد (مرزوق) يُهدئه بقوله:

- هذه الأمور لا تُحَل بالعصبية والعنف بل تحتاج للعقل والصبر حتى تحصل على ما تريد.

عاد (عبد الحكيم) يسأل:

- وهل هذا سيجعله يعطيني ما أريد؟

سارع (مرزوق) بالإجابة:

- وحتى لو لم يحدث هذا عندها ننفذ ما خططت له دون أن يكون هناك أي شك في أنك الفاعل.

ظلا معه طوال الليل يقنعانه بخطتهما وهما يرصان له أحجار الجوزة مع الحشيش حجرًا تلو الآخر وهو يجذب الأنفاس ويستمع لهما.

كانا كعادتهما يتبعان معه هذا الأسلوب.. يعاملانه كملك متوَّج بينهما طالما يستنزفان ما لديه من أموال

وكان هذا يُرضي غروره دائمًا ويجعلهما مقربين إليه أكثر وأكثر وكما قالوا في الأمثال قديمًا.. (الدوي على الآذان أمرُّ من السحر).. كانا يطبقان هذا المثل حرفيًا وفي النهاية ينصاع لرأيهما ويفعل تمامًا كما أشارا عليه.

عند اقتراب الفجر كان (عبد الحكيم) قد اقتنع تمامًا بما أشارا عليه به بعد أن سطل من كم الأحجار التي شربها فنهض يسير مترنحًا إلى داره بينما عينا (طلبة) و(مرزوق) تتابعانه قبل أن يلتفت الأخير إلى (طلبة) متسائلًا:

- أتظنه سينفذ ما اتفقنا عليه؟

ابتسم (طلبة) بثقة وهو يُجيبه قائلًا:

- بالتأكيد.

- أتثق فيه إلى هذه الدرجة؟

- وكأنك لا تعرف (عبد الحكيم).. إنه سينفذ حرفيًا كل ما قلناه له وأُراهنك أنه سيذهب لأخيه في الصباح كما اتفقنا.

- وبعدها؟

اتسعت ابتسامة (طلبة) أكثر وهو يُجيب:

- بعدها ننفذ ما اتفقنا عليه.

وتحولت ملامحه كلها لملامح ذئب ماكر وهو يتابع:

- نُجبر (عبد الحكيم) على الخلاص من أخيه وعندها ننعم نحن بالثروة كلها بعد أن تؤول إليه.

- أنسيت أن (عبد الحميد) لديه زوجة وابنًا؟.

- ابنه طفل صغير لا حول له ولا قوة.. ثم مَن لديه أقرب من عمه يراعي أرضه وماله من بعد أبيه.

تساءل (مرزوق):

دودة الكتب حرامية

- وزوجته ألن تطمع هي الأخرى في الميراث؟

أجابه (طلبة) وابتسامته لا تزال على شفتيه:

- (نعمة) ابنة عمهما ولن تجد غير (عبد الحكيم) يرعى مصالحها هي وابنها ثم إن العلاقة بين (نعمة) و(عبد الحكيم) قوية منذ أن كانوا صغارًا ولا تخفى على أحد.

ثم ربت على ساق (مرزوق) وهو يشد بوصة الجوزة ليرص حجرًا لنفسه وهو يقول:

- اطمئن خطتنا ستسير كما نريد وسنفوز بكل شيء في النهاية.

قالها وانطلقا يضحكان معًا.

* * *

- هوِّن عليك يا ولدي.

روح الكتب حرامية

قالها الحاج (حمدان) شيخ القرية وهو يجلس مع (عبد الحميد) على المصطبة أمام منزل الأخير الذي ظهرت على وجهه علامات الحزن الشديد وهو يقول:

- أتصدق يا حاج (حمدان) أن يعاملني (عبد الحكيم) بهذه الطريقة وأنا الذي أسعى لصالحه.

- أنت تعلم أسلوب (عبد الحكيم) وعصبيته الزائدة ولكنه في النهاية أخاك الأصغر ولن يرضى أبدًا أن يستمر الخصام بينكما فترة طويلة.

كان الحاج (حمدان) بمثابة الأب ل(عبد الحميد) لما وجده فيه من حُسن الطباع ودماثة الخلق كما كان الصديق المقرب لوالده.. إلا أنه وعلى الرغم من ذلك لم يقص عليه (عبد الحميد) الحوار كاملًا الذي دار بينه وبين أخيه ولا التهديدات التي أطلقها (عبد الحكيم) في وجهه.

كان حتى هذه اللحظة يحافظ على العلاقة الأخوية بينهما.. هذا بالإضافة لأن (عبد الحميد) يسعى لتزويج

دودة الكتب حرامية

(عبد الحكيم) من (زهرة) ابنة الحاج (حمدان) فلم يشأ أن يُشوه صورته أمام مَن سيُصبح حماه في يوم من الأيام.

اقترب (عبد الحكيم) منهما في هذه اللحظة مُلقيًا السلام وكان أول ما فعله هو أن قبَّل رأس أخيه أمام الحاج (حمدان) الذي ابتسم في مودة مغمغمًا:

- ألم أقل لك.

قال (عبد الحكيم) وهو يتصنع الأسى كمَن يشعر بتأنيب الضمير:

- سامحني يا أخي إنني لم أقصد كلمة واحدة مما قلتها لك بالأمس بل إنني طوال الليل ألوم نفسي على ما فعلته وانتظرت الصباح بفارغ الصبر حتى آتي وأعتذر لك عما بدر مني.

نهض (عبد الحميد) من مكانه واحتضن أخاه بقوة وقد اغرورقت عيناه بالدموع قائلًا:

دودة الكتب حرامية

- أسامحك يا (عبد الحكيم) أنت أخي الوحيد ورابط الدم بيننا لن يُفسده شيء.

جلس الاثنان بجوار بعضهما البعض بعد أن سلَّم (عبد الحكيم) على الحاج (حمدان) فقام الأخير من مكانه قائلًا:

- ما دمتما قد تصافيتما فسأترككما أنا؛ لأرى ما لدي من أعمال.

ثم التفت إلى (عبد الحميد) مكملًا:

- ولا تنسَ يا (عبد الحميد) أننا سنسافر غدًا باكرًا لشراء مستلزمات الأرض لزراعة محصول السنة الجديدة.

ثم ألقى السلام وانصرف تاركًا الاثنين جالسين مكانهما وقد خيَّم الصمت عليهما لفترة قبل أن يقول (عبد الحميد) لأخيه:

دودة الكتب حرامية

- كنت أريد أن أفاتحك في أمر ما وأريد أن أعرف رأيك.

تساءل (عبد الحكيم) قائلًا:

- رأيي في ماذا؟

- كنت أريد أن نتقدم للحاج (حمدان) لنخطب لك ابنته (زهرة) فأنت تعلم أن الحاج (حمدان) كان الصديق المقرَّب لوالدنا -رحمه اللّٰه- وهو رجل شديد الخُلق وابنته (زهرة) من أفضل بنات القرية.

مط (عبد الحكيم) شفتيه متبرمًا وهو يقول:

- انس أمر زواجي يا (عبد الحميد) فأنا لا أفكر في الزواج حاليًا.

سأله (عبد الحميد) مندهشًا:

- إنني لا أفهم لماذا ستظل ترفض الزواج بهذه الطريقة فأنت لم تعد صغيرًا وربما تكون هذه فرصة جيدة لك

لتستقر؟

أجابه (عبد الحكيم) بأسلوب مَن لا يريد الاستمرار في هذا النقاش:

- اصرف النظر عن هذا الموضوع يا (عبد الحميد).. عندما أريد الزواج سأختار أنا مَن تناسبني.

قلَّب (عبد الحميد) كفيه في حيرة وهو يقول ناهيًا الموضوع فهو لم يكن يريد أن يبدأ خلافًا آخر مع أخيه:

- كما تشاء.

كان (جابر) يتابع الحوار منذ بدايته وهو يتصنع اللعب أمام الدار وفي داخل قلبه الصغير كان القلق يتصاعد ويتصاعد والشك يدبُّ في كيانه كله فكيف يأتي عمه ويعتذر لأبيه بهذه الطريقة.

فمَن يرتضي أن يخون أخاه مع امرأته لن يكون بهذه الأخلاق أبدًا.. ومن داخله تأكد أن عمه يُضمر في

نفسه شيئًا خطيرًا..

واستمر الشك يلتهمه وبشدة.

v v v

الفصل الخامس

منذ ما يقارب العشرين دقيقة و(عبد الحكيم) يعتلي (نعمة) يمارس معها العلاقة الحميمة.. لم يكن يضاجعها كما يضاجع أي رجل امرأة بل كان يضاجعها بعنف وقسوة كما لو كان يغتصبها.. يغتصب حقه الذي سلبه أخوه منه بكل دناءة من وجهة نظره.. حقه الذي يعود إليه كلما ضاجع (نعمة).

إحساس غريب ممتع كان يتملكه كلما عاشرها في بيت أخيه بل وعلى سريره كذلك وكان هذا يُشعره بنشوة ما بعدها نشوة بل إنه أحيانًا كان يسرح بخياله ويتخيل أخاه وهو يشاهدهما معًا.. لحظتها كان سيصرخ في وجهه ويقول له إنه الأحق بها منه وإنه يمتعها كما لم يمتعها هو.. وأنها مجرد جزء بسيط من حقه المسلوب.

تأوهت (نعمة) كما لم تتأوه من قبل وظلَّ صوتها يعلو حتى أنها كانت تصرخ في بعض الأحيان فيصل صوتها إلى حجرة (جابر) الذي وضع وسادة على رأسه كي

يمنع صوتها من الوصول إلى أذنيه وعيناه تذرفان الدموع وهو ينتحب بشدة بينما عقله يرسم له صورة ما يدور الآن بين أمه وعمه وعلى سرير أبيه.

استمرت العلاقة عشرة دقائق أخرى قبل أن يُفرغ (عبد الحكيم) بداخلها شهوته الممزوجة بحقده وغِلّه على أخيه قبل أن يستلقي بجانبها وهو يلهث بشدة بينما ارتسمت ابتسامة استمتاع واسعة على وجه (نعمة) وهي تتمطى في رضا قبل أن تميل على (عبد الحكيم) لتطبع قُبلة على وجهه بينما تعابث بيدها شعر صدره وهي تقول:

- الليلة كانت غير كل ليلة.. لقد كنت في منتهى الروعة اليوم.

- هذا لأنك أنت التي تزدادين جمالًا وحُسنًا يومًا بعد يوم.

- لكنك جعلتني أصرخ من الألم.. يبدو أن الحشيش الذي أصبحت تشربه أفضل من السابق.

كانت معرفة (جابر) بما يدور بينهما قد منحتهما حرية لم يشعرا بها من قبل إلا أن ذلك لم يمنع (عبد الحكيم) من أن يسألها قائلًا:

- أين (جابر) إنني لا أسمع له صوتًا؟

أجابته (نعمة) وهي تبتسم له:

- لقد تصنعت عِقابه وحبسته داخل غرفته قبل مجيئك بقليل فلا أريده أن يرانا مرة أخرى كما رآنا المرة السابقة.

عاد (عبد الحكيم) يتساءل بقلق:

- أتظنيه قد يُفشي سرنا لأحد؟

ربتت (نعمة) على صدره وهي تقول مطمئنة:

- لو كان يريد أن يتكلم لكان تكلم بالفعل.

ثم أكملت قائلة بمقت:

- اطمئن إنه جبان مثل أبيه ولن ينطق بحرف.

أشار إليها بأصبعه محذرًا:

- لكنه يبقى خطرًا، علينا الانتباه له.

شعرت (نعمة) أنه يريد أن يفاتحها في شيء ما خاصة وأنها تعرفه ربما أكثر مما تعرف نفسها فهي لم تهضم حتى الآن اعتذاره لأخيه صباح أمس وها هو الآن يحذرها من (جابر) فحاولت أن تستشف ما بداخله متسائلة:

- ماذا يقلقك بالضبط؟

تردد (عبد الحكيم) للحظة قبل أن يقول:

- (عبد الحميد) فاتحني أمس في موضوع زواجي من ابنة الحاج (حمدان).

تراجعت بظهرها للوراء هاتفة:

- وهل وافقت؟

أجاب بسرعة:

- كلا بالطبع.. لقد رفضت وطلبت منه عدم فتح الموضوع مرة أخرى ولكن..

تردد ولم يُكمل فحاولت أن تستحثه قائلة:

- ولكن ماذا؟

استمر (عبد الحكيم) على تردده لبرهة قبل أن ينهض من مكانه وهو يحسم قراره ويستجمع شجاعته قائلًا:

- ولكن لا يمكن أن تبقى الأمور هكذا اسمعيني جيدًا يا (نعمة).. وجود (عبد الحميد) يهدد كل ما بيننا.

تفرست ملامحه في صمت فأكمل قائلًا:

- (عبد الحميد) لا يزال على عناده ويرفض أن يعطيني ميراثي وها هو الآن يسعى لتزويجي.

ثم أشار إلى خارج الغرفة صائحًا:

- وهذا الصغير لن يبقى على صمته طويلًا سيأتي يوم يكبر فيه وعندها سيخبر أباه بكل شيء ويفتضح أمرنا ويرمينا (عبد الحميد) كالكلاب.

ظلَّت (نعمة) على صمتها تتطلع إليه فصاح:

- أستظلين تنظرين إلي هكذا طوال الليل؟

- كيف نتخلص منه؟

قالتها (نعمة) في جمود وثبات فنظر إليها (عبد الحكيم) مندهشًا فقد كان مترددًا كثيرًا في مفاتحتها وتوقع أن تعارضه وتحاول أن تُثنيه عن تفكيره حتى مع معرفته بكرهها الشديد ل(عبد الحميد) وتعلقها به إلا أنه وجدها تُشاركه قراره وكأنها قد فكرت أيضًا في هذا الأمر من قبل وحسمت قرارها.

سره تجاوبها معه وطمأنه ذلك لنجاح خطته فتشجع قائلًا:

- سوف نسعى للخلاص منه بعيدًا عن الدار وبعيدًا عنا حتى نكون خارج أي شبهة ف(عبد الحميد) كثير السفر إلى المركز وأحيانًا كثيرة يعود وحده في أوقات متأخرة من الليل وقطاع الطرق كثيرون مما سيسهل لنا فرصة الخلاص منه.

- وعندها؟

قالتها (نعمة) في مكر فابتسم (عبد الحكيم) وهو يقترب منها ويضمها إليه قائلًا:

- عندها سنكون معًا إلى الأبد بعد أن نحصل على كل شيء.

وزاد من ضمها إليه وابتسامة شر تنطبع على وجهه.

* * *

ظلَّ (جابر) يتقلب في فراشه حتى بعد انتصاف الليل بقليل فلم يعد يستطيع النوم في البيت ووالده خارج الدار خاصة في أيام سفره كهذا اليوم الذي سافر فيه

والده منذ الصباح الباكر إلى المركز لقضاء بعض الأعمال الخاصة به.

كان قلبه الصغير يشعر بالخوف.. خوف سيطر عليه ومَلَك عليه حواسه كلها فما حدث يُنذر بأن ما سيحدث سيكون أشد خطورة وقسوة ربما أكثر مما يحتمله ودون أن يدري انقبض قلبه الصغير خوفًا على والده وما يمكن أن يناله من تآمر أمه وعمه عليه.. إنه حتى هذه اللحظة لم ينس النظرة التي تبادلتها أمه مع عمه أثناء خروجه من دارهم بعد مشاجرته الأخيرة مع أبيه.. حتى بعد اعتذار عمه لأبيه وسعادة الأخير بذلك ظلَّ الخوف ينهش قلبه وعقله كذئاب الليل التي يخيفونهم بها طيلة الوقت.

استمر (جابر) في أفكاره ومخاوفه وهو يحاول بشتى الطرق عدم الاستسلام للنوم حتى سمع مَن يطرق باب دارهم وسمع خطوات أمه وهي تتجه نحو باب الدار لتفتحه فأرهف سمعه بشدة حتى وصله صوت عمه وهو يحادث أمه بصوت خفيض لم يستطع أن يتبين فحواه فانسل بحرص من على سريره مُحاذرًا أن

يصدر عنه أي صوت وسار بخِفَّة على أطراف أصابعه حتى باب حجرته المغلق وألصق أذنه بالباب ليسمع ما يدور بالخارج.

وقف (عبد الحكيم) مُلصقًا ظهره إلى الباب وقد لثَّم وجهه قائلًا بصوت هامس:

- هل (جابر) مستيقظ حتى الآن؟

أجابته (نعمة) وهي تنظر إلى باب حجرة (جابر) المغلق:

- لا.. إنه نائم في سريره منذ فترة.

أشار لها بيده ناحية باب الحجرة قائلًا:

- تأكدي أولًا.

نظرت له للحظة قبل أن تتجه ناحية باب حجرة (جابر) لتفتحه مُلقية نظرة داخل الحجرة مع الضوء القادم من ساحة الدار والذي انعكس على سرير (جابر)

الذي كان نائمًا في سريره وقد انتظمت أنفاسه مما يوحي باستغراقه في النوم منذ فترة.

أغلقت باب الحجرة بهدوء عائدة إلى (عبد الحكيم) فانتفض (جابر) الذي كان يتصنع النوم من سريره عائدًا لمكانه خلف باب حجرته المغلق.. كان (جابر) قد سمع ما دار بين أمه وعمه فقفز مسرعًا إلى سريره وأغلق عينيه مُحاولًا ضبط أنفاسه المضطربة في اللحظة التي فتحت فيها والدته الباب.

عاد (جابر) يصغي بانتباه إلى الحوار الدائر بالخارج وقد انتابه إحساس بأن الخطر الذي يشعر به والذي كان يخشاه قد أصبح قريبًا منه أكثر مما يتصور.. كان (عبد الحكيم) يقول لأمه بصوت هامس سمعه بالكاد:

- إننا ننتظره عند مدخل القرية.. (طلبة) و(مرزوق) يراقبان الطريق جيدًا وأنا في طريقي إليهما فقط أريدك أن تكوني مستعدة عندما يبلغوكِ بالخبر.

ارتجف قلب (جابر) بين ضلوعه وانتفض جسده الصغير في ذعر.. إنهم يسعون لقتل والده بالاتفاق مع أمه.. سيقتلونه ويصورون الأمر على أنه حادث.. لم يتخيل أن تصل درجة القسوة إلى هذا الحد.. كيف لأمه أن تسمح بهذا.. كيف لعمه أن يقتل أخاه.. لقد فاقوا حتى أبشع تصوراته.. عليه أن يخرج ليحذر والده أيًّا كان الثمن ولكن كيف وهو حبيس داخل غرفته لا يستطيع الخروج وهم بالخارج.

انتظر برهة بعد أن سمع صوت باب الدار وهو يُغلَق وخطوات أمه وهي تعود إلى حجرتها بينما من الخارج سمع صوت صهيل الجواد الذي امتطاه عمه مسرعًا ثم فتح باب حجرته وأخرج رأسه ببطء فلم يجد أحدًا في ساحة الدار فسار بخِفَّة على أطراف أصابعه وفتح باب الدار بحذر شديد وواربه خلفه وانطلق يجري إلى مدخل القرية وهو يدعو الله أن يلحق بوالده قبل عودته.

كان يجري حافيًا عبر طرقات القرية وحصى الأرض وأشواكها تؤلمه وتُدمي قدميه إلا أنه لم يتوقف لحظة

واحدة ودقات قلبه تتعالى وتتعالى حتى صمَّت أذنيه.. تقطعت أنفاسه ولكنه استمر يجري حتى وصل إلى مدخل القرية واختبأ خلف جذع شجرة ضخمة وأخذ يتلفت حوله يمينًا ويسارًا علَّه يرى شيئًا إلا أن السكون كان يعم كل شيء من حوله والظلام يغمر المنطقة بأكملها.. تشجع قليلًا فخرج من مكمنه وهو لايزال يتلفت حوله خشية أن يضبطه أحد وسار بمحاذاة الطريق وهو يركز بصره مُحاولًا أن يستشف ما أمامه حتى لمحه من بعيد

كان مُلقى على وجهه بجانب الطريق فاندفع نحوه وصرخة يأس وألم تندلع من داخله وانحنى عليه وهو يقلبه على ظهره ويرى وجهه وقد غطته الدماء بعد أن شُجت رأسه.

كانت ملابسه تغطيها الدماء بالكامل وقد هَمَد جسده تمامًا.. وضع (جابر) أذنه على صدره فلم يُجاوبه سوى صمت مطبق.. أخذ يهزه بقوة يستعطفه ويستحلفه بحياته أن ينهض.. أن يعود إليه.. ألا يتركه وحيدًا

وسط كل هذه القسوة.. أن يبقى ظهره الذي يحميه ويرعاه لكن القدر كان أقوى من أن يستجيب لنداءاته..

لا ليس القدر مَن فعل به وبأبيه هذا بل الخيانة والغدر والشر الكامن في قلب أمه وعمه.. ومن بين دموعه التي انطلقت من عينيه بغزارة أقسم أن ينتقم..

ينتقم من كل مَن حرمه من أبيه.. لقد قُتل أبيه بيد عمه وبتخطيط أمه ومباركتها وسيدفعون الثمن.. قالها في نفسه وهو ينحني على رأس أبيه يقبِّلها ويمسح الدماء عن وجهه وهو يعاهده قائلًا:

- أقسم أن يدفعوا الثمن يا أبي ولو كان هذا آخر شيء أفعله في حياتي.

ورفع رأسه إلى السماء محررًا صرخة ظلَّت حبيسة داخل صدره..

صرخة انطلقت من قلب طفل سُرقت طفولته..

قلب لم يعد يحوي سوى الكره والانتقام.

* * *

خرجت جنازة (عبد الحميد) مهيبة شارك فيها كل أهل البلدة تقريبًا.. كانت سيرته الحسنة ومعاملته الطيبة تجعل كل مَن سار في جنازته يحزن عليه ويبكيه حتى (عبد الحكيم) الذي تقدم الجنازة وحمل نعش أخيه كان يتصنع البكاء والأسى باقتدار شديد و(نعمة) في الخلف ضمن موكب النساء تصرخ وتولول وقد خلعت طرحتها السوداء وأخذت تجذب شعر رأسها حتى تقطع في يديها وتلطم وجهها بقوة بينما النسوة من حولها يسندونها حتى يلحقن بركب الجنازة.

كان الكل بين منتحب وباكٍ إلا (جابر).. كان الوحيد الذي لم تذرف عيناه دمعة واحدة ربما لأنه أفرغ كل بكائه وصراخه بالأمس على جثة والده.

جثة والده التي تركها مجبرًا ملقاة مكانها عائدًا إلى الدار.. عقله الذي لم يعد صغيرًا حادثه بألا يعلم أحد باكتشافه للأمر حتى يستطيع تنفيذ ما انتواه وما

عاهد أباه عليه.. يجب أن يُظهر الجهل والخنوع حتى يصبح قادرًا ويدفع الجميع الثمن.

استعاد عقله تلك اللحظة.. لحظة تركه لأبيه وهو يسير في الجنازة وسط أصدقائه الذين أرادوا مؤازرته يتقدمهم (محمود) أقرب أصدقائه الذي سار بجانبه وهو يضع يده على كتفه مواسيًا بينما عينا (جابر) مُعلقتين بنعش والده قبل أن يهبط بنظره إلى عمه (عبد الحكيم) الذي يحمل النعش ويتصنع الانهيار والبكاء.

لحظتها لمع الدمع في عينيه وعاد يردد القسم الذي أقسمه لوالده داخل عقله ومن داخله تصاعدت غصة..

غصة علِم أنها ستبقى بداخله إلى الأبد.

٧ ٧ ٧

الفصل السادس

أسيوط... 1954م

مرت الأيام وتوالت السنوات سنة تلو الأخرى.. كبر فيها (جابر) وصار شابًّا يافعًا يمتاز بجمال ملامحه وذكائه لكنه صار أكثر انطواءً وانعزالًا عن كل ما حوله ومَن حوله خاصةً بعد زواج عمه من أمه فور انقضاء سنة واحدة فقط على حادثة مقتل والده التي قُيدت كعادة تلك الجرائم التي لا يوجد بها دوافع وليس لها شهود، ضد مجهول.

مرت تسع سنوات.. مرت بالنسبة ل(جابر) وكأنها ألف عام من هول ما رآه فيها من إهانة ومذلة سواء من أمه أو من عمه وفي داخله تحول قلبه إلى قطعة من السواد الناقم على كل شيء.. لم يبق لديه الأمل في شيء يمنحه القدرة على الحياة سوى الانتقام والعهد الذي قطعه لأبيه.

إنه لم ينس حتى الآن كيف استولى عمه على كل شيء.. كيف أخرجه من التعليم وجعله يعمل في الأرض ليل نهار ولا يحصل منها على شيء بينما هو ينعم من خيراتها وينفقها كلها على شهواته وسهراته الدائمة مع أصدقائه فلم يبق منها شيء.

إنه لن ينسى أبدًا عندما أتى عمه إلى دارهم بعد أسبوع واحد من وفاة والده وكيف جمعت غرفة أبيه بينه وبين أمه وكأنهما يحتفلان معًا بنجاح خطتهما.. يومها ظلَّ جسده كله يرتعد من فرط الغضب.. وكيف ظلَّ يخبط رأسه في جدار غرفته حتى سالت دماؤه.

دماء أبيه التي تجري في عروقه صارت كنهر من نار يكويه ويعذبه.. نهر ظلَّ يصرخ بداخله طالبًا الانتقام.

الانتقام الذي حرمه حتى من النوم طوال السنوات السابقة حتى عندما أخرجوه من غرفته وأصبح ينام في الزريبة الخارجية الملحقة بالدار وسط البهائم بعد أن أخذوا منه غرفته لتُصبح غرفة أخويه الصغار أبناء الخيانة كما كان ينعتهم بداخله.

صحيح أنه لم يعترض وقتها فقد وافق هذا هوى في نفسه حيث كان يخشى النوم داخل الدار فمَن يدريه أن مَن تآمرا على أبيه لن يتآمرا على الخلاص منه هو الآخر ولم يكن يهدأ حتى يدخل الزريبة ويُغلق على نفسه من الداخل حتى يشعر بالأمان إلا أن هذا لم يشفع في شيء.. كان يتقلب في فراشه طويلًا وكأنه ينام على جمر ملتهب.

استعاد (جابر) كل هذا في ذهنه وهو جالس في الأرض بعد أن أنهى عمله مستندًا إلى جذع شجرة وقد أشعل بعض الحطب ليُساعده على تدفئة نفسه من صقيع الشتاء.

كان الليل قد أرخى سدوله منذ فترة وحلَّ الظلام بعد أن ودعت الأرض شمسها على وعد بلقاء دافئ جديد في الصباح لكن (جابر) ظلَّ كعادته كل يوم أكثر مَن يشقى في الأرض وآخر مَن يتركها.. كان يؤخر عودته إلى الدار قدر الإمكان حتى يعود على ميعاد النوم مباشرة.

كان يحاول طوال السنين السابقة تجنب أمه التي لم تعد أمه.. لم يعد يربطه بها أي شيء حتى رابط الدم تم حله يوم أن سال دم والده على يديه بمباركتها.. يوم أن أصبح يتيمًا بفضل تخطيطها هي وشريكها في الجريمة.

أرجع رأسه إلى الخلف وأغلق عينيه وهو يأخذ نفسًا عميقًا ملأ به صدره قبل أن يزفره.. يزفر آخر أنفاس الهواء النقي قبل أن يعود إلى هواء الدار الفاسد حيث تتنفس الخائنة والخائن.

امتلأت نفسه بالحنق وهو يقوم من مكانه مضطرًا ليعود إلى الدار.. أطفأ النار بواسطة بعض الرمال وجرجر قدمين ثقيلتين ثقل الموت على القلوب حتى وصل إلى الزريبة فأغلق بابها خلفه بإحكام وألقى بجسده على السرير الصغير الذي نصبه بجوار الحائط أسفل الشباك الوحيد الموجود بالحجرة والذي أغلقه من الداخل بإحكام وحاول جعل جسده يسترخي علّه يستقطب النوم كضيف طال انتظاره.

أغلق عينيه جلبًا لمزيد من الاسترخاء ثم لحظات وفتحهما على اتساعهما في توتر شديد مع سماعه صوت طرقات خافتة على الباب من الخارج وكأن هناك مَن يحاول دفع الباب للدخول.

انتفض جسده في عنف واعتدل جالسًا في مكانه قبل أن ينهض ويتحرك بخِفَّة وحذر نحو الباب قائلا بصوت مرتعد:

- مَن؟

جاوبه الصمت للحظات ظلّ فيها صدره يعلو ويهبط قبل أن يسأل مجددًا:

- مَن بالخارج؟

عاد صوت الطرق من جديد بشكل أقوى هذه المرة حتى كاد الباب يُقتلع من مكانه فانتفض جسده بشدة وتراجع إلى الخلف في سرعة وهو ينظر حوله يمينًا ويسارًا حتى عثر على فأس مُلقاة بجانب الحائط فالتقطها بسرعة ورفعها في تحفز واستعد للمواجهة إلا

أن الطرق توقف فجأة وخيَّم صمت رهيب على المكان فتقدم (جابر) بحذر من الباب وألصق أذنه به من الداخل فلم يسمع شيئًا لحظات ظلَّ فيها على توتره خشية أن تكون لعبة حتى يدفعه مَن بالخارج لفتح الباب.. أخذ يفكر لبرهة ثم اندفع ناحية سريره يعتليه ويفتح النافذة بحذر قبل أن ينظر إلى الخارج فلم يجد أحدًا فألقى الفأس إلى الخارج ودفع جسده عبر النافذة على الرغم من صغرها إلا أنه حشر نفسه حتى خرج هابطًا على قدميه فأسرع يلتقط الفأس من جديد ويرفعها وهو يُلصق ظهره بالحائط وأخذ يتقدم إلى الأمام بحذر شديد ومد عنقه ينظر ناحية الباب الذي كاد أن يُقتلع من شدة الطرق فوجد المكان خاليًا تمامًا.

تنفس الصعداء وأنزل فأسه وهمَّ بالعودة إلى فراشه من جديد عن طريق النافذة كما خرج لولا ما لمحه أمام باب الزريبة وتعلق بصره به فأمام الباب مباشرة كانت بقعة دماء كبيرة وكأن هناك ما تم ذبحه أمام الزريبة منذ قليل.

عاد إليه تحفزه وسار ناحية الباب وبصره مُعلق بتلك البقعة الدموية الكبيرة إلا أن أكثر ما أثار انتباهه هو الخطوات التي خرجت من تلك البقعة.. خطوات قدم بشرية تركت آثارًا مدممة على الأرض.. تبع تلك الآثار فوجدها تتجه ناحية الدار فرفع فأسه من جديد وتبع الخطوات المطبوعة على الأرض حتى وصل إلى باب دارهم ليجده مفتوحًا على مصراعيه.. خطا إلى داخل الدار وهو يتلفت حوله خشية أن يكون صاحب الخطوات مختبئًا.

كان أول ما صادفه باب غرفة الطفلين عن يمينه مفتوحًا هو الآخر فاندفع إلى داخل الحجرة شاهرًا فأسه.. قبل أن يرتد إلى الخلف مصعوقًا من هول ما رآه فأمامه مباشرة كان الطفلان مذبوحين في مكانهما على السرير الذي امتلأت ملاءاته بالدماء فتراجع إلى الخلف وهو يتمتم بصوت مرتجف:

- مستحيل.

لم يكن يُكِّن لهما أي عاطفة بل لم يكن يُكِّن لأي أحد داخل تلك الدار أي عاطفة إلا أن بشاعة المنظر كان فوق تصوره.

خرج من الغرفة وهو يحاول أن يستجمع شتات نفسه وتقدم مرة أخرى ناحية حجرة أمه التي كان بابها مواربًا.. تمامًا كما وجده عندما ضبطها مع عمه أول مرة فدفعه بحذر وهو يرفع فأسه إلا أن جسده ارتد بعنف هذه المرة عندما وجد عمه معلقًا من رقبته في السقف بحبل غليظ وجسده يتأرجح حول نفسه وقد جحظت عيناه وبرز لسانه خارجًا من فمه في مشهد مرعب.

أدار بصره ناحية السرير فوجد يدين تُغطيهما الدماء تتعلق برقبة أمه تعتصرها بينما الأخيرة عيناها جاحظتان في رعب غير مُصدق وقد نفدت منها الحياة.

مرت لحظات وما زالت اليدان تعتصران عنق أمه بلا رحمة قبل أن تتركها جثة هامدة ويلتفت صاحبها

ناحيته.. لحظتها سقط الفأس من يده وهو يلتصق بالحائط خلفه في رعب شديد فأمامه مباشرة كان أبوه ماثلًا أمامه وقد تغطى وجهه بالدماء كما رآه آخر مرة وبصوت خرج منه كالفحيح تمتم:

- أبي.

ارتعد وجه أبيه من فرط الغضب وهو يصرخ:

- لست أباك.

ثم حوَّل بصره ينظر إلى أخيه المعلق من رقبته في سقف الحجرة وإلى (نعمة) التي كانت جثة هامدة على سريرها قائلًا بصوت تردد صداه كأنه خارج من جوف بئر مهجور:

- أكان لا بد أن أعود لأنتقم لنفسي.. ألم أترك ولدًا ينتقم لي ويُريحني في قبري.

ردد (جابر) بصوت مرتعد:

- كنت سأفعلها.. كنت سأفعلها يا أبي أقسم لك.

اقترب منه أبوه ورفع نحوه يديه الغارقتين بالدماء وهو يقول بصوت حَمَل كل الغضب:

- بل أنت أجبن من أن تأخذ حقي.. لست رجلًا كي تأخذ ثأري.

وقبض بيديه على عنق (جابر) يعتصرها قائلًا في مقت:

- ولست ولدي كذلك.

صرخ (جابر) واليدان تعتصران الحياة من داخله:

- الرحمة يا أبي.. الرحمة.

أجابه صوت أبيه في مقت:

- لا رحمة لأمثالك.

ظلَّ (جابر) يصرخ ويصرخ قبل أن ينهض من فراشه مفزوعًا والعرق يغمر جسده بالكامل وهو يسعل بشدة ويتحسس رقبته في ذعر.

كان الكابوس الذي رآه لا يزال ماثلًا أمام عينيه بكل تفاصيله فأخفى وجهه بين راحتيه وأخذ يبكي بحرقة وهو يردد من بين دموعه:

- سأفعلها يا أبي.. أقسم أن أفعل حتى تستريح.

قالها والتقط قُلة المياه من جانبه فشرب منها حتى ارتوى تاركًا المياه تنساب بغزارة على رقبته قبل أن يضعها ويضم يديه في قوة ومن داخله عَلِم أن الساعة التي انتظرها طوال السنين السابقة قد حانت..

ساعة الانتقام.

* * *

انهمك (جابر) في حرث الأرض منذ الصباح الباكر وحتى الآن وقد قاربت الشمس على المغيب.. سال

عرقه بغزارة وبلّل ملابسه من فرط المجهود الذي يبذله وتساقطت قطرات العرق داخل عينيه تُحرقهما وتُزيدهما احمرارًا فاعتدل يمسح جبينه وفرد جسده عن آخره ملتقطًا نفسًا عميقًا ملأ به صدره قبل أن يزفره في حُرقة.

صارت حياته جحيمًا.. ما بين العمل في الأرض من شروق الشمس حتى مغيبها والكوابيس التي صارت تطارده كلما حاول أن يغمض عينيه.. لا بل هو كابوس واحد يُشاهده يومًا تلو الآخر في عرض مستمر أنهك بدنه وعذّب روحه.. كان يعمل في الأرض بمنتهى القوة حتى يُنهك جسده عن آخره فيستطيع النوم بسهولة ليلًا لكن هيهات ما إن يُغمض عينيه حتى يتكرر المشهد بكل تفاصيله من أول الطرق على الباب إلى يدي والده الغارقة بالدماء وهي تعتصر عنقه بلا رحمة.

انتبه على صوت خطوات جواد قوي تضرب الأرض فحوّل نظره ناحية الطريق كان عمه يمتطي جواده قادمًا ناحيته.. كعادته يستيقظ متأخرًا ويقضي يومه

إما في المركز أو مع أصدقائه في جلسات الحشيش تاركًا هَمَّ رعاية الأرض بالكامل على عاتق (جابر).

اقترب عمه منه فنظر له (جابر) دون أن ينطق فبادره (عبد الحكيم) بلهجة آمرة:

- لا تعود إلى الدار الليلة قبل أن تُنهي حرث الحوض القبلي بأكمله.. هل تفهم؟

أجابه (جابر) بصوت خفيض مع إيماءة من رأسه:

- أفهم.

اكتفى (عبد الحكيم) بتلك الإجابة ولكز جواده بقدمه وسار في طريقه تاركًا (جابر) يفكر.. كان قد اتخذ قراره بتنفيذ الأمر حتى يستريح من هذا العذاب اليومي وها هي الفرصة تأتي سانحة له على طبق من ذهب.. فعمه لن يعود قبل آخر الليل تاركًا أمه والصغيرين وحدهم في الدار وبمنتهى القوة هبط بفأسه على الأرض كأنه يودعها.

ظلَّ في الأرض حتى مغيب الشمس ثم جمع أدواته وذهب كعادته إلى المقابر حيث قبر والده.. قرأ الفاتحة ثم جلس أمامه ينظر إلى القبر في صمت.

الليلة يتم الأمر ويستريح..

الليلة تتحقق العدالة الغائبة ويدفع الكل الثمن..

الليلة فقط يستريح أبوه في قبره وتهدأ دماؤه التي تصرخ طالبة الثأر والليلة أيضًا يودع كل ما حوله.. حياته السابقة بأكملها ويبدأ حياة جديدة بعيدًا عن ذكريات الماضي المرعبة ومن بين أفكاره خرج صوته حازمًا:

- الليلة يا أبي أُحقق ما عاهدتك عليه.. أنا لم أنس ولن أنسى أبدًا.. الليلة ستفخر بي وتعلم أنك أنجبت رجلًا.

استمر في مكانه لساعات يحادث أباه ويطمئنه قبل أن ينهض واضعًا يديه على القبر مودعًا ثم انحنى طابعًا قُبلة على حجارة القبر الباردة وسار عائدًا إلى الدار.

حين دخلها كان الجو هادئًا والصمت يُخيِّم على المكان.. الصغار نائمون في حجرتهما وأمه في حجرتها.. بحث بعينه بين أدوات الدار حتى عثر على سكينٍ والتقط عصا غليظة مركونة بجوار الفرن الكبير في ساحة الدار ثم دخل إلى غرفة الصغار وكانا غارقين في النوم.. ألقى عليهما نظرة باردة قبل أن يقترب منهما رافعًا سكينه وبآلية تامة وكأنه منوم مغناطيسيًّا هوى عليهما بها مرة تلو الأخرى تلو الأخرى.. استمر يطعنهما حتى غرقت يداه وجلبابه وملاءات السرير بالدماء.. لم يصرخا كانا غارقين في النوم تمامًا ثم مد يده بالسكين ناحرًا كلًا منهما.

عاد إلى الوراء يتطلع إلى عمله في صمت كفنان مبدع أنهى لوحة سيريالية جميلة عنوانها الانتقام.. خرج متجهًا ناحية غرفة أمه التي كانت مضطجعة على سريرها مرتدية قميصًا ورديًا وقد أغمضت عينيها.

دفع باب الحجرة فاصطدم بالحائط مُحدثًا دويًا شديدًا جعلها تفتح عينيها في فزع وما إن رأته بعينيه الباردتين والسكين الذي يقطر منه الدم وجلبابه الغارق

بالدماء حتى اتسعت عيناها في غير تصديق وهمَّت بإطلاق صرخة فزع فألقى (جابر) السكين والعصا من يديه وهجم عليها يعتصر رقبتها في قوة شديدة.

حاولت (نعمة) الدفاع عن نفسها.. ظلّت تحاول التملص دون جدوى.. رفست بقدميها.. حاولت دفعه بيديها.. خمشته بأظفارها لكن قبضته استمرت تعتصر عنقها في حقد وكراهية نازعة آخر رمق من الحياة بداخلها قبل أن يرتخي ذراعاها وتهمد حركتها وقد جحظت عيناها في رعب غير مُصدِق.

ظلّت قبضته مُلتفة حول عنقها لبرهة بعد أن همدت تمامًا ثم تركها رافعًا عينيه إلى العارض الخشبي الذي يدعم سقف الحجرة وخرج يُحضر الحبل الذي كان قد أعده وتركه في ساحة الدار.

عندما عاد (عبد الحكيم) إلى الدار كان يسير مترنحًا من أثر الحشيش الذي ظلّ يشربه طيلة الليل.. هبط عن فرسه ودفع الباب عابرًا ساحة الدار قبل أن يدفع باب حجرته ويشهق في عنف فأمامه كانت هناك

مشنقة تتدلى من السقف وحبلها يتأرجح أمام عينيه بينما (نعمة) ترقد جثة هامدة على السرير وقد تلوث عنقها بالدماء وعيناها لا تزالان على اتساعهما.. كان هذا آخر ما رآه قبل أن تُظلم عينيه دفعة واحدة إثر ضربة قوية أصابت رأسه من الخلف فهوى ساقطًا أرضًا ومن خلفه برز (جابر) الذي كان مختبئًا في غرفة الصغار.

فتح (عبد الحكيم) عينيه إثر لطمة قوية من (جابر) فوجد يداه وقد قُيِّدت خلف ظهره بينما (جابر) يُدخل عنقه داخل المشنقة التي أعدها له بعد أن أوقفه على مقعد من مقاعد الدار فارتعشت قدماه في رعب وسالت دموعه على وجهه وهو يستحلفه قائلًا:

- الرحمة يا (جابر).. لا تقتلني.

هبط (جابر) على الأرض بعد أن ثبَّته جيدًا وقال ناظرًا له في غل:

- لا رحمة لأمثالك.

انتحب (عبد الحكيم) قائلًا في استعطاف:

- لماذا يا (جابر).. لماذا يا ولدي؟

صرخ (جابر) في غضب:

- لست ولدك.. أنا ابن (عبد الحميد) الذي قتلته.

اتسعت عينا (عبد الحكيم) في ذعر هاتفًا:

- أنا لم أقتله.. بل قتله قطاع الطرق أقسم أن...

قاطعه (جابر) في صرامة:

- لا داعي للكذب أنا أعلم كل شيء.. أعلم أنك قتلت أبي لتحصل على الأرض والدار وزوجته.. لقد سلبته كل شيء.

ثم اقترب منه قائلًا بصوت حَمَل كل البغض:

- وأنا اليوم سأسلبك حياتك.

صرخ (عبد الحكيم):

- لا.... لا.

لكن (جابر) دفع المقعد بقدمه تاركًا عمه يتدلى أمامه من السقف وقد احتبست الصرخة داخل حلقه وبرزت عيناه من محجريهما بينما لسانه يتدلى خارج فمه.. عندها وعندها فقط ارتسمت ابتسامة راحة على شفتي (جابر) وهو ينظر حوله.. ينظر لعمله الذي اكتمل.

عاد (جابر) إلى الزريبة فغسل يديه ووجهه وغيَّر جلبابه بآخر نظيف ثم خرج يعتلي فرس عمه الذي كان واقفًا خارج الدار واندفع به تاركًا القرية كلها خلفه..

يترك ماضيًا يُحاول أن ينساه حتى وصل إلى مدخل القرية فخفَّف من سرعة جواده ناظرًا إلى البقعة التي سقط فيها أبوه ميتًا عندها خُيِّل إليه أن أباه يقف في مكانه ملوحًا له بيده وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضا.

بادله (جابر) الابتسام ولوَّح له بيده حتى اختفى من أمام عينيه ثم لكز جواده منطلقًا جهة المركز نحو حياة جديدة...

تاركًا الموت يحلق بجناحيه فوق دار (عبد الحميد) إلى الأبد.

v v v

الفصل السابع

هبط (شريف) من السيارة التي يقودها مساعده الملازم (عادل) الذي هبط خلفه وأسرع يلحق به.. كان (شريف) قد بحث عن اسم صاحبة الروشتة الطبية التي تم العثور عليها ضمن ما تم العثور عليه في الصندوق وعَلِم أن ابنتها لا تزال تعيش في نفس المنطقة فحصل على عنوانها وها هو يطرق على باب المنزل منتظرًا.

مرت دقائق قبل أن تفتح الباب سيدة عجوز في منتصف السبعينات كما أُوحى إليه من ملامحها المتغضنة وشعرها الأبيض القصير الذي عقصته خلف رأسها وغطته بإيشارب بسيط.. تطلعت لهما السيدة وقد زوت ما بين عينيها دلالة على ضعف بصرها قبل أن تقول:

- مَن أنتما؟

رسم (شريف) على شفتيه ابتسامة مطمئنة وهو يقول:

- أنا الرائد (شريف مدكور).

ثم أشار إلى زميله متابعًا:

- وهذا شريكي الملازم (عادل عبد الرحمن).. جئنا إليك ونريد أن نُلقي عليك بعض الأسئلة.

ظلَّت السيدة تنظر لهما وهي تسأل:

- بخصوص ماذا؟

أجابها (شريف) قائلًا:

- إننا نحقق في بعض الجرائم، حدثت أثناء الفترة التي كنت تعيشين فيها مع والدتك رحمها الله.. سنلقي عليك بعض الأسئلة بخصوص تلك الفترة ربما تكشفين لنا بعضًا من غموض هذه القضية.

فتحت الباب سامحة لهما بالدخول وتقدمتهما إلى غرفة الضيوف.. كانت تتعكز على عصا في يدها لذا سارت ببطء وهما خلفها حتى جلست قبالتهما قبل أن تسأل في تحرُّج:

- ماذا تريدان أن تشربا؟

ابتسم كل من (شريف) و(عادل) والأول يُجيب قائلًا:

- لا داعي يا حاجة شكرًا لك.

- أنتم ضيوف ياولدي وهذا واجبكم.

- لو أردنا شيئًا يا حاجة سنطلبه على الفور.

ثم اعتدل في مكانه كي يدخل في صلب الموضوع متسائلًا:

- يا حاجة (انتصار) لقد بحثنا عنك كما قلت لسؤالك بخصوص الوالدة رحمها الله لقد كنت تعيشين معها

في بيتها المجاور لمحطة القطار منذ بداية الأربعينات وحتى زواجك وانتقالك إلى بيت زوجك أليس كذلك؟

هزَّت (انتصار) رأسها ببطء مُجيبة:

- نعم يا ولدي.

أخرج (شريف) من جيبه الروشتة التي ظهر عليها القِدَم من اصفرارها وتآكل أطرافها وفردها أمام الحاجة (انتصار) وهو يسأل:

- هذه الروشتة الطبية عُثر عليها حديثًا داخل صندوق مغلق هذه الروشتة تخص والدتك الحاجة (سميحة) اسمها مدوَّن عليها.. أريدك أولًا أن تُلقي نظرة عليها وتخبريني مع مَن كانت هذه الروشتة؟

قرَّبت (انتصار) عينيها من الورقة المفرودة أمامها وتطلعت إليها بتركيز شديد قبل أن تبتسم وتهز رأسها قائلة:

- لقد مر وقت طويل منذ أن رأيت هذه الورقة كان هذا من زمن بعيد.

سألها (شريف) في لهفة:

- إذن هذه الروشتة تخص والدتك فعلًا؟

هزَّت رأسها أن نعم ثم أضافت قائلة:

- كانت رحمها الله مريضة مرضًا شديدًا والألم كان أصعب من أن تحتمله فكنا نحقنها بالمخدر حتى تستريح.

- ومَن كان يُحضر لها الدواء المخدر؟

أجابت على الفور:

- أنا كنت أُحضره من صيدلية قريبة من المنطقة.

ثم سكتت للحظات وكأنها تتذكر شيئًا فصمت (شريف) ليعطيها مساحة كي تتكلم فأضافت:

- ولكن بعد فترة كان أحد جيراننا هو مَن يأخذ الروشتة ويُحضر الدواء.

عاد (شريف) يسأل:

- لماذا؟

هزَّت رأسها في عدم فهم فأوضح (شريف) سؤاله قائلًا:

- لماذا كان جاركم هذا هو مَن يُحضر الدواء ولماذا توقفت أنت عن إحضاره؟

أجابت قائلة:

- لقد كنت صغيرة في ذلك الوقت وأحيانًا كنا نحتاج للدواء في أوقات متأخرة فكان جارنا يتطوع لإحضاره.

- وماذا تعرفين عن جاركم هذا؟

ترددت للحظة لاحظها (شريف) على الفور وإن لم يعلق وانتظر حتى أجابت:

- لا أعلم عنه الشيء الكثير سوى أنه شاب قادم من الصعيد كان يسكن المنزل معنا في الطابق الأرضي وظلَّ فيه عدة سنوات قبل أن يعود إلى بلدته أو هذا ما قيل وقتها.

نظر لها (شريف) للحظة وكأنه يسبر أغوارها قبل أن يسأل:

- هل تتذكرين اسمه؟

نظرت الحاجة (انتصار) إلى السقف كمَن تتذكر قبل أن تُجيب قائلة:

- أظن أن اسمه كان (محمود).

- (محمود) ماذا؟

هزت رأسها يمينًا ويسارًا دلالة على عدم المعرفة مُجيبة:

- لست أدري لقد كنا نعرفه ب(محمود).. (محمود الصعيدي).

- من أي بلد في الصعيد؟

- لا أعلم سوى أنه من الصعيد، أما من أي مكان تحديدًا في الصعيد فهذا ما لم أعلمه ولا أحد غيري كان يعلمه.

نظر (شريف) ل(عادل) في يأس قبل أن يلتفت إلى الحاجة (انتصار) قائلًا:

- سؤال أخير يا حاجة أتستطيعين أن تتذكري في أي عام تحديدًا عاد هذا الشخص إلى بلده؟

ابتسمت (انتصار) في وهن قائلة:

- يا ولدي كان هذا من زمن بعيد جدًا لم تعد ذاكرتي كما كانت كي أحفظ التواريخ كما كنت في السابق.. لكنني رأيته يحمل حقيبته مغادرًا.

بادلها (شريف) الابتسام وهو يُشير ل(عادل) لينهضا معًا وهو يشكر مضيفتهما على حُسن تعاونها معهما قبل أن يغادرا المنزل و(عادل) يقول ل(شريف) في ضجر:

- لم تفِدنا في شيء فلم نحصل منها على معلومة واحدة مفيدة.. ثم مَن (محمود) هذا وكيف نتعقب أثره لنعرف نهايته.

ابتسم (شريف) وهو يربت على كتفه قائلًا:

- اهدأ.. ستتضح الأمور رويدًا رويدًا كل ما علينا هو السعي والانتظار كما أنني أشعر أن هذه السيدة أخفت عنا أكثر مما قالت.

نظر له (عادل) في دهشة وهو يتساءل:

- وما مصلحتها في ذلك؟

هز (شريف) رأسه في حيرة وهو يُجيب:

- لا أدري لكن إحساسي يُنبئني أن لديها معلومات عن هذا الشخص أكثر مما قالت لنا.

ثم تنهد مكملًا وهو يربت على كتفه مرة أخرى:

- على العموم اذهب الآن لتستريح وسيكون لدينا حديث آخر قريبًا.

افترقا وذهب كلٌّ منهما في طريقه قبل أن يتوقف (شريف) وينظر إلى الخلف متطلعًا إلى الأعلى حيث نافذة منزل الحاجة (انتصار) التي كانت تنظر له من خلف زجاج نافذتها السميك قبل أن يخفض بصره ويمضي مبتعدًا.

* * *

أولج (شريف) مفتاحه في ثقب الباب وأداره قبل أن يدلف بهدوء إلى الداخل وهو يتشمم الهواء من حوله

ويبتسم في حنان ثم خطا على أطراف أصابعه حتى وصل إلى مطبخ شقتهم الذي انبعثت منه تلك الرائحة الطيبة للطعام الذي يُعده والده.

والده الذي كان يقف في منتصف المطبخ وهو يرتدي قفازًا منزليًا بسيطًا ويُقلِّب الطعام على النار وهو يدندن لحنًا قديمًا لإحدى أغاني محمد عبد الوهاب مُطرِبه المفضل وقد بدا مُنشغلًا عن كل ما حوله حتى إنه لم ينتبه إلى (شريف) الذي وقف يتابعه باسمًا على باب المطبخ حتى صاح الأخير:

- اللّٰه عليك يا شيف.

التفت إليه والده (حسين مدكور) وقد انتبه لوجوده ورد عليه ضاحكًا:

- يا بني الطبخ فن وله قواعد وأصول وأنا بلا فخر أستاذ ورئيس قسم.

قال له (شريف) وهو ينحني احترامًا:

- إذن انتهِ مما تُعده سريعًا يا سيادة رئيس القسم فأنا أكاد أموت من الجوع.

- ريثما تُبدل ملابسك وتُلقي التحية على جدك أكون قد انتهيت.

تركه (شريف) وذهب إلى غرفته فأبدل ملابسه واتجه إلى غرفة جده.. كان (شريف) يعيش مع والده وجده في منزل والده خاصة بعد شجاره الأخير مع زوجته منذ أكثر من ثلاثة شهور.. زوجته التي لم تحتمل معه أكثر من ثلاث سنوات قبل أن تتحول حياتهما إلى صراع مستمر وشجار ليل نهار.. إنه يتذكر كيف كان شجارهما الأخير عندما وقفت أمامه تمنعه من الخروج وقد وضعت يديها في وسطها في تنمر وهي تصيح غاضبة:

- لن تخرج قبل أن ننهي هذا الموضوع لقد سئمت تجاهلك الدائم لي وكأنني كمٌّ مُهمَل في البيت بلا قيمة.. ألم تتعلم أن تهتم بزوجتك وبيتك كما تهتم

بعملك أم انشغالك الدائم بعملك أنساك أن لديك زوجة لها عليك حقوق.

كان قد بلغ منتهاه من كثرة الشجار اليومي فصاح غاضبًا هو الآخر:

- ماذا تريدين مني أن أفعل إنني ضابط شرطة أتدرين ما معنى ضابط الشرطة؟ أم إنك تطلبين مني أن أترك عملي وأبقى بجوارك.

صاحت في ثورة أكبر:

- كل الرجال تعمل ولكنهم لا يهملون بيوتهم مثلما تفعل.. إنك تخرج في الصباح الباكر وتبيت بالأيام خارج البيت وحتى عندما تعود تعود آخر الليل وكأن البيت مجرد فندق للنوم فقط.

زفر في ضيق وحنق واضح وهو يقول وهو يتجه ناحية الباب:

- أيمكننا تأجيل هذا الشِجار حتى أعود؟

نظرت له في تحد وهي تقول:

- إنني لن أُرجئ أي شيء.. لقد اكتفيت.

توقفت يده وهي تمسك بمقبض الباب والتفت لها وهو يسألها:

- ماذا تقصدين؟

أجابته ببرود:

- إننى ذاهبة إلى بيت والدي ولديك الخيار إما أن تتعلم أن تهتم بزوجتك وإما فإن طلاقنا هو الحل الوحيد.

لحظتها نظر لها في صمت قبل أن يفتح الباب ويندفع خارجًا وهو يصفق الباب خلفه بمنتهى القوة.

استعاد ذهنه ذلك الشِجار وتلك الذكرى وهو يقف على باب حجرة جده فنفض رأسه في قوة وهو يدق على الباب بهدوء قبل أن يفتحه ويدلف إلى الداخل حيث

كان جده الذي تعدى عمره منتصف الثمانينيات جالسًا في سريره يحتضن مصحفه الكبير وينظر إلى النافذة التي تجاوره يتطلع إلى ضوء النهار فجلس بجواره وربَّت على يده المعروقة وهو يرسم ابتسامة على وجهه قائلًا:

- كيف حالك يا كبيرنا؟

بادله جده الابتسام وهو يقول بصوت ضعيف:

- في خير حال يا ولدي بحمد الله.

ثم تطلع إلى وجهه وإلى التماعة عينيه وقال:

- البسمة على وجهك بينما قلبك مُثقل بالهموم يا ولدي.

أشاح (شريف) بوجهه في صمت فأكمل جده قائلًا:

- كل مشكلة ولها حل فقط دع الأمور تأخذ وقتها وما على الله سيكون.

نظر له (شريف) قائلًا:

- ماذا كنت ستفعل يا جدي لو كنت مكاني لقد كنت ضابط شرطة وكذلك والدي.. ماذا كان بيدي لأفعله؟

- سأدع الوقت يُذيب أي خلاف.. زوجتك تحبك وأنت تحبها وخلاف كهذا لن ينهي ما بينكما.

- لقد تغيرت (جميلة) كثيرًا منذ أن أجهضت حملها للمرة الثانية وكأن هذا ذنبي أنا.. صارت أكثر عصبية وتميل للشجار حتى على أتفه الأسباب.

ثم رسم ابتسامة باهتة على وجهه وهو يقول لجده مازحًا:

- أكانت جدتي تفعل معك الشيء نفسه أم إن وجود والدي شغلها عن كل شيء؟.

عاد جده يتطلع من خلال النافذة وهو يقول:

- لم يعد لدي منها الآن سوى الذكرى.. إن نعمة النسيان ليست متاحة لمَن يطلبها.

لم يفهم (شريف) معنى جملته فتساءل:

- لماذا لا أجد لها أي صورة في المنزل ولا حتى في حجرتك هذه؟

نظر له جده للحظات في صمت قبل أن يقاطعهما صوت والده من خارج الحجرة مناديًا:

- الغداء جاهز أحضر جدك وهيا قبل أن يبرد الطعام.

ساعد (شريف) جده على الخروج من سريره وناوله عكازه الخشبى وتلقَّى يده الأخرى وسانده حتى مائدة الطعام ثم جلس ثلاثتهم يتناولون الطعام في صمت قبل أن يقطعه والده متسائلًا:

- ما أخبار العمل أهناك قضايا جديدة؟

أجابه (شريف) وهو يتناول طعامه ويبتسم:

- يبدو أننا سنقوم بعملنا وعملكم في نفس الوقت.

نظر له أبوه في حيرة فتابع قائلًا:

- إنني أحقق في قضية جرت أحداثها في خمسينات القرن الماضي أي منذ أن كان جدي ضابطًا صغيرًا لا يزال في الخدمة.

تساءل أبوه مندهشًا:

- قضية منذ الخمسينات ولم تُكتشف إلا الآن؟

هز (شريف) رأسه إيجابًا وهو يقول:

- إنها ليست قضية عادية بل قضية لو تسربت للإعلام ستشغل الرأي العام طويلًا فليس كل يوم يكون لديك قضية بطلها سفَّاح أو قاتل متسلسل.

- وكيف اكتشفتم هذه الجرائم الآن؟

- لقد عثرنا على عدد من الجثث والهياكل العظمية في منزل مجاور لمحطة القطار مباشرة وما زال البحث

جاريًا وإن كانت الصورة ستبدأ تتضح تدريجيًا الفترة القادمة ثم إن....

قطع جملته على صوت حشرجة وسعال جده الشديد الذي امتقع وجهه بشدة وغابت عنه الدماء فاندفع هو ووالده يسندون جده حتى أوصلوه إلى حجرته ووضعوه في سريره بعناية بينما اندفع (شريف) ليُحضر له كوب من الماء وهمَّ بالعودة إليهما إلا أنه توقف متصلبًا في مكانه على صوت والده وهو يصرخ في ذعر ولوعة.. عندها سقط كوب الماء من يده وتناثرت أجزاؤه على الأرض مع ارتجافة يده وانقباض قلبه.. فصرخة أبيه كانت تعني أن لحظة الفراق قد حانت وأنه ووالده سيفقدان أعز مَن لديهما الآن.. إلى الأبد.

٧ ٧ ٧

الفصل الثامن

اشتدت الرياح في هذا الوقت المتأخر من الليل وظلّت تصفع وجهه في قوة فرفع (جابر) ياقة جلبابه يغطي بها أذنيه وضمّ راحتيه أمام وجهه ينفخ فيهما في قوة كي يلتمس بعضًا من الدفء المفقود وهو جالس على أرض محطة القطار مستندًا إلى الحائط ينتظر بفارغ الصبر القطار الذي سيحمله بعيدًا ليبدأ حياة جديدة بعيدًا عن كل هذا الموت.

عليه أن يتناسى كل هذا الماضي المؤلم.. لقد حقق انتقامه وصدق وعده لوالده لكن الألم كان ولايزال ينهش روحه والصداع يطرق رأسه بلا رحمة مع انتفاضة جسده كلما تذكر ما فعلته يداه.. الذكرى عدوه الجديد الذي سيصارعه ليل نهار.

ظلَّ جالسًا في مكانه عدة ساعات بلا حراك حتى سمع صوت القطار وهو يأتي من بعيد فتنهد في ارتياح وأطلق زفرة حارة تكاثفت على هيئة بخار أمام وجهه فقد كان طوال الساعات الماضية منكمشًا في مكانه

في خوف خشية أن يكتشف أحد ما جريمته مبكرًا ويلحقوا به إلى محطة القطار.

كان بين الحين والآخر.. ينظر بقلق وترقب إلى باب المحطة متخيلًا أن رجال الشرطة سيقتحمونه في أي لحظة ويلقون القبض عليه قبل أن يقتادوه إلى حبل المشنقة لذلك كان صوت صفير القطار القادم من بعيد واحتكاك عجلاته على القضبان الحديدية في أذنه أفضل من أي موسيقى قد يكون سمعها في حياته.

انتظر حتى توقف القطار في المحطة وصعد إلى آخر عربة فيه منتقيًا مكانًا صغيرًا في ركن العربة وافترش الأرض فيه منتظرًا تحرك القطار.. مرت عليه الدقائق التالية كالدهر حتى سمع أخيرًا صافرة تحرك القطار الذي بدأ بالفعل تحركه مبتعدًا عن المحطة عندها أطلق زفرة أخرى أكثر راحة وهو يُغلق عينيه مطمئنًا ورويدًا رويدًا بعد كل هذا الخوف والضغط النفسي بدأ وعيه ينساب بعيدًا عنه ويغرق في سبات عميق.

استغرق في سباته مدة طويلة لم يقطعها سوى توقف القطار في محطاته المتتالية على فترات متباعدة كان يفتح عينيه بتثاقل للحظات قبل أن يعود إلى عالم الأحلام من جديد.

استفاق على يد تهزه برفق ففتح عينيه بفزع على اتساعهما وانتفض جسده بشدة إلا أن ملامحه لانت مرة واحدة حين طالعته القسمات الهادئة لمحصِّل القطار الذي انتظر حتى فتح عينيه وابتسم له ابتسامة عذبة وهو يسأله:

- أين تذكرتك يا بني؟

ظلَّ (جابر) يُحدِّق إلى وجهه الأسمر المستدير الذي يكلِّله شعر أبيض خالص كخيوط الفضة وحاجبين اختلط فيهما الأبيض بالأسود أسفلهما عينان تفيضان بالطيبة والمودة أحس (جابر) براحة غامرة لا يدري لها سببًا وهو ينظر إليهما ويبدو أن تحديقه استمر لفترة أطول من اللازم فأعاد المحصِّل العجوز سؤاله مرة أخرى:

- يا بني اسألك عن تذكرتك.. هل تسمعني؟

تنحنح (جابر) وهز رأسه بقوة لينفض عن نفسه أثر النوم وهو يُجيب بينما يداه تبحثان داخل جلبابه:

- إنها معي لحظة واحدة.

طالت مدة بحثه فابتسم المحصِّل العجوز في تفهُّم وهو يراقب (جابر) يتصنع البحث عن التذكرة داخل ملابسه ثم هز رأسه في بساطة وهو يربت على كتفه قائلًا:

- خد وقتك.. سأمر على العربة ثم أعود إليك.

تابعه (جابر) وهو يسير مبتعدًا عبر العربة ولم يدر كيف يتصرف فهو لا يمتلك أي أموال وليس معه حتى ما يسدِّد به ثمن التذكرة.. صحيح أن المحصِّل العجوز يبدو رجلًا سمحًا طيبًا لكنه خشي أن يُسلمه في أقرب محطة إلى الأمن فتكون الكارثة لو اكتشفوا شخصيته.

إنه يسعى جاهدًا للابتعاد قدر الإمكان حتى يستطيع الاختباء بعيدًا عن ماضيه وعن جريمته.

مرَّت فترة من الوقت و(جابر) على حيرته وخوفه حتى لاح له المحصِّل العجوز وهو يقترب منه عبر مقاعد عربة القطار فازداد ارتباكه واشتدت رجفته وارتفعت دقات قلبه عاليًا..

- ألم تعثر على تذكرتك بعد؟

قالها المحصِّل ما إن وقف أمامه وعلى وجهه نفس الابتسامة فارتبك (جابر) ولم يرد فعاجله المحصِّل بسؤال آخر:

- ما اسمك يا بني؟

ارتج عليه وازداد ارتباكه فالسؤال لم يكن متوقعًا بالنسبة إليه إلا أنه أجاب بسرعة:

- (محمود).. اسمي (محمود).

لم يدر لماذا نطق هذا الاسم ولكنه كان أول ما جال بخاطره.. اسم أقرب أصدقائه إليه.

- وإلى أين تذهب يا (محمود)؟

أجابه (جابر) في حيرة حقيقية:

- لا أدري.

ردد المحصِّل العجوز إجابته مندهشًا:

- لا تدري.. كيف لا تدري؟

كان (جابر) يفكر بسرعة داخل عقله عن حجة مقنعة فلم يجد غير حجة واحدة تبدو منطقية فأجاب:

- الحقيقة إنني هارب من ثأر يلاحقني في بلدتي فلم يكن أمامي حل سوى الهروب والابتعاد إلى أي مكان آخر.. أن أترك كل شيء خلفي وأذهب إلى مكان جديد حتى أستطيع الاختباء والنجاة بحياتي من القتل.

هز المحصِّل العجوز رأسه متفهمًا كمَن شاهد مثل هذه المواقف من قبل وهو ينظر إلى حاله في أسى قبل أن يقول:

- إذن ابق في القطار حتى نهاية الخط وعندما نصل إلى الإسكندرية سأبذل ما بوسعي لمساعدتك.

قالها وابتسم له ابتسامة مطمئنة وهو ينهض من مكانه منصرفًا قبل أن يتذكر شيئًا ما فعاد يلتفت له متسائلًا:

- هل أنت جائع؟

كان (جابر) جائعًا بالفعل إلا أنه لم يُجب وإن خفض عينيه في صمت فقال المحصِّل:

- إذن سأرسل لك بعض الطعام.

شيعه (جابر) بنظره وهو ينصرف منتقلًا إلى عربة أخرى من عربات القطار وقد هدأت روحه بعض الشيء بعد المعاملة الطيبة التي لاقاها من هذا الرجل.. صحيح أنه أول مرة يلتقيه إلا أنه وجد منه معاملة

وعطف لم يجدهما لدى أقرب الناس إليه.. قرن تفكيره هذا بأن رفع يده يتحسس ندبته التي كانت وستظل شاهدةً على ما لاقاه في حياته الماضية.

حياته التي عليه أن يُلقيها كلها خلف ظهره بحلوها ومُرِها وأن يبدأ من جديد..

يبدأ حياة جديدة مع أناس مختلفين.. في مكان جديد..

وبشخصية جديدة.

* * *

كان أول خط سكة حديد في مصر عمره يناهز قرنًا من الزمان وهو الثالث عالميًا بعد إنجلترا والهند.

أول خط سكك حديد مُد في مصر هو خط سكك حديد بين القاهرة والإسكندرية مدته شركة إنجليزية في عهد عباس الأول حفيد محمد علي الذي تولى

حكم مصر سنة 1848م واستمر ست سنوات حتى عام 1854م.

ألحَّت الحكومة الإنجليزية على الباب العالي العثماني للموافقة على مد هذا الخط في مصر لتسهيل وتسريع نقل البريد والمسافرين بين أوروبا وخاصة إنجلترا وبين الهند، كبرى مستعمرات إنجلترا في المشرق.

فكانت المواصلات بين أوروبا والهند تمر عن طريق مصر فالسفن تأتي من أوروبا إلى ميناء الإسكندرية ثم تُنقل برًّا إلى القاهرة ومنها إلى ميناء السويس لتسير بحرًا في البحر الأحمر ثم المحيط الهندي لتصل إلى الهند.

استعانت الشركة الإنجليزية بروبرت ستيفنسن ابن مخترع القطار الذي يعمل بالبخار لإقامة هذا المشروع الذي يُعَد الأول من نوعه في المشرق العربي فجاء روبرت ستيفنسن إلى مصر وأشرف على جلب كل المعدات اللازمة للمشروع وبدأ العمل فيه سنة 1852م وأتمه سنة 1856م.

وهو أول خط سكة حديد في تاريخ مصر والأول من نوعه في المشرق العربي وأفريقيا.

ويُلاحظ التشابه الكبير في التصميم المعماري لمبنى المحطة في الإسكندرية والقاهرة وهو من الطراز المعماري الإنجليزي القديم.

بالطبع لم يكن (جابر) يعلم شيئًا عن هذا وهو يخطو بقدمه لأول مرة على رصيف محطة قطار الأسكندرية خلف المحصّل العجوز الذي كان يسير أمامه بخطًى سريعة و(جابر) يُلاحقه.

كان (جابر) مبهورًا بكل ما يراه حوله من حركة وحياة وزحام وهو الذي لم يُغادر قريته أبدًا من قبل.. كانت مشاهد القطارات الرابضة في أماكنها والرجال والنساء بين قادمين وراحلين بينما عمال المحطة يتابعون أعمالهم بين عربات القطارات والباعة الجائلين ينادون بأصوات مختلفة على بضاعاتهم تُدهشه وتُخيفه إلى أبعد حد فكيف سيستطيع العيش والتأقلم وسط كل

هذا الصخب بعد أن كانت حياته بالكامل محصورة في الأرض والخضرة والبراح.

لحظتها شعر (جابر) بمزيج غريب من الخوف والوحشة من هذا المكان الجديد مع حنين دافق إلى أرضه وأصدقائه.. صحيح أنه كان -ولا يزال- أكثر أهل الأرض كُرهًا لماضيه إلا أن القادم يبدو أنه سيحمل له رعبًا وخوفًا يفوق كل الحدود.

استفاق من أفكاره وذكرياته على صوت المحصِّل العجوز وهو ينادي عليه ويشير له بيده أن يُسرع كي يلحق به فزاد (جابر) من سرعة خطواته حتى لحق به خارجًا من مبنى المحطة واقتاده إلى ممر ضيق في محاذاة سور المحطة قطعاه في مدة زمنية بسيطة حيث لا يتعدى طوله المائة متر قبل أن يجد نفسه أمام بناية مجاورة إلى شريط السكة الحديد مكونة من طابقين علويين حال طلاؤها إلا من بعض أجزاء ظلَّت عالقة في الواجهة فظهر الطلاء الأصفر الكالح.. رفع عينيه إلى الأعلى فرأى النوافذ الخشبية بلونها

البني الغامق وقد تمّت مواربتها لتحجب أشعة الشمس التي كانت مُسلطة على الجدران من الدخول.

اقتاده المحصِّل عبر درج ضيق بعض الشيء إلى الدور الأول حتى توقفا أمام باب خشبي فضمَّ المحصِّل قبضته وطرقه عدة مرات.. ثوان وسمعا صوت خطوات رشيقة تقترب من الباب وفُتحت الشُراعة فأطلَّ منها وجه فتاة مليحة على قدر غير محدود من الجمال ببشرتها الخمرية الرائقة المشربة بحُمرة خفيفة وعيناها الواسعتان يعلوهما حاجبان رفيعان رُسما بعناية وأنف دقيق وفم صغير بشفتين مكتنزتين بينما يكلِّل رأسها شعر أسود ناعم في لون الليل عقصته خلف رأسها.

نظرت له الفتاة للحظة قبل أن تحوِّل عينها إلى المحصِّل العجوز الذي بادرها بابتسامة أبوية تعلو شفتيه:

- صباح الخير يا ست البنات.

- صباح النور يا عم (سعيد).

كانت تلك أول مرة يسمع فيها (جابر) اسم المحصِّل العجوز الذي قاده حتى هذا المنزل فلم يسبق حتى أن سأله عليه إلا أنه ظلَّ يُحدِّق في الفتاة وعم (سعيد) يقول لها:

- معي ضيف يريد مقابلة الحاجة (فردوس).

تطلعت له الفتاة مرة أخرى وقد رفعت أحد حاجبيها قبل أن تُغلق الشراعة وتفتح الباب قائلة:

- تفضلا.

قادتهما إلى حجرة جانبية تحتوي على فرش بسيط عبارة عن أريكتين عربيتين خلف كل واحدة منهما نافذة صغيرة بينما تتوسط الحجرة مائدة صغيرة مستديرة.. جلسا متجاورين على إحدى الأريكتين بينما غابت الفتاة لفترة قبل أن يسمعا صوت خطوات متثاقلة تقترب حتى ظهرت الحاجة (فردوس).. كانت امرأة في العقد السادس من عمرها على قدر من

البدانة ترتدي جلبابًا منزليًا بسيطًا بينما لَفَّت رأسها بطرحة كبيرة وقد ظهر الشبه الكبير بينها وبين الفتاة التي فتحت لهما الباب مما يدل على جمال قديم حاول الزمن طمس معالمه وإن لم يُفلح إلى حدٍ كبير.

ما إن رأت وجه عم (سعيد) حتى بشَّ وجهها وصاحت في ترحاب:

- أهلًا وسهلًا بالرجل الأصيل.. كيف حالك يا عم (سعيد)؟.

- في خير حال يا ست الناس.

جلست على الأريكة المقابلة وهي تقول معاتبة:

- مر أكثر من شهر ولم تسأل علينا يا رجل يا طيب.

رفع عم (سعيد) يده أمام وجهه وهو يُقسم قائلًا:

- والله العظيم مشاغل كثيرة يا حاجة.. أنت أكثر مَن يعلم طبيعة عملنا.

هزت رأسها في تفهم وهي تقول:

- كان الله في العون.

ثم سألته قائلة:

- كيف حال زوجتك والأولاد؟

- في خير حال بحمد الله.

قالها ثم اعتدل في جلسته وهو يُشير إلى (جابر) قائلًا:

- ابننا (محمود) من الصعيد وليس له أحد في الإسكندرية ولا يعرف مكانًا يبيت فيه فجئنا إليك لتؤجري له الحجرة الصغيرة في الطابق الأرضي.. أنا أعلم أنها لم تُسكَن بعد.

نظرت ل(جابر) مليًا فابتسم لها فبادلته الابتسام قبل أن تقول في تحرُّج وهي تُحوِّل عينيها إلى عم (سعيد):

- طلبك على العين والرأس يا عم (سعيد) لكنك تعلم أنني لم أعد أؤجر أي غرفة لأغراب منذ أن سافر ابني (فؤاد) إلى الخارج.. فلم يعد في الدار سوى أنا وابنتي (زينات).

- يا حاجة إنني أعتبركم جزء من أسرتي فزوجك (محفوظ) -رحمه الله- كان أكثر من زميل عمل.. لقد كان أخًا لي ولو أنني رأيت في هذا الفتى ما يشوبه ما كنت جئت به إليك ثم إنه سيسكن هنا على ضمانتي ولو حدث منه أي شيء لا سمح الله فما عليك سوى أن تُخبريني وعندها سأبحث له عن مكان آخر.. فما رأيك؟

لم ترد الحاجة (فردوس) على الفور وإن بان عليها الرضا من كلام عم (سعيد) وعندما همَّت بالرد دخلت (زينات) حاملة صينية الشاي ووضعتها على المائدة أمامهما ثم جلست بجوار أمها وعم (سعيد) يُعيد سؤاله مرة أخرى قائلًا:

- ما رأيك يا ست الناس؟

أجابته الحاجة (فردوس) وقد ظهر على وجهها الرضا:

- أنت تعلم مقدارك عندنا يا عم (سعيد) وكما قلت لك طلبك على العين والرأس ويكفيني زيارتك لنا.

ثم التفتت إلى (زينات) التي كانت لا تزال تنظر إلى (جابر) قائلة:

- أحضري مفتاح غرفة الطابق الأرضي يا (زينات) ونظفيها جيدًا فسيسكنها (محمود) من الليلة.

نهضت (زينات) لتُحضر المفتاح فتابعها (جابر) بعينه ولم يغب عليه جمال جسدها واستداراته وهي تسير أمامه بينما اتسعت ابتسامة عم (سعيد) وهو يقول شاكرًا:

- أكرمك الله كما أكرمتني وأكرمت هذا الفتى يا ست الناس.

همَّا بالخروج إلا أنها أصرت أن يجلسا حتى يشربا الشاي فجلسا معًا يتسامران حتى انتهيا من شرب

الشاي ثم نهض عم (سعيد) واصطحب معه (جابر) وهو يقول:

- سأصطحبه الآن لشراء بعض احتياجاته ثم سأعود به آخر النهار بإذن الله.

هبطا درجات الدرج معًا.. عم (سعيد) في الأمام يتبعه (جابر) في وقت كانت فيه (زينات) قد بدأت في تنظيف الغرفة حيث لمحها (جابر) بطرف عينه عبر الباب الموارب وقد شمَّرت عن ساعديها ورفعت جلبابها عن ساقين أبدع الخالق عز وجل في تكوينهما.

لم يكن (جابر) يدري أنها ستكون فصلًا آخر في حكايته..

لم يكن يدري أن ماضيه سيلاحقه أينما ذهب.. وأن الحكاية القديمة لم تكن سوى البداية..

بداية لقصة حياته القادمة.. ويالها من قصة.

* * *

لم تكن بداية (شعبان جودة) سهلة أبدًا حين أتى إلى الإسكندرية نازحًا من قريته في الأرياف منذ أكثر من عشر سنوات كان وقتها فقيرًا معدمًا يسعى يومًا بيوم ليكسب رزقه ويُثبِّت أقدامه في المدينة والغريب أنه لم يبتعد كثيرًا عن محيط محطة القطار منذ مقدمه فعمل في بدايته كشيال داخل المحطة يساعد المسافرين في نقل حقائبهم مقابل مبالغ زهيدة يدفعونها له واستمر على هذا الحال فترة ليست بالقصيرة قبل أن يأتي يوم لم يجدوه فيه وكأنه تبخر بين يوم وليلة فكثرت الأقاويل حوله فهناك مَن يقول أنه عاد إلى قريته والبعض الآخر يقول أنه قُبض عليه في قضية كبيرة دخل على إثرها إلى السجن وشيئًا فشيئًا قلَّ حديث الناس عنه حتى تداعت ذكراه من العقول في خضم أحداث الحياة اليومية فالحياة قطار لا يتوقف ولا ينتظر أحدًا.. إما أن تسايره أو تدهسك عجلاته بلا رحمة.

ثم أتى يوم ظهر فيه (شعبان) وقد تغيرت هيئته بل تبدلت تمامًا ظهر ممتلئًا موفور الصحة.. يسير بثقة

بين الناس بملابسه الجديدة.. يُزيِّن أصبعه خاتمٌ ذهبيٌّ كبير فعادت أخباره تحتل حيزًا كبيرًا وأجمع الكل أن النعمة التي ظهرت عليه لا سبيل إليها إلا تجارة الممنوعات التي أصبحت رائجة في هذا التوقيت خاصة بعد أن اتخذ لنفسه مسكنًا جديدًا قريبًا من المحطة وافتتح مقهى يديرها لحسابه وتعالت الهمسات حتى وصلت إلى أذنيه.. إلا أنه لم يعرها التفاتًا وكأنما أراد أن يؤكد الإشاعات أو أنه ارتضى أن يعرف الكل حقيقة عمله وكأنه بذلك يُشركهم معه ويجعلهم بكامل رضاهم سترًا وغطاءً عليه فصار يغيب لفترات من الزمن ثم يعاود الظهور من جديد مع أمارات أخرى على نعمة أكبر هبطت عليه دون أن يعلم أحد أين يذهب ومتى يعود.. إلا أن هذا ليس بغريب على (شعبان) فمن عجب الأمر أن أحدًا منهم لا يعلم حتى الآن من أين تحديدًا قدم (شعبان) إلى الإسكندرية كل ما يعرفونه أنه من الأرياف ولكن من أين بالضبط فلا أحد يعرف ولم يحاول أحد حتى أن يسأله ربما لأنه متأكد أنه لن يحصل منه على جواب شاف.

وإمعانًا في تثبيت أقدامه تزوج من (درية) ابنة الحاج (رضوان) صاحب محل البقالة الشهير والتي كان الكل يتندر بجمالها وخِفَّتها خاصة حين كانت تسير أمامهم بدلال داخل ثوبها الضيق أو حتى أثناء مشاغباتها معهم حين كانت تقف مع أبيها في المحل الخاص به لذلك صار (شعبان) مثار حسد الجميع فتارة يحسدونه على يسر حاله وتارةً أخرى يحسدونه على اقتناء كل هذا الجمال.

إلا أن حياة (شعبان) لم تكن كلها سماء صافية تمتلئ بأفراح ومسرات فهناك أيضًا بعض الغيوم التي حجبت شمسه فأثارت حزنه وكدرت صفوه وقضَّت مضجعه أهمها موضوع الإنجاب فها قد مر على زواجه أكثر من أربع سنوات وحتى الآن لم يرزقا بأي أطفال بل لم تحمل (درية) من الأساس رغم كل محاولاتهما المضنية للإنجاب.

ولأن (شعبان) كأي رجل شرقي يحلم بأن يكون له ولد يكون سندًا له في حياته يداويه في مرضه.. يرعاه في عجزه ويكون على رأس جنازته يوم وفاته يتقبل

فيه العزاء ويرث شقاء وكدَّ السنين بدلًا من توزيعها على الأغراب لذلك أصبح موضوع الإنجاب هاجسه وشغله الشاغل فلم يأل جهدًا ولم يبخل على نفسه أو على (درية) بأي شيء.. جرب علاجات ووصفات كثيرة دون جدوى وإن فعل كل هذا في السر دون عِلم أحد حتى زوجته (درية) فطبيعته الريفية كانت تُنكر باستماتة أن يكون معيبًا وأنه السبب في عدم الإنجاب فلم يفكر ولو للحظة أن يذهب إلى عيادة طبيب لاستشارته وكأن العيب لا بد وأن يكون من زوجته وهذا بالفعل ما أوحى به إليها.

من ناحيتها لم تقصر (درية) فقد جربت كل شيء بداية من استشارة كل مَن لها خبرة في هذا الموضوع من قابِلات ونساء عجائز خبرن وجربن العديد من الوصفات عانت معها ومعهم الأمرين من تناول وصفات العسل الأبيض وزيت الزيتون وحب الرشاد لتنظيف الرحم إلى شرب أطنان من الزنجبيل لتيسير حدوث الحمل دون جدوى.. كم من مرة نامت على بطنها وهي تضع حجرًا تحتها لعلاج الفقارة التي

علمت أنه عدم حدوث الحمل لوجود دم متجلط في الرحم.. كم من مرة نامت وهي تضع قربة ماء ساخن على بطنها لتدفئة الرحم قبل الجماع ناهيك عن جولاتها المكوكية على الأضرحة وزيارة أولياء الله الصالحين من المرسي أبو العباس إلى سيدي ياقوت لتصلي وتضع النذور عند كل ضريح حتى الكنائس زارتها وأشعلت الشموع تقربًا إلى أن قادتها قدماها ودفعها يأسها إلى زيارة مشايخ الدجل ممن يسخِّرون الجن لقضاء حوائج الناس مقابل أموال طائلة وأقنعوها بأن هناك عمل سفلي قد أُعد لها بفعل فاعل لعدم الإنجاب فانقلب حالها من النقيض إلى النقيض..

(درية) زهرة الحي وجميلته صارت تحضر حلقات الزار فتتراقص كالمجانين حول المناقد التي يتصاعد منها دخان البخور الكثيف وهي تصرخ مع قرع الطبول الذي يصمُّ الآذان بينما تُقام المذابح للطيور فيغتسلون بدمائها.. حتى زيارات المقابر الليلية والاستحمام بماء غُسل الميت جربته دون جدوى وكأن الله قد ضنَّ عليهما بهذه النعمة بعد أن أسبغ عليهما من فيض نعمه.

كل هذا أصابها وزوجها بسيف الفتور.. اخترق قلب حياتهما فنزفا دماء سعادتهما فأصبحت أحاديثهما قليلة بل نادرة.. يتحاشى كلٌّ منهما النظر إلى الآخر حتى لا تظهر نظرات الاتهام واضحة جلية في العيون حتى في لقائهما الحميم صارا كمَن يؤديان واجبًا ثقيلًا ناء بهما حمله فلم تعد هناك ملاطفة أو مداعبة ولا حتى كلمات غزل توقد مشاعرهما وتؤججها حتى البسمة غابت عن الوجوه.

صار لقاؤهما تقليديًّا بليدًا وكأنه يذكرهما بحرمانهما من أكثر شيء تمنوه..

صارا كلما تلاقا كمَن يؤدون طقوسًا تقليدية بلا هدف أو غاية تبدأ كما تنتهي.. فتستلقي (درية) على ظهرها بينما (شعبان) يعتليها ويبقيان على هذا الوضع حتى النهاية.. أصبح ثقله يُطبق على صدرها يكاد يحطمه حتى أنفاسه صارت تخنقها فتُغمض عينيها وتدعو الله أن ينتهي أما هو فصار كمَن يحتضن جمرة نار تحرقه وتُصليه عذابًا فيقوم بدوره بحركات روتينية سريعة ويجتهد كي يُفرغ شهوته بسرعة كمَن يتخلص منها

بعدها إما أن ينهض ليغادر الغرفة أو يستلقي بجانبها موليًا ظهره إليها وهو يلهث دون أن يتبادل معها ولو كلمة واحدة.

تدريجيًا بدأت لقاءاتهما الحميمة تتباعد حتى كادت تنقطع فأثر ذلك على نفسية كلٍّ منهما فأصبحا ضيقي الخلق أميل للشجار والمشاحنة وظهر ذلك بشكل أوضح على (شعبان) خلال تعامله مع الناس..

هذا كان (شعبان) وتلك كانت حالته عندما اقتاد عم (سعيد) (جابر) إليه ليُلحقه بالعمل معه في المقهى لحظتها نظر (شعبان) ل(جابر) نظرة واحدة وكأنه يسبر أغواره ويستشف ما بداخله قبل أن يُجيب بجملة واحدة أثارت أول ما أثارت دهشة عم (سعيد) نفسه:

- حسنًا يا عم (سعيد) سيتسلم عمله بدايةً من الغد.

لم تكن عادة (شعبان) أن يقبل عمل أي أحد عنده دون أن يكون على دراية كاملة بماضيه بل بتاريخ حياته

بالكامل ربما منذ ولادته كذلك إلا أنه وقتها وافق على الفور ربما كان ذلك إكرامًا لعم (سعيد) الرجل الطيب المحبوب من الجميع وربما لأنه لم يكن على استعداد لسماع أي رجاء أو مجادلة أو ربما كان ذلك من حسن حظ (جابر) وكفى.. المهم أنه توفق وبمساعدة عم (سعيد) في الحصول على مسكن مناسب وعمل يقتات منه.

أصبحت حياته الجديدة تتشكل تدريجيًّا..

حياة عليه أن يعيشها بكل جوارحه..

عليه أن يختلق ماضيًا يعيش به حاضره ومستقبله..

مستقبله الذي كانت سطور صفحاته أبعد ما تكون عن مخيلته.

٧ ٧ ٧

روايات حصرية

الفصل التاسع

انغمس (جابر) في عالمه الجديد بكل كيانه وجوارحه وألقى ماضيه بأكمله بكل مرارته خلف ظهره فها قد مرت شهور على تواجده في المدينة واستلام عمله في مقهى المعلم (شعبان جودة).. تغيرت حالته على مر الأيام فتخلى عن حالة الانعزال التي لازمته طوال حياته وصار أكثر اختلاطًا بالناس فتوطدت صداقته مع كثير من زبائن المقهى يعرف عنهم وعن أخبارهم.. يشكون له هموم حياتهم وأشجان لياليهم.. يعرف عن أفراحهم وأحزانهم الكثير بينما لا يُعرف عنه إلا القليل.. كان يسمع أكثر مما يحكي.. يُخفي أكثر مما يُبدي فلم يعرف عنه أحد إلا اسمه الجديد..

(محمود الصعيدي)..

كما تخلى أيضًا عن آخر ما يمت لحياته الماضية بصِلة فخلع جلبابه وارتدى القميص والبنطال كأبناء المدينة فصار منهم وذاب بين جموعهم.

رواية الكتب حصرية

من بين زبائنه الكثيرين الذين يتعامل معهم كان الخواجة (استيفانوس)..

ومَن لا يعرف الخواجة (استيفانوس) ذلك العجوز اليوناني ذو القامة القصيرة والجسد الممتلئ بعض الشيء مع شعره الأبيض الناعم كخيوط الفضة وبشرته البيضاء المشربة بالحُمرة وعيناه الزرقاوان اللتان تلمعان كلما ركز بصره على أحد ما.. كان في منتصف الستينات من عمره ورث عن أبيه وأجداده تجارة ضخمة وإن عمد هو إلى توسيعها وزيادتها حتى صار يمتلك أكبر وكالة قماش ومانيفاتورة في المنطقة.

ولأنه في هذه التجارة منذ الصغر.. ولأن التجارة تجري في عروقه مجرى الدم كان يمتلك شبكة ضخمة من العلاقات والأصدقاء ساعدوه في زيادة أرباح تجارته ونمو ثروته.. ولأنه يمتلك أيضًا ابنته (مادلين).

(مادلين).. اسم على مسمى.

رودة الكتب حرامية

(مادلين) اسم يوناني من أصل لاتيني معناه في قاموس الأسماء والمعاني الفاتنة المغرية.

(مادلين) زهرة يانعة.. لوحة بديعة يحار العاشق في وصفها.. إلهة جمال تركت معبدها وسارت بين مريدينها توزع عليهم نعمها مَن يحظى بنظرة ومَن يفوز بابتسامة فتُلهب قلوبهم وعقولهم.. كانت (مادلين) أفروديت من لحم ودم بجسدها المتناسق البديع وبشرتها ناصعة البياض وشعرها الكستنائي الذي تُرك حرًّا بلا قيود فانسدل بنعومة على كتفيها وعيناها اللتان ورثتهما عن والدها وإن كانا أكثر زرقة وبريقًا تظللهما رموش طويلة تجرح قلوب عاشقيها في صمت.

اعتاد (جابر) كل صباح أن يأتي للخواجة (استيفانوس) بقهوته المعتادة فيعتني بها (جابر) أيما اعتناء فيُعدها من علبة البن المخصوص الذي يُبقيه المعلم (شعبان) لزبائنه المهمين ويصبها في فنجانه الذي خصصه له ثم يضعها على صينية نظيفة ويسير بها عابرًا الشارع الطويل مُلقيًا السلام على مَن يقابله

دودة الكتب الحرامية

أو مَن يجده جالسًا أمام دكانه ويتلقى تحية الصباح التي قد يصحبها طلبات من المقهى ليعدها ويُحضرها بنفسه.

يصل (جابر) إلى الوكالة الكبيرة التي تحتل ناصية شارعين رئيسيين يعلوها لافتة كبيرة مكتوب عليها بالبنط العريض وبخط عربي منمق.. وكالة استيفانوس لتجارة المانيفاتورة.. يقطع (جابر) الرواق الطويل حيث يزدحم الزبائن أمام طاولات البيع على اليمين التي توازي الرواق وتساويه في الطول بينما يقف أمام كل طاولة بائع ومن خلفه على الأرفف تصطف أجود أنواع الأقمشة بمختلف ألوانها وأنواعها حتى يصل (جابر) إلى نهاية الرواق فيصعد درجتي سلم يعلو بهما مكتب الخواجة (استيفانوس) عن كل أرض الوكالة فيُلقي عليه تحية الصباح واضعًا القهوة أمامه على المكتب ولا ينسى أهم ما في هذه الزيارة السريعة وهو أن يُلقي نظرة خاطفة على (مادلين).. نظرة يطبعها أمام عينيه مرسلًا منها نسختين ليحفظهما داخل عقله وقلبه.. غير أن الأمر كان أحيانًا يتجاوز النظرة

الخاطفة فيتعمد أن يتلكأ قليلًا حتى يملأ عينيه من صورتها أو يتنسم شذا عبيرها الذي يعبق به مكتب والدها ومرة أو مرتين رفعت عينيها الساحرتين نحوه وعندما لاحظت نظراته إليها منحته أجمل وأعذب ابتسامة على وجه الأرض إلا أنه لم يتخيل حتى في أجمل أحلامه ما حدث معه هذا اليوم فأثناء زيارته للوكالة وبعد أن وضع القهوة أمام والدها واختلس نظرته.. قُبلة حياته اليومية.. واستعد للمغادرة فوجئ بها تنادي باسمه وهي تُسرع الخطى خلفه حتى لحقت به أمام باب الوكالة:

- (محمود).. (محمود) انتظر.

التفت لها وقد ارتفعت دقات قلبه حتى كادت تصم أذنيه من فرط ارتباكه.. كانت تلك أول مرة يسمع فيها اسمه من بين شفتيها وأول مرة يكون بهذا القُرب منها ينظر إلى عينيها الساحرتين.

- أريد منك خدمة لو سمحت.

قالتها وهي تتطلع إليه فحاول أن يرد بسرعة إلا أنه تلعثم وتحشرج صوته فخرج مبحوحًا يكاد لا يُسمع فزاد ارتباكه أكثر وأكثر فأطلقت هي ضحكة صافية وهي تنظر إليه.. يا اللّه ضحكتها كتغريد البلابل وابتسامتها كسماء صافية في نهار صحو أيمكن أن تكون هناك إنسانة بكل هذا الجمال.. تنحنح حتى يخرج صوته واضحًا وهو يقول:

- أنا تحت أمرك يا آنسة (مادلين).

زادت ابتسامتها اتساعًا وهي تقول:

- أريدك أن تأتي معي إلى محطة الرمل سأحضر شيئًا من هناك ثم نعود فسأستلم مبالغ مالية أخشى أن أسير بها في الطريق وحدي.

كان هذا معناه أن يترك المقهى فترة لا بأس بها لكن هل يقدر على أن يرفض لها طلبًا ودون تردد قال:

- هيا بنا.

سارا جنبًا إلى جنب من محطة مصر إلى محطة الرمل وهو يشعر أن ساقيه لا تكادان تحملانه من فرط ارتباكه وإن أحس بمزيج غريب من الزهو والسعادة وهو يلاحظ نظرات الإعجاب التي تتلقاها (مادلين) مع نظرات حسد سددها الجميع إليه وهو يسير بجانبها حتى وصلا إلى ميدان محطة الرمل الكبير الذي تظلِّله الأشجار الوارفة فعبرا حتى توقفت هي أمام أحد المحلات الكبيرة فاستدارت إليه قائلة:

- انتظرنى هنا وسأعود إليك.

دخلت إلى المحل وغابت لدقائق بينما تسلى هو بالنظر عبر الميدان الفسيح حتى خرجت إليه دون أن يشعر فتطلعت إلى دار السينما حيث يُلقي بنظراته كانت عيناه معلقتين بدار سينما بلازا إحدى أكبر دور السينما في محطة الرمل بمبناها الشبيه بالقصر فابتسمت وهي تسأله:

- ألم تر دار سينما من قبل؟

التفت لها وقد تفاجأ بوجودها وابتسم في خجل وهو يُجيب أن نعم فابتسمت له وهي تربت على ذراعه قائلة:

- لو تريد يمكنني أن أصحبك إلى السينما الليلة.

هتف في دهشة ممزوجة بالفرح:

- حقًّا؟!.

هزت رأسها أن نعم وهي تصحبه عائدة بينما عيناه ظلتا معلقتين بها فالحقيقة أنه تفاجأ من عرضها ومن تحررها وجرأتها وهو الذي لم يسبق له أن تعامل مع أي فتاة من قبل.. أحس أنه في حلم جميل يرجو أن يستمر.. يبتغيه دائمًا لا استيقاظ منه.

أعادها إلى المحطة ورافقها حتى باب الوكالة وهناك ودعته مع وعد بلقاء جديد في المساء قبل أن تمنحه ابتسامة أخيرة وتغيب في الداخل بينما عاد هو إلى المقهى كالمسحور وهو يحمل أحلامه بين طياته والفرحة تتراقص أمام عينيه..

منتظرًا حلول مساء.. يحمل وعدًا بلقاء.

* * *

في المساء..

واقفًا أمام مدخل السينما ينتظر.. يجول بعينيه يمينًا ويسارًا علّه يلمحها إلا أن طيفها ظلّ عصيًا حتى نهش الخوف قلبه فسرت في جسده ارتجافة باردة كالثلج.. أتراها نسيت ميعادهم أم أنها كانت تسخر منه من الأساس.. بدأ يتخيلها وهي جالسة الآن وسط أصدقائها تنظر إلى الساعة وتضحك على الأحمق الذي ظن أنها ممكن أن ترافقه إلى السينما وهو الذي ظلّ يحلم من النهار للمساء يرجو الساعات.. يستحلف الدقائق ويستحث الثواني.. هو الذي حاول أن يبدو متأنقًا أيما تأنق هذه الليلة فارتدى ثيابه الجديدة التي ابتاعها مؤخرًا.. القميص الأبيض ذو الخطوط الخضراء الرفيعة والبنطال الأسود اللذان أظهرا جسده المتناسق وعضلاته المفتولة مع حذائه الأسود ذي اللمعة كما صفف شعره الناعم بعناية ليزيد من وسامته كل هذا من أجل مزحة.. ارتعدت فرائصه من فرط الغضب وهمّ بالرحيل حين لمحها تخطر من بعيد في ثوب أحمر ضيق أبرز مفاتنها وزادها جمالًا وسحرًا بينما

تغطي كتفيها بشال أسود ذي فراء وفي يدها حقيبتها الحمراء الصغيرة.

اقتربت منه في دلال تلاحقها نظرات الإعجاب من المارة ورواد السينما المتجمعين أمامها منتظرين السماح لهم بالدخول لبدء عرض الفيلم ثم قالت في رقة:

- معذرة.. لقد تأخرت عليك.

هدأت نفسه وطاب خاطره وإن شعر بندم شديد لسوء ظنه بها إلا أنه رسم على وجهه ابتسامة فرح وسعادة وهو يقول:

- لا عليك.. كنت سأنتظرك مهما تأخرت.

ابتسمت لمجاملته ومدت له يدها فالتقطها في لهفة وصعدا معًا درجات السلم الأمامية للسينما وحجزا تذكرتين اختارت (مادلين) مكانهما بعناية قبل أن يدخلا إلى القاعة الفسيحة المجهزة لعرض الفيلم.

جلسا على مقعدين متجاورين في الصفوف الخلفية وسط صخب الحضور المنتظرين بدء عرض الفيلم قبل أن تُظلم القاعة ويعم السكون ثم انبعث شعاع من الضوء الأبيض من خلف القاعة مع صوت هدير ماكينة العرض قبل أن تتكون الصورة على الشاشة.. بدأ العرض بأفلام قصيرة من أفلام الرسوم المتحركة الكوميدية فكانت تضج القاعة بالضحك مع كل مشهد من مشاهدها حتى (جابر) الذي لم يعرف معنى الضحك منذ سنين طويلة ضحك من قلبه كما لم يضحك من قبل.. الحقيقة أن (جابر) كان منبهرًا بكل ما حوله ومبتهجًا كطفل في ليلة عيد فظلَّ يتابع العرض وقد انعزل عن كل ما حوله وعيناه معلقتان بالشاشة أمامه قبل أن يسود الظلام للحظات ويبدأ عرض الفيلم فمالت عليه (مادلين) هامسة في أذنه:

- عنوان الفيلم.. آثار في الرمال.. فيلم من بطولة نجمة محبوبة أعشقها تُدعى (فاتن حمامة) ويمثل معها نجم آخر اسمه (عماد حمدي).

استمر عرض الفيلم ما يقارب الساعتين قبل أن تُضاء الأنوار داخل القاعة ويبدأ الحضور في المغادرة من أبواب الخروج التي تُفضي على الشارع الرئيسي مباشرةً ومن بينهم سار (جابر) و(مادلين) متجاورين وهي تسأله:

- هل أعجبك العرض؟

أجابها وهو لا يزال منبهرًا بكل شيء:

- إنه رائع.. كل شيء رأيته الليلة رائع.

ثم تهدج صوته وتمتم بصوت خفيض:

- وأنت أيضًا رائعة.

ابتسمت (مادلين) في ثقة وهي تنظر إليه بدلال قائلة:

- حقًّا؟!.

لم يتمالك (جابر) نفسه فقال بمنتهى الوله:

- بل أنت تزيدين كل شيء روعة بجمالك.

اتسعت ابتسامتها قبل أن تجذبه من ذراعه قائلة:

- إذن هيا نُكمل سهرتنا.. سأصحبك إلى مكان جميل نجلس فيه سويًّا ونتناول مشروبًا قبل العودة.

اصطحبته إلى مقهى من دور واحد عبارة عن كوخ خشبي معلق على واجهته الأمامية لافتة زرقاء تحمل اسم.. إيليت.. بالعربية والإنجليزية.. يحتل المقهى موقعًا متميزًا من الشارع وما إن دخلا إليه حتى أحس (جابر) أنه انتقل من عالم إلى عالم آخر تمامًا فمن صخب الشارع وأضوائه إلى الرقي والهدوء.. كان المكان متوسط الحجم صُفت فيه الموائد بشكل منظم مع إضاءة خافتة إلى أقصى درجة مُريحة للأعصاب وقد وُضع على كل مائدة مِشعل صغير بداخله شمعة صغيرة يُضِيئها النادل عند جلوس الضيوف على المقاعد الجلدية المريحة حول المائدة بينما تنبعث من مكان ما موسيقى كلاسيكية تُضفي على المكان أجواء رومانسية جميلة وقد أُحيط المكان بالكامل بنوافذ

زجاجية لا تحجب عنه أو عن رواده أضواء الشارع والسائرين فيه.

انتقت (مادلين) مائدة بجوار النافذة وما إن جلسا حتى اقترب منهما نادل في زي رسمي خاص بالمقهى عبارة عن بنطال أسود وقميص أبيض عليه صديرية سوداء وبابيون لامع من نفس اللون يضفي عليه أناقة تناسب رقي المكان.. أشعل الشمعة الصغيرة بقداحة ذهبية وقدَّم لكلٍّ منهما قائمة تحوي ما يقدمه المكان من مأكولات ومشروبات فتحها (جابر) بخجل وهو يختلس النظر من فوق القائمة إلى (مادلين) التي لاحظت ارتباكه فأغلقت القائمة التي في يدها والتقطت الأخرى من يده قائلة:

- دعني أطلب لنا مشروبًا جيدًا.

ناولت القائمتين إلى النادل الذي اقترب ثم طلبت فنجانين من القهوة التركي ذهب النادل لإحضارهما فقالت ل(جابر):

- مذاق القهوة هنا مختلف سيعجبك فهم يُعدونها بطريقة مميزة.

من بعيد مرت بين الموائد سيدة أوروبية في منتصف العمر بيضاء البشرة على قدر من الامتلاء ذات شعر ذهبي قصير وابتسامة تضيف لجمال المكان جمالًا آخر.

هزَّت السيدة رأسها ل(مادلين) فحيتها هي الأخرى بإيماءة من رأسها وابتسامة تابعها (جابر) بعينه فأوضحت له (مادلين) قائلة:

- هذه السيدة (كرستينا كوستانتينو) مالكة المكان اشترته منذ فترة وأضفت عليه الكثير من الجمال والسحر بذوقها الرفيع فصار قِبلة لكثير من الفنانين والمثقفين وأصحاب الحس الراقي.

- المكان جميل جدًّا وهادئ.

- إنه مكاني المفضل.

ابتسم (جابر) وقال في افتتان وقد ازداد جرأة فنظر إلى عينيها مباشرة:

- ألم أقل لك أنك تجعلين كل ما حولك رائعًا.

بادلته النظر وهي تقول في خبث:

- ما دام هذا رأيك فلتبق بجانبي دائمًا.

- كم أتمنى.

رددها (جابر) من كل قلبه فابتسمت هي في ثقة أكبر ثم قالت:

- هذا يشجعني لأنني كنت أريد أن أفاتحك في أمر ما.

- ما هو؟!

تساءل (جابر) في دهشة فهمَّت (مادلين) بالكلام لكنها انتظرت للحظات ريثما ينتهي النادل الذي اقترب من وضع فنجاني القهوة أمامهما قبل أن تعاود الكلام قائلة:

- أريدك أن تعمل معنا.

- أعمل معكم!.. أتقصدين في المحل؟

هزَّت (مادلين) رأسها نفيًا ثم أجابت قائلة:

- ليس بالضبط.. إنه عمل آخر.

ثم رشفت رشفة من فنجان قهوتها قبل أن تُكمل قائلة:

- قد تكون لا تعلم الكثير عن عملنا لكن أغلب البضائع التي نبيعها في المحل نأتي بها من الخارج ثم ننقلها من الجمرك بعد شحنها في السفن على سيارات إلى مخزن تابع لنا ثم نبدأ بعد ذلك في عرضها بالمحل حسب الطلب على كل صنف.

كان (جابر) يُصغي إليها باهتمام فلما توقفت عن الحديث سألها:

- وما دوري في الموضوع بالضبط؟

- الحقيقة أن مواعيد استلام تلك البضائع تكون متغيرة وأحيانًا كثيرة نستلمها ليلًا وأنت تعلم أن أبي قد صار كبيرًا في السن وهذه الأمور المجهدة لم تعد تلائمه وأنا لن أستطيع أن أقوم بهذا العمل فهذا خطر علي كما أن أبي لن يوافق على هذا.

ثم نظرت في عينه قائلة:

- هذا العمل يحتاج رجلًا قويًا.

ومدت يدها عبر المائدة لتُمسك بكفه مكملة:

- رجلًا أستطيع الاعتماد عليه.

أربكته كلماتها.. حاصرته نظراتها.. ألهبته لمسة يدها.. حاصرته بشكل كامل.. أغرقته في محيط سحرها اللامتناهي بلا أي أمل في النجاة وربما دون رغبة كذلك.

مَن ذا الذي يرفض طلبًا لفتاة بكل هذا السحر.. كان الرفض بكل المقاييس مستحيلًا لذا لم يجد مناصًا من

القبول وهو يقول بهيام:

- من أجلك افعل أي شيء.. أضحي بحياتي ذاتها.

اتسعت ابتسامتها في ثقة أكبر قبل أن تُلقي نظرة على ساعة يدها ذات الإطار المذهب قائلة:

- لقد تأخر الوقت.. هل ننصرف؟

أومأ برأسه موافقًا فأنهيا قهوتهما وأصر هو بشهامة على دفع الحساب كاملًا قبل أن ينهضا مغادرين المقهى دون أن يلحظا العين الثابتة التي راقبتهما منذ أن كانا في السينما حتى غادرا المقهى.

v v v

الفصل العاشر

قطعا الطريق سيرًا على الأقدام من ميدان محطة الرمل حتى منزل الخواجة (استيفانوس) بمنطقة الإبراهيمية بجوار سوق شيديا الشهير.. كان الجو رائعًا فسارا عبر الكورنيش يستمتعان بهواء البحر المنعش مع لمسة خفيفة من البرد تُصيب الجسد برجفة لذيذة سرعان ما تزول حتى وصلا المنزل ودعها على الباب فصعدت بخطى سريعة وما إن دخلت من الباب حتى كان أبوها الخواجة (استيفانوس) جالسًا ينتظر بترقب سائلًا إياها سؤالًا واحدًا:

- هل وافق؟

ابتسمت ابتسامة تجاوزت الثقة إلى الزهو والغرور قائلة:

- بالطبع وافق.

في نفس التوقيت كان (جابر) يضم ياقة قميصه ويضع يديه في جيبي بنطاله عائدًا، لم تكن لديه رغبة مُلِحَّة في العودة لمسكنه فسار على طريق الكورنيش الذي خلا من المارة أو كاد في ذلك الوقت حتى وصل إلى حديقة الشلالات فانتقى أول مصطبة حجرية وجلس عليها مُحدِّقًا إلى البحر وموجه الذي يفور زبده الأبيض في ثورة لاطمًا الصخور في صخب قبل أن ينسحب على استحياء في خجل فقط ليعاوده غضبه فيعاود الكرة من جديد.

مُطلقًا لمشاعره العنان سارحًا بخياله في أحداث يومه الأغرب من الخيال جلس (جابر) يتفكر.. هل ما مرت به من أحداث حقيقة أم هو خيال ووهم صنعته أحلامه الواهية وسرعان ما سيفيق منه.. أيعقل أن يبدأ اليوم وهو يستجدي النظرة ويحلم بكلمة من بين شفتيها أو يظفر بابتسامة يطويها بين جوانحه.. يُنبتها تربة قلبه ويرويها بأشواقه فإذا بيومه ينتهي وقد قضى معها أجمل لحظات حياته ربما منذ وعى عقله على الدنيا.. أيعقل أن ترى فيه ما لم تره في أحد من

أبناء المدينة.. أن يكون الأقرب لعقلها وقلبها وتكون هي سبيله لحياة جديدة بلا آلام أو معاناة.. أيمكن أن تذوب كل الاختلافات بينهما في بوتقة حب أقوى من الخلاف.. اختلاف النشأة والثقافة والدين أم أن كل ما حدث كان مجرد وسيلة إغواء له ليقبل بالعمل معهم.

نفض رأسه في قوة ليطرد منها هذا الهاجس عندما واتاه ف(مادلين) بالنسبة إليه أطهر من أن تخدعه أو حتى أن تحاول فمَن سمع يومًا عن ملاك مخادع.

(مادلين) ملاك شفاف لا يغدر ولا يخون ولو حدث هذا يومًا فالجنة جحيم ولنحترق جميعًا بنيران الغدر.. نفض رأسه مرة أخرى وهو يستبعد من ذهنه تلك الاحتمالات السيئة وسار في طريقه عائدًا لمسكنه.. كان الوقت متأخرًا فساد الهدوء الشوارع وعمَّ الظلام مع غلق المحال التجارية وإطفاء أنوارها خاصة في المنطقة القريبة من مسكنه وبينما هو سائر يتهيأ لدخول الشارع المفضي إلى مكان سكنه لمحهما.

ظلين في آخر الشارع ميَّز فيهما ظل فتاة تلتف بملاءة تُسرع الخطى يبدو أنها في عجلة من أمرها أو تحاول الهرب من ظل آخر يتبعها بإصرار.. ظل رجل يستحث الخطى ليحافظ على المسافة بينه وبينها ويقربها قدر الإمكان حتى انحرفت الفتاة في أول عطفة قابلتها عن يمينها فانحرف الظل الآخر متابعًا لها في إصرار يزداد مع كل خطوة يخطوها.. ثوان وتصاعد صراخ آتٍ من ناحيتهم لم يحتج معه (جابر) لتفسيرات أخرى فاندفع يقطع الشارع عدوًا حتى وصل إلى حيث انطلقت الصرخة.

كان المشهد كما رآه أمامه واضحًا لا يقبل الجدل.. الفتاة التي ميَّز فيها ملامح (زينات) إبنة الحاجة (فردوس) صاحبة العقار الذي يسكنه ظهرها ملتصق بالحائط وعيناها تنطقان برعب شديد.. ما إن رأته حتى ظهرت على وجهها نظرة لهفة واستنجاد بينما الرجل الآخر يثبتها إلى الحائط بيده اليمنى محاولًا كتم صرخاتها بيده الأخرى وعيناه تنضحان بشهوة

مجنونة تكوي جسده وتُلهب عقله المحموم دون ذرة واحدة من تعقل.

لم يُضِع (جابر) الوقت في محاولات أكثر للفهم بل أمسك بتلابيب الرجل من الخلف ودفعه بمنتهى القوة بعيدًا عن (زينات) التي استمرت في صراخها عندما عاد الرجل إلى مهاجمة (جابر) مرة أخرى وقد أعمت الشهوة عقله فصار جنونه كاملًا كوحش كاسر وهو يُخرج من جيبه مدية صغيرة طوح بها في وجه (جابر) فتفاداها الأخير بأعجوبة قبل أن يعاود المهاجم الكرَّة وهذه المرة أصابت المدية يد (جابر) فجرحتها.. مزقت لحمه فسالت دماؤه.. أثار منظر الدماء غضب (جابر) فركل المهاجم بكل قوته في بطنه ثم دفعه بكلتا يديه ليصطدم بالجدار خلفه قبل أن يلتقط حجرًا مُلقى على الأرض ويهوي به على رأس مهاجمه ففقد الأخير اتزانه وسقط أرضًا وهو يضع يديه على رأسه التي انبجس منها الدم فالتقط (جابر) يد (زينات) وابتعد بها بسرعة عائدًا إلى البيت.

عند المدخل وقفا يلهثان قبل أن يتمالك نفسه سائلًا إياها:

- ما الذي دفعك للخروج في هذا الوقت المتأخر؟

همَّت بالإجابة عليه لولا أن قاطعهما صوت صراخ قوي آتٍ من الطابق الأعلى للمنزل فالتفت لها في جزع وهو يهتف متسائلًا:

- ما هذا الصراخ.. ماذا يحدث؟

أجابته بسرعة:

- هذا سبب خروجي في هذه الساعة إنها السيدة (سميحة) جارتنا مرضها شديد جدًّا ولا بد من إعطائها حقنة مخدرة لتسكين الألم فذهبت لإحضارها.

قالتها واندفعت صاعدة درجات السلم بسرعة يتبعها (جابر) إلى الطابق الثاني حيث تسكن السيدة (سميحة) وابنتها الصغيرة (انتصار).. دخلت (زينات) عدوًا إلى حجرة النوم حيث السيدة (سميحة)

مُستلقية على سريرها تُحيطها ابنتها والحاجة (فردوس) وبعض الجارات اللواتي جذبهن صوت الصراخ في هذا الوقت المتأخر من الليل.

جلس (جابر) على أول مقعد قابله في مدخل الشقة متهيبًا يرقب (زينات) وهي تحقن (سميحة) بالمحقن الذي سبق وأن غلته أمها على النار قبل وصولهما وثوان وهدأ كل شيء حيث غابت السيدة (سميحة) في ثبات عميق فانسحب (جابر) في هدوء إلى غرفته بالطابق الأرضي بعد أن أحس بأنه قد أتم مهمته..

مهمته التي عكّرت صفو ليلة كانت أجمل من أحلامه.. كاد يُهمُّ بخلع ملابسه لكن استوقفه صوت طرقات خفيفة على باب غرفته فاقترب من الباب متسائلًا:

- مَن؟

جاءته الإجابة بصوت خفيض:

- أنا (زينات).

سارع بفتح الباب ليطالعه وجهها الذي خفضته في خجل مغمغمة:

- جئت أشكرك وأطمئن عليك.

أفسح لها الطريق فدلفت إلى داخل الحجرة بينما ترك هو الباب مواربًا متعمدًا قبل أن يسألها:

- كيف حال السيدة (سميحة)؟

- حمدًا لله.. لقد هدأت الآن.

- هل هذه أول مرة يهاجمها المرض بهذا الشكل؟

تنهدت في أسف قائلة:

- ليست أول مرة ولن تكون الأخيرة فمرضها كما فهمنا من الطبيب لا علاج له وهي ترفض البقاء في المستشفى تحت الملاحظة فلا سبيل لدينا سوى حقنها بالمخدر لتخفيف آلامها كلما هاجمها المرض.

ثم تهدج صوتها فجأة وهي تقول:

- لا أدري كيف أشكرك.

ابتسم لها ولوَّح بيده في استهانة قائلًا:

- لا داعي للشكر.. أي أحد في مكاني كان سيفعل ما فعلته.

لاحظت يده الدامية فاتسعت عيناها وخبطت على صدرها صائحة في جزع:

- أنت مجروح.

نظر إلى يده التي كانت لا تزال تنزف قائلًا لها مُطمئنًا:

- إنه مجرد جرح بسيط.

مدت يدها فالتقطت يده المجروحه بحرص وألقت عليها نظرة قبل أن تقول:

- ولكن لا بد من تطهيره.

ثم اندفعت تغادر الحجرة مكملة:

- سأعود حالًا.

سمع صوت خطواتها وهي تصعد السلم عدوًا وغابت لدقائق ثم عادت حاملة معها زجاجة من المطهر وقطنًا ورباطًا طبيًّا فجذبت مقعدًا وجلست أمامه وبمنتهى الرقة وبيد ماهرة بدأت في تطهير الجرح بالمطهر وقد غلَّفهما الصمت.. حاول (جابر) أن يبادر بقول أي شيء يكسر حاجز هذا الصمت إلا أنه لم يجد ما يبدأ به كلامه فآثر السكوت وإن انشغل في التطلع إليها والتفرس في ملامحها وهي منحنية عليه ومنهمكة في تطهير الجرح.. كانت هذه أول مرة تكون فيها بهذا القرب منه.. ملامحها بالغة الرقة ورائحتها الجميلة التي أفعمت أنفاسه وملأت صدره.. فتحة صدرها التي كشف من خلالها منبت ثدييها الراسخين.

كل هذه الأمور جعلت أنفاسه تضطرب ودقات قلبه تتسارع.. خاصة حين لاحظت هي نظراته.. ظهر هذا واضحًا من اختلاج شفتيها وارتعاش يدها وهي تضمد جرحه قبل أن تُبادر بالكلام مُحطمة حاجز الصمت قائلة:

- أنت رجل شهم يا (محمود).

- لقد فعلت الواجب ليس أكثر.

قالت دون أن تنظر إليه وهي منشغلة بتضميد جرحه:

- لكن كثيرين غيرك كانوا لن يحركوا ساكنًا.. لقد كدت تعرض نفسك للقتل بسببي وهذا جميل لن أنساه لك.

غمغم (جابر) بصوت خفيض وهو لا يزال يتفرس في وجهها:

- لن يهمني شيء ما دمت أنت بخير.

رفعت وجهها للحظة نحوه وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيها والتمعت عيناها في سعادة ثم نهضت على عجل بعد أن ربطت جرحه جيدًا وجمعت أدواتها وسارت ناحية الباب قبل أن تتوقف وتلتفت إليه قائلة:

- سأمر عليك كل يوم لأغير لك على الجرح.

- سأنتظرك.

قالها فمنحته ابتسامة عذبة مكملة:

- تصبح على خير.

سار حتى الباب وحجزه بيده كي يمنعه من الانغلاق وظلَّت عيناهما متلاقيتين أثناء صعودها حتى غابت عن نظره فأغلق بابه وألقى بجسده المكدود على سريره تُداعبه أحلام جميلة لم تواتِه منذ فترة طويلة.. ظلَّ سارحًا فيها حتى غلبه النوم فغرق في سبات عميق.

ولأول مرة منذ سنين كان نومه هانئًا دون كوابيس.

* * *

لم تعد (درية) قادرة على الصبر.. صارت حياتها كالجحيم.. كان الأمر أكثر من قدرتها على الاحتمال.. لقد عانت الأمرَّين خلال الفترة الأخيرة من حياتها مع (شعبان) فلم يعد بينها وبينه أي قدر من تفاهم أو مودة.. صار الشجار والمشاحنة على أتفه الأسباب أسلوب حياة.. حلَّ الصراخ محل الكلام.. علاقتهما

الزوجية أصبحت كصخرة وُضعت على منحدر وبدأت رحلة السقوط المروع وعليهما فقط انتظار النهاية.

ابتعاد (شعبان) عنها أفقدها حتى المشاعر البسيطة التي تحتاج إليها أي امرأة صحيح أنها لم تحظَ معه بما حلمت به منذ أن وعيت على الدنيا وهو أن تعيش قصة حب تكبر معها وبداخلها طوال سنوات عمرها.. كان زواجها منه زواجًا تقليديًّا نجح أبوها وأمها في إقناعها به.. لم تحبه ولم تكن تُكِّن له أية مشاعر قبل الزواج لكن ظلَّ الحلم بداخلها ينتظر.. ينتظر يدًا حنونة ترعاه وترويه لينمو ويملأ حياتها القاحلة لكن فقدانهما أمل الإنجاب تدريجيًّا حطم هذا الحلم على صخرة واقع مرير جعلها تفتقد كل شيء.. افتقدت اللمسة التي تدغدغ أحاسيسها والكلمة التي ترضي غرورها كأنثى حتى المودة التي تنشأ بين أي زوج وزوجة صارت كحلم جميل زال سريعًا ولم تلبث أن استيقظت منه.. غيوم كثيرة ظلَّلت سماءها وضباب كثيف أحاط حياتها من كل جانب حتى صارت وحيدة تمامًا.. ظُلمة حالكة السواد بلا أدنى قبس من نور.

من بين هذا الضباب شعرت به..

من وسط هذا الظلام رأته..

شاب جميل أيقظ بداخلها كل ما فقدته من مشاعر الأنثى حين تتعلق برجل..

حين تشعر بلهفة إلى نظرة منه وتشتاق إلى سماع صوته..

حين تشعر بأنفاسه تملأ صدرها ويداه وهي تحتويها لتعطيها أمانًا طال انتظاره..

حين تحلّق معه في سماوات عشق لامتناهية بعيدًا عن عيون الناس..

فتنها فلم تعد ترى أحدًا غيره.

مرت شهور وهي تراه ولا يراها.. حاولت أن تلفت انتباهه إليها أكثر من مرة.. أن تُلهب مشاعره وتؤججها.. كانت تتعمد أن تُكثر في طلب طلبات

للمنزل لتجعل (شعبان) يُرسله بها فتتجمل وتتزين وتنتظره حين يمر عليها لكن دون جدوى.. دائمًا يناولها ما طلبته ويُعاود أدراجه سريعًا.. يقابلها وهو مُطرق إلى الأرض لا ينظر إليها.. تكاد تصرخ في وجهه كي يرفع عينيه ليراها.. قلعة بلا أسوار ولا متاريس تنتظر الغازي.. لكن انتظارها طال حتى كادت تيأس بينما الرغبة تكويها كجمرة نار تأكل جسدها.

الغريب أن ما لا تعرفه هي أن (جابر) كان يشعر بكل ما تحاول إيصاله إليه.. ربما من تعمدها أن تطيل الوقوف معه عن طريق أسئلة لا معنى لها أو من تعمدها لمس يده حين يناولها ما أرسلت في طلبه.. أو حتى من نظرة اللهفة التي تقابله بها فيلمحها بنظرة سريعة قبل أن يُطرق بنظره مرة ثانية إلى الأرض..

كان خوفه دائمًا يقف عائقًا بينه وبينها.. كان يخشى أن يتطور الأمر بينهما فلا يقدر على التراجع.. يخشى أن يفقد كل ما بناه طوال الفترة السابقة إن عَلِم زوجها بما قد يحدث بينهما لذلك شعر بالتوتر حين طلب منه (شعبان) شراء بعض الطلبات وإرسالها إلى البيت

لحظتها تلكأ وحاول أن يتعلل بضغط الزبائن وطلبات المقهى لكن (شعبان) ظلَّ يُلح في طلبه بل وزجره حتى يذهب فلم يجد مفرًّا من الانصياع لأمره وعند الباب كانت تنتظره.. كتلة من الرغبة تقف أمامه.. بريق عينيها وأنفاسها المتهدجة كشفا ما يعتمل بداخلها.. ناولها الطلبات وهمَّ بالعودة حين استبقته.. مدت يدها لتمسك بيده في قوة وهي تقول:

- انتظر يا (محمود).

نظر إليها متسائلًا فتابعت قائلة:

- ادخل فأريدك في أمر ما.

أفسحت له الطريق فخطا مترددًا إلى الداخل بينما أغلقت هي الباب خلفه ثم أشارت إليه قائلة:

- اتبعني.

سار خلفها عبر طُرقة المنزل مما أتاح له أن يتفرس فيها.. كانت ترتدي روبًا منزليًا أغلقته حول جسدها

بإحكام وقد عقصت شعرها خلف رأسها بينما قدماها الصغيرتان تخطران بنعومة على الأرض وكعباها المشربان بحمرة يوحيان باعتنائها بنفسها أيما اعتناء.

دخلت إلى حجرة النوم فوقف هو خارجها متهيبًا فنظرت له في استمالة ممزوجة بدهشة مصطنعة صائحة:

- لماذا تقف عندك هكذا؟!

ثم أشارت إلى حقيبة كبيرة موضوعة أعلى صوان الملابس بغرفة النوم متابعة:

- أريدك أن تساعدني في إنزال هذه الحقيبة ولكن خذ الحذر فهي ثقيلة حاذر كي لا تسقط بها.

لم يجد بدًّا من تنفيذ ما طلبته منه فدخل إلى الغرفة وأحضر مقعدًا كان موضوعًا بجوار الحائط ووضعه أسفل الصوان ثم خلع حذاءه وصعد عليه والتقط الحقيبة.. كانت ثقيلة بالفعل إلا أنه حملها ووضعها

على الأرض قبل أن يلتفت إلى (درية) وتتسع عيناه في دهشة عارمة..

كانت (درية) تقف أمامه عارية تمامًا وقد سقط عنها الروب الذي كانت ترتديه بينما حلَّت عقدة شعرها فانسدل في نعومة على كتفيها كشلال من السواد الحالك يعكس بياض بشرتها الناصع وتتطلع إليه في رغبة محمومة.. ازدرد لعابه في صعوبة وهو ينظر لها في شبق لم يفلح في أن يداريه بينما عيناه تجوب أنحاءها وتمسح كل شبر في جسدها البض.. ثدياها الرابضان على صدرها في ثقة.. بطنها المشدودة مع امتلاء خفيف أثار شهوته إلى درجة كادت تقتله.. يداها الناعمتان وأظافرها التي طلتهما بعناية.. استدارة وسطها الذي ينحدر بشكل مرسوم في إبداع إلى فخذيها ناصعي البياض ولم ينس فرجها الذي أزالت شعر عانته فأكملت به روعة جسدها وبدت كآية للجمال.. لوحة مرسومة بدقة لتفتن ناظريها وتغيبهم.

اقتربت هي منه وهي تتطلع إليه في غنج واضح قبل أن تتمتم بصوت خفيض:

- أكان لا بد أن تمر شهور كي تأتي إلى هنا؟

لم ينبس (جابر) ببنت شفة وتصاعدت أنفاسه وهو لا يزال يقتحم جسدها بعينيه فرفعت يدها تتحسس صدره الصلب متابعة:

- منذ أن رأيتك وأنا أنتظر هذه اللحظة.. لحظة أكون أنا وأنت فيها وحدنا.

ثم التقطت يديه ورفعتهما إلى شفتيها لتقبلهما قبل أن تضعهما على ثدييها.. شعر (جابر) بسخونة جسدها الذي يفور بالرغبة فاعتصرهما بين أصابعه في قوة آلمتها فندت عنها آهه خافتة فجرت ينابيع الشهوة بداخله فلم يدر بعدها (جابر) بنفسه إلا وهو ينحني ليحملها بين ذراعيه ويسير بها إلى السرير ليلقيها عليه بقوة ويخلع ملابسه في سرعة قبل أن يعتليها ويخترق ما بين فخذيها في عنف جعلها تصرخ في ألم مشبوب بمتعة جعلتها تحلّق في عالم آخر تحررت فيه من كل ما عانته في سنواتها الأخيرة.. كانت تغلق عينيها وتغيب عن كل ما يحيط بها.. وعيها ينسحب

عنها في بطء.. خِدر لذيذ أحاط بها فسلَّمت (جابر) قيادها يديرها كيفما يشاء كمهرة شابة رائعة الجمال وجدت أخيرًا فارسها القوي.

ظلَّت على هذه الحالة حتى النهاية إلا من بعض لحظات كانت تنشب أظفارها في ظهره من فرط الألم حتى شعرت به ينتفض ويروي أرضها التي تركها (شعبان) صحراء قاحلة فأطلقت زفرة ملتهبة من أعمق أعماقها وأحاطت رقبته بيديها تتعلق به بينما هو يغمر صدرها ووجهها بالقُبلات قبل أن ينهض عنها ليلتقط ملابسه من على الأرض ويرتديها على عجل بينما تمطت هي في ارتياح ثم اعتدلت ناحيته متسائلة في دلال:

- ألا تبقى قليلًا؟

أجابها وهو يعدِّل هندامه:

- يجب أن أعود لزوجك في المقهى وإلا وجدناه أمامنا هنا.

نهضت من على سريرها وتعلقت بعنقه ونهلت منه قُبلة أخيرة غابت فيها طويلًا قبل أن تلتقط هي الأخرى روبها من على الأرض وتضعه على جسدها وتسير معه حتى الباب مودعة ولم تنس أن تؤكد عليه قبل أن يغادر قائلة:

- حذار أن يعلم أحد بما بيننا أو يظهر عليك شيء أمام (شعبان).

ابتسم لها مطمئنًا ثم قال:

- لا تقلقي سيبقى ما بيننا في طي الكتمان.

تخللت شعره البني الناعم بأصابعها ثم قالت:

- سأنتظرك قريبًا.

نظر لها طويلًا قبل أن يفتح الباب ويخرج وما إن أغلقت الباب خلفه حتى بصق على الأرض في احتقار ومضى في طريقه عائدًا إلى المقهى.

v v v

الفصل الحادي عشر

أمام حجرة العناية المركزة وقف (شريف) ووالده والقلق يعتصر قلبيهما منتظرين خروج الطبيب المعالج ليطمئنهما.. الأب يقف مستندًا إلى الحائط ودموعه تنساب على وجهه في صمت بينما (شريف) يتحرك يمينًا ويسارًا أمام باب حجرة العناية في عصبية شديدة حتى خرج الطبيب فاندفعا نحوه بلهفة وعاجله (شريف) بالسؤال قائلًا في توتر:

- كيف حالة جدي الآن؟

أجابه الطبيب في جدية:

- لن أخفي عليك حالة جدك ليست مطمئنة.. لقد أصيب بذبحة صدرية شديدة أثرت عليه بشكل كبير ومع تقدمه في العمر وحالة قلبه السيئة أصبحت حالته شديدة الخطورة.

أغمض (شريف) عينيه وأطرق برأسه في ألم محاولًا كبح جماح دموعه التي تجاهد لتتحرر وتغرق وجهه بينما انتحب والده في مرارة قبل أن يسأل الطبيب في رجاء:

- ألا يمكننا أن نراه الآن؟

أجابه الطبيب وهو يهز رأسه نفيًا:

- كلا بالطبع فحالته الآن لا تسمح ثم أننا وضعناه على جهاز التنفس الصناعي حتى تستقر حالته ربما في الصباح يمكنكما زيارته ولكن ليس لمدة طويلة وبدون أي كلام معه حتى لا تجهداه.

شكره (شريف) واصطحب والده إلى حجرة الاستقبال فأجلسه على أحد المقاعد وجلس بجانبه ثم ربت على يده قائلًا:

- اهدأ يا والدي.. أرجوك تمالك أعصابك وبإذن الله سيكون جدي على خير ما يرام.

- لن يمكنني احتمال فقده يا ولدي.

- بعون الله لن نفقده.. كن مؤمنًا بقضاء الله وقدره.

- ونعم بالله.

- إننا لن نتركه.. سنبقى هنا معه حتى الصباح لنطمئن عليه.

ما إن انتهى (شريف) من جملته حتى طالعه وجه إحدى الممرضات وهي تبحث عنهما بعينيها حتى وجدتهما فاندفعت نحوهما بشكل أصاب (شريف) بالذعر إلا أنها قالت في سرعة:

- أستاذ (شريف).. جدك يطلبك الآن.

فقال (شريف) في تردد:

- ولكن الطبيب شدد على منع الزيارة خوفًا من أن تسوء حالته.

أومأت برأسها إيجابًا وهي تقول:

- هذا صحيح لكنه يطلب رؤيتك بإصرار غريب ولا يستجيب لمحاولاتنا لتهدئته وهذا يزيد حالته سوءًا وليس العكس.

لم ينتظر (شريف) لسماع أكثر من هذا فاندفع خلفها إلى العناية المركزة وما إن وصل إلى سرير جده حتى انحنى يقبِّل يده وأطلق لدموعه العنان فتحررت بعد طول كبت وقد هاله منظره الذي تفارقه علامات الحياة رويدًا رويدًا إلا من أنفاس لاهثة تجاهد كي تتعلق بالدنيا في صراع دائم مع الموت تعرف هي نتيجته المحتومة مسبقًا.

ظلَّ (شريف) منحنيًا أمام جده يتطلع إليه في حنان مشبوب بالأسى فمد الأخير يده الأخرى فأزاح جهاز التنفس عن وجهه بصعوبة بالغة ثم تمتم بصوت خفيض:

- (شريف) يا بني أريد أن أوصيك وصية.

رد (شريف) من بين دموعه:

- سأنفذ أي أمر توصيني به يا جدي.

- أتقسم على هذا؟

أجابه (شريف) بإخلاص:

- أقسم يا جدي.. أقسم.

تنهد الجد في ارتياح ثم قال في إعياء:

- اترك هذه القضية.

زوى (شريف) ما بين حاجبيه في دهشة وهو يتساءل في استغراب:

- أي قضية؟

- قضية المحطة.

لم يفهم (شريف) ولم يستوعب ما يقوله جده لقد ظن أنه سيوصيه على والده أو على أي شيء آخر يخصه لكن أن يترك قضية من قضايا عمله لا يعلم جده عنها

شيئًا فهذا آخر شيء قد يتوقعه لذلك أكمل أسئلته قائلًا:

- لماذا يا جدي.. لماذا؟!

أجابه الجد وقد أجهده الكلام أكثر وأكثر:

- لن تجني من خلفها خيرًا أبدًا.

ثم أشار إليه أن يقترب أكثر ثم أكمل بصوت مبحوح يكاد لا يُسمع:

- في حجرتي ستجد ما ينير لك الطريق.

أثارت الكلمات انتباه (شريف) واهتمامه وإن لم يُبدِ هذا أمام جده الذي سعل في قوة على نحو متواصل فتدخلت الممرضة قائلة في حزم:

- يكفي هذا يا أستاذ (شريف).. لندعه يستريح الآن.

أطاعها (شريف) على الفور فنهض من مكانه ولم ينس أن يربت على كف جده مُطمئنًا قبل أن ينصرف.

في صالة الاستقبال طالعه وجه والده ينتظره بقلق فطمأنه على صحة جده وأنه في خير حال وتعلل بإنهاء بعض الأعمال المتعلقة على أن يعود إليه في الصباح ليدخلا لزيارة جده معًا ثم انصرف على عجل لا يلوي على شيء.. كان الفضول يعتصره لمعرفة ما يخفيه عنه جده وما سر هذه الوصية الغريبة ثم ماذا قد يكون في غرفة جده قد يُنير له الطريق في قضيته الغامضة كلها أسئلة ظلّت تتصارع داخل عقله في ضراوة حتى وصل إلى المنزل فتوجه على الفور إلى غرفة جده فأنار مصباح الغرفة ووقف يتطلع إليها.

كان كل شيء في الغرفة تفوح منه رائحة جده.. سريره الذي يقضي عليه أغلب فترات يومه.. عكازه الذي يتكئ عليه كلما غادر سريره لأمر ما.. مصحفه الكبير ومسبحته الموضوعان مكانهما على الكومود بجانب السرير.. كانت كل قطعة أثاث في الغرفة تحمل طابعه ولمسته.. تحمل جزءًا لا يتجزأ من روحه وتذكر ما كان جده يذكره له دائمًا عندما كان صغيرًا عن أن الجماد أيضًا من مخلوقات الله كالبشر والنبات

والحيوان يشعر بما حوله وبمَن يتعامل معه وكان دائمًا يؤكد له هذا بآيات من القرآن الكريم.. ألم يُذكر فيه أن الجبال تُسبِّح بحمد الله وتتصدع من خشية الله.

اغرورقت عيناه في ألم عصف به وهو يتذكر ذكريات طفولته مع جده وكيف كان دائمًا حنونًا معه ومعلمًا لا نظير له يسمع كل ما يقوله مهما بدا تافهًا.. يسمع أسئلته الطفولية بصبر وتأن ويُجيب عنها بسهولة ويسر دون أدنى تعقيد حتى يستوعبها ويحفظها..

لا يذكر مرة أن زجره أو نهره بشدة.. كان دائمًا نِعم الصاحب والرفيق.. لذلك يصعب عليه الآن أن يفقده.. نعم هو يعلم جيدًا أن جده شيخ طاعن في السن وأنه مريض منذ فترة ليست بالقصيرة وأن الأعمار بيد الله ولكل أجلٍ كتاب ولكن ألم الفراق والفقد والوحدة كانا أكثر من قدرته على الاحتمال.

نفض عن رأسه كل هذه الأفكار ودعا الله في سره ألا يريه مكروهًا في أحدٍ يحبه ثم بدأ بحثه داخل الغرفة عما يُخفيه جده ففتح الأدراج وصوان الملابس وقلَب

حشية الفراش دون جدوى.. استغرق بحثه مدة طويلة دون أن يعثر على شيء فوقف في منتصف الغرفة يتطلع لما حوله في حيرة حتى التقطت عيناه صندوقًا صغيرًا.. وُضع بعناية أعلى صوان الملابس فانتقى أقرب مقعد وصعد عليه ثم جذب الصندوق ووضعه أمامه على السرير وفتحه ثم بدأ في إخراج محتوياته ومطالعتها.

كان الصندوق يحتوي على مجموعة من التذكارات والنياشين حصل عليها جده أثناء فترة خدمته في جهاز الشرطة بالإضافة إلى مجموعة من الصور القديمة جمعها وأخذ ينظر إليها الواحدة تلو الأخرى.. صور له في مرحلة الشباب بالبدلة الرسمية.. صور له مع أصدقاء في مثل سنه يقفون أمام الكاميرا ويبتسمون في سعادة.. وصورة وحيدة له وهو يقف بجوار سيدة شابة في العشرينات من عمرها وبينهما طفل صغير لا يتجاوز عمره العامين ثم صورة أخرى للطفل وحده لا يتعدى عمره فيها الثلاث سنوات استوقفته لبرهة يتطلع إليها في اهتمام وهو يتذكر

أين رأى هذه الصورة من قبل ثم اتسعت عيناه في ذهول.. ما هذا العبث إنها نفس الصورة الموجودة في الصندوق الذي عُثر عليه في موقع الجريمة التي يحقق فيها الآن والتي طالعها بنفسه في مكتب الدكتور (عماد) طبيب الطب الشرعي من قبل.

أيعقل أن تكون الصورة التي رآها من قبل هي نفسها صورة أبيه في طفولته التي يراها ويمسكها بيده الآن.. وما الذي أتى بصورة أبيه في صندوق يخص سفَّاحًا قتل الكثيرين منذ أكثر من نصف قرن.. أسئلة كثيرة وألغاز تتصارع داخل عقله بلا هوادة وبلا أمل في إجابة تضيء ظلام حيرته.

لم يستوعب ما يحدث فوضع الصورة في جيبه والتقط من داخل الصندوق كتابًا قديمًا ذا غلاف أسود بهت لونه واصفرت أوراقه كُتب عليه بخط منمق.

.. مذكراتي بقلم كامل مدكور..

شعر (شريف) أن ما هو مقبل عليه سيفتح له أبوابًا لم يطرقها من قبل وأن غيوم الألغاز التي تحيط به على وشك أن تنجلي فحمل الكتاب معه إلى غرفته ووضعه أمامه على المكتب وأشعل سيجارة ينفث مع دخانها توتره ثم فتح الكتاب وبدأ القراءة ليعود بالزمن إلى الوراء..

إلى حيث البداية.

٧ ٧ ٧

الفصل الثاني عشر

بلَّلت قطرات العرق جبين (جابر) والتصقت بها خصلات شعره البني الناعم بينما تصاعدت أنفاسه اللاهثة من فرط المجهود أثناء مضاجعته ل(دربة).. هذه الليلة كانت هي في قمة النشوة وقد استقبله جسدها بكل ترحاب وظهرت على ملامحها علامات السعادة والارتياح جليَّة حتى أنها مدت يدها تجذب جسده ناحيتها لتجعله يغوص بداخلها أكثر مع إطلاقها آهات ألم أثارته أكثر وأكثر.. كانت لديه رغبة متفجرة ناحيتها هذه الليلة لم يتخلص منها إلا عندما شعر بنهره يفيض بداخلها عندها طوَّح برأسه إلى الوراء في ارتياح قبل أن يميل عليها ليغيبا في قُبلة طويلة لاهثة.. قُبلة قطعها صوت خافت عند باب الحجرة جعل (جابر) ينتفض في ذعر ويلتفت ناحية الباب فإذا بصبي صغير ميَّز فيه ملامح يعرفها جيدًا يقف مرتديًا جلبابه الصغير وقد اتسعت عيناه في دهشة صاعقة وصدمة عقدت لسانه وشلَّت كيانه فلم يحرك ساكنًا.

هبَّ (جابر) من مكانه وهو يُعيد نظره ناحية (درية) فإذا بأمه (نعمة) مستلقية مكانها على السرير وقد بقيت على غُريها كما كانت فقفز من على السرير يُدير وجهه في جميع الجهات لا يدري إلى أين يذهب وأين المفر من عيني (جابر) الصغير وعيني أمه اللتين تلاحقانه وتجلدانه كسياط من الجحيم قبل أن تصطدم عيناه بمرآة رأى فيها نفسه في هيئة عمه كما رآه آخر مرة وهو يبتسم في تشفٍ فأخذ يصرخ ويصرخ وهو يُغلق عينيه ويغطي وجهه بيديه.. حتى نهض من نومه مذعورًا بينما العرق يغمره ويسيل على وجهه ورقبته.. فإذا به في غرفته كما تركها قبل نومه وقد عمَّها الظلام إلا من ضوء خافت يأتي من ناحية الباب.

مسح عرقه وغطى وجهه بيديه في إرهاق فإذا بصوت خافت يثير انتباهه وذعره فرفع عينيه ناحية الباب ورأى أمه وعمه قادمين تجاهه بنفس هيئتهما وملابسهما يوم قتلهما.. البشرة الشاحبة والعيون الجاحظة وابتسامة الشر والتشفي على وجهيهما

فصرخ وهو يتراجع في سريره ليلتصق بالحائط وصاح في ذعر:

- ماذا تريدان مني؟

أجابه عمه بصوت عميق تردد وقعه في أذنيه كجمر نار ملتهبة من الجحيم:

- قتلتني والآن صرت مثلي.

لوَّح (جابر) بذراعيه وهو يزداد التصاقًا بالجدار والرعب يتمثل في كل ملامحه هاتفًا:

- لا.. لا.. أنا لست مثلك.

ارتسمت ابتسامة شيطانية على وجه عمه انطبعت مثلها على وجه أمه والأول يقول:

- لقد خنت ولي نعمتك كما خنت أنا أخي.

ثم تقدما تجاهه وهما يرددان معًا:

- يجب أن تموت كما متنا نحن.

انطلق صراخ (جابر) يشق الصمت وظلَّ يصرخ ويصرخ حتى استيقظ حقيقة هذه المرة مفزوعًا فقفز من مكانه يتأكد من إحكام غلق الباب.. قبل أن يلتقط زجاجة مياه أفرغها في جوفه مرة واحدة ثم ألقى بجسده الذي تهدم بنيانه في إعياء على سريره نتيجة هذا الكابوس المزدوج المفزع وظلَّ مستلقيًا على فراشه وقد جافاه النوم ولا يزال صوت عمه يتردد صداه في أذنيه قائلًا:

- الآن صرت مثلي.. الآن صرت مثلي.

ثم صوتهما معًا وهما يرددان:

- يجب أن تموت كما متنا نحن.

كانت قسوة الكلمات تمزق جسده كضربات سكين مسنون وتحرق عقله وتلهب كيانه كمَن سقط في بحر من نار لا شاطئ نجاة منه.. لكن هل صحيح أنه صار مثلهم..

شيطان في صورة إنسان كما كان يراهم في طفولته ولا يزال حتى الآن..

تُرى هل يتحمل عبء الخيانة ويكتوي بنارها؟

تُرى هل فعلًا يستحق القتل مثلما استحقوه؟

وإلى متى ستظل تلك الكوابيس تلاحقه؟

أسئلة كثيرة ظلّت تجول داخل أروقة عقله وتعبث بأفكاره كشيطان مريد حتى غاب عن وعيه تمامًا.

* * *

تحت جُنح الظلام وفي عتمة ليل أرخى ستائره السوداء القاتمة على المنطقة جلس (جابر) بجانب السائق في سيارة نقل البضائع المُختفية عن الأنظار أمام بوابة الميناء يتلفت حوله في توتر خشية أن يلحظه أحدهم منتظرًا الإشارة المُتفق عليها مع مَن يتعاملون معه بداخل الميناء.

مر أكثر من شهر منذ قَبِل (جابر) بعرض (مادلين) للعمل معهم وصارت كل مهمته أن يصطحب السائق والسيارة إلى الميناء ليُحمِّل البضائع المُتفَق عليها لينقلوها إلى مخزن خاص مُعد لهذا الغرض.

كانت المهمة محفوفة بالمخاطر و(جابر) يعلم هذا جيدًا لكنه قَبِل بها عن طيب خاطر من أجل عيون (مادلين) التي اختصته هو دون غيره ليكون رجلها المخلص الذي تأتمنه وفي المقابل تهبه قلبها وحبها وهو لم يكن يريد أكثر من هذا.. أن تبادله حبًا بحب.. إخلاصًا بإخلاص.. ومَن أحق بحبها أكثر ممَّن تثق به لتأتمنه على أموال وتجارة والدها.. الذي تحمَّل عنها عبء المخاطر والمسئولية ولم يطلب لنفسه شيئًا سوى أن يرى ابتسامة الرضى على ثغرها الجميل ويسمع كلمات الشكر من بين شفتيها فيحلق في سماء السعادة مطمئنًا.

قطع شروده وتسلسل أفكاره ضوء قوي انبعث من بطارية يدوية مرتين متتابعتين فاعتدل في اهتمام

رودة للكتب حرامية

وانتظر حتى انبعث الضوء لمرة ثالثة فغمز السائق بيده قائلًا:

- هيا بنا.

كانت تلك الإشارة المتفق عليها فما إن تحركت السيارة حتى انفتحت البوابة على مصراعيها فمرقت السيارة إلى الداخل حتى وصلت إلى رصيف الشحن فتعاونوا معًا على تحميلها بالبضائع حتى امتلأت عن آخرها فناوله (جابر) مظروفًا مغلقًا فيه المبلغ المتفق عليه مع الموظف المسئول وصعد بجانب السائق داخل السيارة مرة أخرى متخذين طريق العودة حتى وصلا إلى المخزن الخاص الذي لا يعلم أحد عنه شيئًا سوى الخواجة (استيفانوس) و(مادلين) وعدد قليل من عمال الوكالة الذين اختصهم الخواجة ومنحهم ثقته والآن هو.

انتهى من نقل البضائع إلى داخل المخزن مع بعض العمال من الوكالة الذين كانوا ينتظرونه هناك وانتظر حتى رحلوا كما رحل السائق بسيارته فتمم على كل

دودة الكتب حرامية

شيء ثم أحكم إغلاق المخزن وسار في اتجاه بيت الخواجة (استيفانوس) الذي لا بد وأنه في انتظاره الآن على أحر من الجمر ليطمئن على أن بضاعته قد وصلت بأمان إلى مخزنه.

أثناء سيره في اتجاه المنزل كان سعيدًا لأنه أتم المهمة على أكمل وجه مما سيُسعد الخواجة (استيفانوس) والأهم أنه سيُسعد مالكة قلبه وسيدة أحلامه (مادلين).. سرح خياله في أنه بعد قليل سيراها ويسعد بابتسامة الرضا والسعادة على وجهها فرقص قلبه طربًا وانتشى في سعادة فأطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا للحن إحدى الأغاني الرومانسية سمعها قريبًا في مذياع المقهى وأعجبته كثيرًا وأخذ يردد مع نفسه كلماتها التي كان يشعر بأنها تصف ما بداخله وتحكي عن قصة حبه هو و(مادلين)..

شفت حبيبي وفرحت معاه...

كان وصل جميل حلو يا محلاه.. حلو يا محلاااه
شفت حبيبي...

دودة الكتب حرامية

بعد الوحدة وطول الأشجان كان قلبي وحيد وصبح فرحان...

يا ما قضيت الليل سهران بيجي اليوم أسعد بلقاه.

قطع أفكاره وترديده للأغنية صوت خطوات حذرة تتبعه فانتبه وتوقف ليلتفت وينظر إلى الخلف فلم يجد أحدًا.. كان الشارع مظلمًا وخاويًا فعاد يُكمل سيره من جديد وإن ظلَّ منتبهًا متيقظًا حتى عاد صوت الخطوات من جديد يتتبعه.. هذه المرة لم يتوقف بل جدَّ السير وأسرع خطاه حتى توارى في أول شارع جانبي قابله وهناك وقف ينتظر ويترقب.. ثوان وتعالى صوت الخطوات يقترب حتى ظهر شاب يسير وحيدًا مرق من أمامه ولم يتوقف بل استمر في طريقه كما هو عندها تنفس (جابر) الصعداء ونفض عن نفسه هواجسه واتخذ طريقه من جديد ناحية منزل الخواجة (استيفانوس).

حين وصل إلى المنزل كانت هي في استقباله.. جائزته التي اجتهد كي ينالها.. واحته الخضراء بعد طول

ضياع في صحراء مترامية.. شربة الماء التي ترويه بعد سنوات من الظمأ.. تلقف بسمتها في وجهه بشوق فاق كل الحدود وتركها تصحبه إلى الداخل قبل أن توصله إلى غرفة الصالون وتستدير لتذهب كي تُخبر والدها بحضوره فمد يده ليمسك يدها يستبقيها وهو يهمس في هيام:

- أوحشتني.

اتسعت ابتسامتها الواثقة وكأنها اعتادت على نظرات الوله في عيون كل مَن ينظر إليها ثم قالت في دلال:

- حقًّا؟!

- أتسألينني؟

سحبت يدها من يده في لطف ومررت أصابعها على خده قائلة:

- فيما بعد عندما نكون وحدنا فالآن يجب أن أُخبر أبي بحضورك ليطمئن.

دودة الكتب حرامية

قالتها وذهبت لتُخبر أباها بحضوره تاركة إياه يعد الثواني لعودتها قبل أن تستثيره هواجسه من جديد عندما تذكر صوت الخطوات التي كانت تتبعه فاقترب من النافذة وأزاح الستار يُلقي نظرة على الشارع الخالي تقريبًا من المارة في هذا الوقت المتأخر من الليل إلا أنه فوجئ بالشاب الذي رآه قبل ذلك يقف على مسافة قريبة من المنزل مستندًا بظهره إلى الحائط المقابل وهو ينفث دخان سيجارته متطلعًا بين الفينة والأخرى إلى النافذة التي يقف هو خلفها.

توترت أعصابه عندما تأكد أنه مراقَب وأن هناك مَن يرصد خطواته ويكشف تحركاته بينما استعر بداخله مزيج غريب من الخوف والفضول.. الفضول لمعرفة مَن هذا الذي يتبعه ولأي جهة ينتمي والخوف من أن يكون أحد عناصر الشرطة ويكون أمره وأمر المخزن السري قد كُشف.. عندها ستنحل خيوط حياته واحدًا تلو الآخر وسيكون سره الأخطر والأهم غُرضة للكشف هو الآخر.. يجب عليه أن يتخذ كل سبل الحرص في الفترة القادمة ويُعيد ترتيب أوراقه من جديد.

سمع خطوات الخواجة (استيفانوس) و(مادلين) تقترب فترك الستار واعتدل في مكانه وقد شعر أنه من الأفضل ألا يخبرهما عن هذا الشخص الذي يتبعه حتى لا يثير توترهما أو غضبهما منه وبالفعل نفذ ما انتوى عليه فطمأن الخواجة على وصول بضاعته بسلام إلى مخزنه وتسليم المبلغ المتفق عليه إلى صاحبه وسلَّمه مفاتيح المخزن واستأذن في الانصراف.. أثناء خروجه كانت (مادلين) ترافقه حتى باب المنزل عندها نظر خلفها ليتأكد أن الخواجة ليس قريبًا منهما ولا يستطيع سماعهما فقرَّب شفتيه من أذنها هامسًا:

- هل سنلتقي قريبًا؟

أجابته بصوت خفيض وهي تلتفت للخلف في وجل:

- ليس الآن يا (محمود).. سأحاول أن أرتب موعدًا لنا قريبًا.

نظر في عينيها قائلًا:

- سأنتظر.

أومأت برأسها موافقة وربتت على كتفه تستحثه على الخروج ثم أغلقت الباب خلفه قبل أن تزفر بقوة في ضيق وهي تلتفت إلى والدها الذي برز أمامها من داخل الغرفة قائلًا:

- أيضايقك إلى هذا الحد؟

ردت عليه متسائلة وهي تمط شفتيها في قرف:

- إلى متى يجب علي تحمل هذا الأحمق؟

أجابها بسرعة:

- حتى تنتهي حاجتنا منه.

ثم أردف وهو يبتسم في خبث:

- أم إنك تريدين استبداله بشخص آخر.

حدَّقت في وجهه متسائلة:

- مَن تقصد؟

اتسعت ابتسامته الخبيثة أكثر وأكثر وهو يُجيب:

- أنا لا أقصد أحدًا بعينه ربما شخص آخر يُسعدك رؤيته ولا يُثير ضيقك وغضبك إلى هذا الحد.

نظرت له في تنمر قائلة:

- أنا أعلم لمَن تلمح ولكن أعلم أن (كمال) شيء و(محمود) شيء آخر.. (كمال) حب حياتي لن أتخلى عنه ولن أُعرِّضه للخطر أيًّا كان السبب.

قال وهو يشير لها بأصبعه محذرًا:

- لكننا ما زلنا نحتاج (محمود) فلا تظهري له هذا الضيق وما دمنا لا نجد له بديلًا فلتبقي عليه حتى ننتهي.

تقلصت ملامحها في امتعاض وصاحت في غضب:

- لكنني لن أحتمل هذه الحياة بعد الآن.. لن أقضي حياتي بجوار هذا الحقير لأنه يخدم مصالحك لقد اكتفيت وأريد أن أعيش حياتي بحرية مع مَن أحب وعليك من الآن أن تدبر أمرك بدون خدمات هذا الأحمق لأني سأخرج من هذه اللعبة للأبد.

انطبعت نظرة نارية على عينيه الزرقاوين وهو يصيح في ثورة لم تعتدها منه:

- كل هذا من أجل (كمال)؟!.

نظرت له بثبات وهي تقول في تحد:

- نعم من أجل (كمال).

ثم سارت إلى غرفتها قبل أن تتوقف على بابها وتلتفت له مكملة:

- ومن أجلي أنا أيضًا.

وصفقت الباب خلفها في قوة منهية حوارًا عاصفًا احتدم بينها وبين والدها..

ومُنهية علاقتها ب(جابر) إلى الأبد.

* * *

مع مرور الأيام أحس (جابر) بشيء ما خطأ.. لم تعد (مادلين) كما كانت من قبل.. تغيرت لدرجة كبيرة وبسرعة لم يكن يتخيلها من النقيض إلى النقيض.. وكأنها بُدِّلت بأخرى.. صحيح أنها قابلته كما اتفقا يوم أن زارهم في البيت ليطمئنها ووالدها أن البضاعة قد وصلت إلى المخزن إلا أنها لم تعد أبدًا كما كانت.

يومها جاءت متأخرة تتعلل ببعض المشاغل.. جاءت متأففة متعالية وسريعة الملل حتى أنها لم تجلس معه سوى دقائق معدودة لم يكملا فيها جملتين وطلبت أن تغادر لانشغالها في بعض الأعمال مع والدها.. كل هذا أكد لديه إحساسه الذي كان يلتهم كيانه وينهشه حيًّا بينما هو يحاربه بكل ما أوتي من قوة وهو أن (مادلين) سئمت منه..

تغيرت ولم تعد تحبه أو أنها لم تحبه من البداية قط.

لكن يبقى سؤال ظلَّ يؤرقه ويقضُّ مضجعه وهو لماذا تغيرت من ناحيته؟..

هل أساء لها في شيء؟

ربما عَلِمت عنه أشياء جاهد كي يخفيها عن ماضيه ولكن كيف كان سيخبرها بكل هذا دون أن يُخاطر بأن يفقدها للأبد ثم من أين لها أن تعرف شيئًا عن ماضيه ومِمَّن..

أو ربما علمت عما دار بينه وبين (درية).. ولكن لماذا لم تواجهه أو حتى تعاتبه.. ليتها فعلت.. عندها كان سيخبرها لماذا وقع ما وقع وسيقسم لها بكل ما في نفسه.. سيقسم بحبه لها أنه لن يكرر ما حدث ثانية وأنه نادم أشد الندم على فعلته وسيجثو عند قدميها يطلب الصفح والغفران.. لكنها بدلًا من أن تعاتبه عتاب المحبين تتجاهله وتتعمد الخلاص منه بعد كل ما فعله ويفعله من أجلها.

لن يقبل بهذا أبدًا ولو أنها كانت تخدعه أو أن هناك أحدًا آخر خلب لبها وسلب منه قلبها فالويل له ولها منه.. سيكون انتقامه منهما أشد قسوة من انتقامه السابق.

عادت له روح الانتقام بكل عنفوانها وشدتها.. تغلغلت داخله بعد أن انهارت أسوار الحب التي بناها حول قلبه وأصبح عقله مدينة مباحة تغزوها الأفكار السوداء كيفما شاءت فعاد (جابر) القديم الناقم على كل شيء.. (جابر) الذي اسودَّ قلبه منذ طفولته جرَّاء قسوة أقرب الناس إليه.. لكن عليه أولًا أن يتأكد من كل ظنونه التي تُصليه عذابه وأن يعلم السر وراء ما يُلاقيه من المخلوقة الوحيدة التي أحبها في حياته وعندها يكون ما يكون.

لذلك عَمِدَ تلك الليلة أن يتتبعها ويراقب كل خطوة تخطوها وبالفعل نفَّذ ما انتوى عليه وها هو الآن يتوارى بعيدًا عن الأنظار أمام بيتها ينتظر ويراقب المدخل جيدًا.. كان يعلم أنها اعتادت الخروج ليلًا بعد أن تُنهي عملها مع والدها في الوكالة وكم من مرة

كانت تلقاه في مثل هذا التوقيت ليقضيا معًا أجمل أوقاتهما لذلك كان يشعر بأنها قريبًا ستظهر.. ولم تكد أفكاره تنتهي حتى لمحها بالفعل خارجة من بوابة العمارة التي تسكنها وقد ارتدت فستان سهرة أسود أبرز مفاتنها وزادها جمالًا على جمالها مع تصفيفة شعرها وزينتها التي تُبدع في وضعها وعطرها الذي فاح من حولها حتى أن عبيره وصل إليه في مكانه عندما مرت من أمامه وهو متوارٍ عنها.. ورويدًا رويدًا تصاعدت ثورة الشك في أعماقه مع كل هذا السحر الذي خرجت به.. فتحرك في خِفَّة يتبعها من بعيد كي لا تلاحظه أو تشعر به والإصرار داخله يتزايد لمعرفة ما تُخفيه عنه حتى وصلت وهو يتبعها إلى المقهى الذي اصطحبته معها إليه عند لقائهما أول مرة.. مقهى إليت بمحطة الرمل.. ومن الخارج وعبر النوافذ الزجاجية التي تكشف ما بداخل المقهى وجدها جالسة على نفس المائدة التي جلسا عليها قبل ذلك مع شاب آخر وقد تلاقت أعينهما في هيام بينما سلَّمت له يدها ليحتويها بين يديه في وجد.. عندها شعر وكأن ألف سكين قد غُرس في قلبه ودماؤه تفور داخل جسده

وتصرخ طلبًا للانتقام ممَّن هزأت بمشاعره وتلاعبت بقلبه ثم دهسته بقدمها دون رحمة أو شفقة.

اللعنة عليك يا (مادلين) وعلى كل خائنة...

ومن داخله تصاعد القسم.. أنه لن يأمن لامرأة مرة أخرى ولتكونن حياته مكرسة لهدف واحد..

هدف واحد فقط وهو الانتقام.

كبح جماح مارد الغضب بداخله وجمع شتات نفسه ليرحل بعيدًا عن هذا المشهد وهو يجر أذيال خيبته وحسرته في الوقت الذي كانت فيه (مادلين) تقول لحبيبها:

- هل جننت يا (كمال) لتتخيل أنني من الممكن أن أحب مثل هذا المعتوه؟!!

تشبث (كمال أنطون) بيديها أكثر وهو يقول:

- لقد كدت أجن بالفعل وأنا أراك تصطحبين هذا الحيوان إلى السينما ثم إلى هنا..

لم أفهم شيئًا وقتها وأنا أراقبكما تتسامران في نفس المكان الذي شهد على أول لقاءاتنا ومولد حبنا.. ولم يهدأ قلبي إلا حين قابلتني وشرحت لي كل شيء ولكن ظلّت بداخلي غصة وأنا أراك تسيرين بجانبه وهو يحتضن كفك بيده.

قالت له في إخلاص:

- ليس في قلبي سواك يا (كمال) فاطمئن.

- وإلى متى ستبقين على هذا الوضع؟

أجابته (مادلين) في ثقة:

- لن أبقى فيه لحظة واحدة بعد الآن.. لقد أنهيت الأمر مع والدي وعليه هو أن يبحث عن بديل مناسب.

نظر لها نظرة عشق قائلًا:

- أحبك يا (مادلين).

- أحبك يا (كمال).

واستمرت جلستهما طويلًا في وقت كان فيه (جابر) يُحدِّق وحيدًا في البحر الثائر وموجه المتلاطم..

ويفكر.

V V V

الفصل الثالث عشر

تقلصت ملامحه بشكل كبير وهو يشعر ولأول مرة بالضياع والعجز يدُّب في كيانه كمَن تلقى صفعة زلزلت ما تبقى من رجولته بعد صفعة (مادلين) الأولى التي هزَّت أركان صرح كرامته.. لم يكد يستفيق منها حتى تأتيه الثانية لتنسفه نسفًا..

هذه المرة كانت الصفعة مع (درية) التي استقبلته في منزلها بكل اللهفة والشوق فلم يكد يغلق الباب خلفه حتى ارتمت بين ذراعيه تغمره بقبلاتها وهي تتحسس كل جزء من جسده بيديها كأم تطمئن على وليدها من أي مكروه قد يصيبه.

لم تكن تدري لحظتها أنه مجروح جرح غائر عميق لا ينفع معه تضميد أو علاج.. جرح وإن كان غير ظاهر إلا أن وقعه كان أشد قسوة.. جرح شق قلبه بلا شفقة ولا رحمة أدمى فؤاده وصفى دمه.. جرح تركه مجرد جبلة خارجية.. كيان من لحم ودم دون روح يحركه فقط وازع الانتقام.

تركها تحتفي به كما حلا لها.. تركها تعبث بجسده وتغمره بعاطفتها التي تُخفي خلفها رغبة مشبوبة تحرقها حتى قادته إلى حيث تريده.. إلى غرفة نومها وهناك تلاقا وهناك أيضًا عَلِم أنه على غير ما يرام.. لم يفقد بعد الرغبة في (درية) هذه حقيقة لا بد أن يؤكدها لنفسه إلا أنه لم يستطع أن يكون كما اعتادت منه أن يكونه.. أحس بالعجز من أول لحظة اعتلاها على السرير.. عجز سخيف سيطر على عقله وعلى جسده.. عجز صدَّع بنيانه وزلزل كيانه خاصة مع تشتت عقله ولقد أحست (درية) بغريزتها الأنثوية أنه ليس على ما يرام.. فحاولت استثارته قدر إمكانها لتساعده لكن دون جدوى.

كان كالميت الذي لا يُجدي معه إنعاش وهو أيضًا حاول قدر استطاعته لكن عقله خذله قبل جسده.. كانت صدمته في (مادلين) ما زالت في أوجها إلا أن هذا لم يكن السبب الوحيد وربما لم يكن السبب على الإطلاق فالحقيقة أنه ومنذ أن دخل معها إلى هذه الغرفة وهو يراهم حوله في كل مكان.. يرى نفسه

صبيًّا صغيرًا شلته الصدمة وألجمه الرعب في مكانه ويرى ابتسامة التشفي وهي ترتسم على شفتي أمه وعمه وصوتهما يتردد في أذنه عاليًا يكاد يصيبه بالصمم..

- يجب أن تموت كما متنا نحن..

ومع الوقت وتكرار المحاولة والضغط النفسي الذي يعانيه والعرق البارد الذي غمره رغم برودة الجو.. استسلم جسده تمامًا.. فانزاح عن (درية) وهو يحمل إحساسًا فظيعًا بالعجز والمهانة.. إحساسًا جعله يكره نفسه ويكره (درية) ويكره تواجده في هذا المكان.

نهض على عجل يرتدي ملابسه والعرق ما زال يلتمع على جسده ومن خلفه نهضت (درية) وقد جعلها عجزه والرغبة التي ما زالت تضطرم في جسدها والتي عجز هو عن إطفاء لهيبها عصبية ربما أكثر منه فسارت خلفه لتسأله في حِدَّة:

- ماذا بك اليوم؟

أجابها وهو يهرب بعينه بعيدًا عن نظراتها:

- لا شيء إنه مجرد إجهاد.

صاحت هي في استنكار غاضب:

- إجهاد.. أم أنك فجأة فقدت الرغبة في أن تكون معي أو ربما كانت هناك أخرى.

حاول أن يضبط أعصابه قدر استطاعته وهو يرد قائلًا:

- كفي عن هذا الكلام الفارغ.

جذبته من يده في عنف لتديره ناحيتها وصوتها يتعالى أكثر وهي تهتف:

- ليس كلامًا فارغًا.. أم تظنني لا أعلم عنك وابنة الخواجة.

أدهشه عِلمها بعلاقته مع (مادلين) إلا أنه قال في مقت:

- اللعنة عليها وعليه.. لا تذكريهما أمامي مرةً أخرى وإلا لن تريني مجددًا مفهوم.

قالها واتجه ناحية الباب ليخرج إلا أنها سعت خلفه وجذبته مجددًا وهي تصرخ وقد فقدت أعصابها تمامًا:

- لن تخرج من هنا إلا بأمري أنا.

دفعها بيده بمنتهى القوة لتصطدم بالمقعد خلفها وتسقط أرضًا وهو يصرخ فيها بغضب:

- ابتعدي عني.

نهضت من سقطتها وقد تحول غضبها إلى سخرية لاذعة وهي تقول:

- الآن تتصنع الرجولة وتدفعني!.. أين كانت رجولتك بالداخل أيها الحقير وأنت عاجز لا نفع فيك.. أنت عاجز.. عاجز.. عاجز.

لم يدر بنفسه إلا وهو يرفع يده ويهوي بها على وجهها بمنتهى القوة في صفعة ألجمتها وهو يهتف:

- اخرسي أيتها القذرة.

اتسعت عينا (درية) في ذهول وهي تتحسس موضع الصفعة التي نزلت على وجهها قبل أن تتحول إلى لبؤة شرسة ففقدت أدنى قدر من التعقل وأطلقت العنان لشراستها وهي تندفع نحوه لتضربه بكلتا يديها على صدره وتصفعه على وجهه وهي تصرخ في هياج وحشي:

- تضربني أنا أيها الحقير.. تضرب سيدتك أيها الكلب.. أنا قذرة يا حثالة البشر بعد كل ما فعلته من أجلك.

أمسك يديها بكلتا يديه وقد تحجرت عيناه من فرط الغضب وقال من بين أسنانه:

- أنت لم تفعلي شيئًا من أجلي.. أتفهمينني؟.. أنت سعيت لمتعتك القذرة فقط.

ثم دفعها بعيدًا عنه قبل أن يُكمل قائلًا:

- من الآن ابتعدي عن طريقي للأبد.

قالها وغادر المنزل وهو يصفق الباب خلفه في قوة ومن خلف الباب سمع صرخاتها الغاضبة:

- ستدفع الثمن يا (محمود).. ستدفع الثمن.

وكم كانت صادقة.. صادقة تمامًا.

* * *

مَن في الحي بأكمله لا يعرف مَن هو (سليم فتوح).. إن وجوده في الحي كالقدر المحتوم فلا فكاك منه ولا سبيل لمعارضته.. أحيانًا تراه يسير في خيلاء مرتديًا زيه الرسمي يتلقى التحيات التي يشيعه بها كل مَن يراه متهيبًا في فتور ويردها في تعالٍ وأحيانًا أخرى تجده في مقهى (شعبان جودة) جالسًا على مقعده الأثير الذي لا يغيره أبدًا ويُحكى أن لهذا المقعد قصة حين حاول أحد شباب الحي تحدي سلطة (سليم

وجبروته فتعمد أن يجلس على مقعده في ميعاد حضوره للمقهى ورغم تحذير الكثيرين له من مغبة ذلك إلا أنه أصر على التحدي وأن يُكمل الشوط الذي بدأه للنهاية وبالفعل انتظر الجميع في ترقب ميعاد وصول (سليم فتوح) واحتبست الأنفاس حين ظهر الأخير على أول الشارع قادمًا ناحيتهم وبنظرة ذئب خبير يعرف قوانين التحرش وقواعده لمح نظرة التحدي في عين الشاب الجالس مكانه وإن كان هذا الشاب يُبدي اللامبالاة ويتصنع البراءة فافتر ثغر (سليم) عن ابتسامة ذئبية قاسية وتجاهل الموقف برمته وسط ذهول رواد المقهى بأكمله حتى (شعبان) الذي كان يبسمل ويحوقل ويدعو الله في سره أن تمر الليلة على خير.. واختار مقعدًا آخر ليجلس عليه وكأن شيئًا لم يكن.. بل تعمد أن يتحدث مع الموجودين دون أن يُبدي أي ضيق مما حدث حتى ظن الكثيرين أن الأمور قد سارت على خير ما يرام وأن خوفهم وهيبتهم من (سليم) كانت ضربًا من المبالغة وجبنًا لا داعي له لكن ما حدث بعد ذلك أكد لهم كم هم واهمون وأن (سليم) لا يغفر ولا يرحم مَن يتحداه ففي نفس

الليلة وبدون سابق إنذار اقتحم مجموعة من المخبرين مسكن الشاب وساقوه أمامهم بحيث يراه كل أهالي المنطقة وهو يتلقى الصفع والركل والسباب بأقذع الألفاظ حتى وصل إلى نقطة الشرطة وهناك تأكد الفتى أن ما حدث معه طوال الطريق كان مجرد بداية.. بداية لهول آخر أشرف عليه (سليم) بنفسه على مدى أيام متعاقبة قبل أن يُطلق سراحه وقد أصبح كالخرقة البالية ليكون عبرة لمَن يعتبر ورسالة لمَن قد يتجرأ بعد ذلك على تحدي سُلطة (سليم) في حيه.. ومن ساعتها لم يُشاهَد هذا الشاب على المقهى مرة أخرى بل إنه غادر الحي بأكمله تشيعه نظرات الأسف والحسرة على ما آل إليه حاله ومن ضمنها نظرة احتقار رماه بها (سليم) وهو جالس في مكانه المعتاد على مقعده الأثير.

هذا كان الوضع وتلك كانت الظروف حين تعرَّف به (جابر) لأول مرة.. في البداية حاول (جابر) تجنبه والابتعاد عنه قدر الإمكان خوفًا من أن يكشف بعينه الثاقبة ما يُخفيه من أسرار.. لكن مع شخص مثل

(سليم) لا تستطيع الهرب طويلًا حتى لو حاولت.. كانت عيناه تتابعان (جابر) داخل المقهى وكأنما يسبر أغواره ويقرأ ما بداخله فاتبع (جابر) سياسة أخرى وهي سياسة التقرب خاصة مع النصيحة التي تلقاها من عم (سعيد) ذلك المحصّل العجوز الطيب حين قال له:

- إياك أن تثير غضب (سليم) أو تحاول معاداته.. كن معه خيرًا من أن تكون ضده.. فاعمل على كسب صداقته لتأمن شره خاصة وأنت في ظروف لا تحتاج فيها إلى لفت الانتباه حولك.

تلك كانت نصيحة العجوز وتلك أصبحت سياسته الجديدة فصار يرحب ب(سليم) كلما أتى إلى المقهى كضيف فوق العادة فيُسرع ناحيته وهو يلهج بعبارات الترحيب ويُعدِّل من وضع المقعد الخاص به ويُسرع في تنفيذ طلباته قبل أي طلبات أخرى ثم يُعاود المرور عليه كل فترة ليرى إن كان يريد شيئًا آخر.. كل هذا فعله (جابر) على مضض ليرضى (سليم) عنه ويُخرجه من حساباته بل ويضمه إلى خانة الأصدقاء.. لكن مع

ذئب مثل (سليم) لم يكن من الممكن أن تنطلي عليه هذه الخدع بسهولة.. صحيح أن معاملة (جابر) الخاصة والمميزة له كانت تثير داخله نوازع الغرور وأمارات العظمة إلا أنها لم تمنعه من أن يتشكك فيه ويسعى لمعرفة ماضيه وما يُخفيه.

هكذا كان (سليم) وهكذا كان أسلوب تعامله مع أبناء حيه.. كان يكره الغموض ويكره أن يبقى شيئًا مهما كان صغيرًا ومهما بدا تافهًا خافيًا عنه وهو بذلك يطبق ما تعلمه ممَن سبقوه وهو أن أكثر ما يكسر شوكة الإنسان ويذل ناصيته ويحني هامته هي أخطاؤه وما يسعى لإخفائه حتى عن أقرب الناس إليه ومع المعرفة يزيد النفوذ وتتضخم السلطة.. هذا ما تعلمه وهذا ما طبقه طوال حياته.. فمعرفته بأسرار وخبايا الناس من حوله تشعره بحالة لا تصدق من الانتشاء وكأنه بذلك قد صار مِلكًا متوجًا على الجميع وسيفًا مسلطًا على الرقاب ويستطيع بكلمة واحدة يُلقيها للشخص الماثل أمامه أن يجعله يخفض رأسه ويكسر عينه وتتحقق له السيادة المطلقة.

غير أن هذه الهالة وتلك السلطة المطلقة لم تكن تتجاوز أسوار الحي قط ف(سليم) على غير ما قد يتوقع البعض لم يكن ذا شأن كبير ولا له منصب سيادي يُرجف الأوصال بل في الحقيقة هو مجرد أحد معاوني الشرطة القدامى الذين عركتهم الحياة.. بالإضافة لطبيعته الماكرة وشخصيته القوية.. فصارت له سطوة هائلة وعلاقات مع مختلف الفئات.. حرص هو على الحفاظ عليها وزيادتها بالكلام المعسول تارة.. وبالقسوة والعنف تارةً أخرى.. فهو بذلك يتبع سياسة الترغيب والترهيب القديمة قِدم الدهر ولكنه استقاها بفطرته دون قراءة أو دراسة فأصبح ذا شأن ومكانة بين زملائه وبين أهالي منطقته لذلك لم يكن من السهل أن يُخدع في شاب مثل (جابر) أتى غريبًا وبقي غريبًا لا أحد يعرف له أهلًا ولا منشأ ولا ماضيًا.

كان (جابر) يشعر منذ أن رأى (سليم) لأول مرة أن قصة كبيرة ستجمع بينهما وأن القدر لا بد وأنه يخبئ للاثنين ما لا يخطر لهما على بال.. شعور بالنفور وعدم الارتياح كان يجتاحه كلما شاهد (سليم) قادمًا ناحية

المقهى خاصة مع تلك النظرة الماكرة التي يتطلع بها لكل مَن حوله وكأنه ثعلب عجوز.. ثعلب قادر على أن يقرأ ما بداخل طيات العقل وما يقبع خلف الصدور.. وفي حالة مثل حالة (جابر) لديه في الخفاء أكثر مما لديه في العلن كان (سليم) يشكل خطرًا بالغًا.. خطرًا لا بد من التعامل معه بحرص أو إزاحته عن الطريق مهما كان الثمن.

كانت كل هذه الأفكار تتصارع داخل عقل الاثنين دون أي بادرة من الطرفين لتطبيق هذه الأفكار على أرض الواقع إلى أن جاء يوم.. يوم تكاثفت فيه السحب بشكل غير مسبوق فأظلمت الدنيا كقلب الكافر ورعدت السماء منذرة بالويل حين شاهد (جابر) أثناء سيره عائدًا إلى داره اثنان من المخبرين يترقبانه على ناصية شارعه فأبطأ خطواته وهو يستدير بحذر عائدًا من مكان ما أتى ليفاجأ باثنين آخرين يقطعان عليه طريق العودة.. عندها تأكد أن أمره قد كُشف وأن ماضيه المستتر قد تم فضحه على يد (سليم فتوح) وزبانيته إلا أن هذا لم يجعله يُسَلِم نفسه لقمة سائغة لهؤلاء بل

على العكس زادت حِدَّة شراسته إلى درجة غير مسبوقة.. زادته قوة لم يعهدها في نفسه.. بل لم يتخيل حتى أن تكون لديه فالتحم معهم في صراع ميثاقه العنف والدم فجرح منهم مَن جرح وتلقى منهم الضربات الموجعة بصبر وثبات حتى زادت حِدَّة الوجع عما قد يحتمل فسقط بينهم متألمًا وقد نزفت دماؤه فحملوه حملًا إلى سيارة كانت تنتظرهم وساقوه كالذبيحة إلى جزارها.

كان الجزار في هذه اللحظة هو (سليم فتوح) الذي أول ما رآه أمامه حتى ابتسم في بطء ابتسامته القاسية المعهودة.. جالسًا خلف مكتبه على مقعده كسلطان على عرش لا يتزحزح يأمر فيطاع ومن حوله رجاله ينتظرون منه إشارة واحدة ليبدأ الاحتفال ويحظون بكل المرح إلا أن الأخير لم يعطهم الإشارة وكأنه بخبرته يزيد اشتياقهم للحظة كمَن يجوِّع الذئاب لتزداد شراستها في الفتك بفريستها بل على العكس من ذلك بدا (سليم) هادئًا لدرجة كبيرة وهو

يميل بجذعه للأمام مشبكًا أصابع كفيه أمام وجهه وهو يقول بصوت خرج منه باردًا كالثلج:

- طبعًا أنت تعلم لماذا أحضرناك إلى هنا.

تصنَّع (جابر) الجهل وإن بدت نظرة المقت جلية في عينيه وهو يقول:

- وكيف لي أن أعلم فرجالك لم يفعلوا شيئًا سوى أن هاجموني.

طقطق (سليم) بفمه في أسف مصطنع وهو ينظر لرجاله معاتبًا:

- ألم أقل لكم أيها الأغبياء أن تصطحبوا (محمود) باشا إلى هنا في أدب وتُكرموا وفادته كأحد كبار الزوار.

ثم خبط على سطح مكتبه مكملًا:

- هل يشرفنا في القسم شخص مهم مثله كل يوم.

ونظر إلى (جابر) قائلًا:

- اعذرني على هذا الخطأ غير المقصود ولكنهم ظنوا بالخطأ أني غاضب عليك فهم يحبونني كثيرًا هنا كما ترى.

- لماذا أنا هنا؟

سأل (جابر) في حذر منتظرًا الإجابة لتجاوبه ابتسامة ساخرة على وجه (سليم) الذي هز رأسه في أسف وهو يقول:

- لقد أغضبتني كثيرًا أيها الفتى.. حقًّا أغضبتني.

لم يكن قد أكمل جملته بعد حتى انهال الضرب عليه من كل المحيطين به وكأنهم كانوا ينتظرون هذه الإشارة بفارغ الصبر فتحررت شراستهم المكبوحة من عقالها لتنصب على جسده بكل قوتها وعنفها و(سليم) لا يزال جالسًا في مكانه يتابع ما يحدث وكأنه لا يعنيه من قريب أو من بعيد والابتسامة الساخرة مرتسمة على وجهه بينما (جابر) يتلقى الضربات والركلات ودماؤه تنزف في غزارة من جسده ومعها ينزف

كبرياؤه وكرامته قبل أن يكفُّوا عنه ويبتعدوا في وقت واحد وكأنهم مدربين على هذا أو أن هناك مَن يحركهم بعصا خفية.

لحظتها نهض السلطان من على عرشه واقترب منه في تؤدة ثم انحنى عليه يتطلع إلى الدماء التي تُغرق وجهه وملامحه التي شوهها الضرب المبرح فتورمت قبل أن يقول بنفس الهدوء:

- أتعلم ما أكثر شيء يضايقني أيها الفتى؟

لم ينتظر بالطبع إجابة لسؤاله فجاوب هو مكملًا:

- أن ينسى أمثالك منزلتهم ويتخيلون أنهم قد صاروا أندادًا لأسيادهم.

ظهرت أمارات الدهشة على وجه (جابر) المتورم وهو يتساءل من بين أسنانه وبصوت متحشرج:

- لا أفهم.

صرخ (سليم) في قوة:

- كف عن المراوغة أيها الأحمق وإياك أن تكذب عليَّ بعد الآن.. أم تظن أنني لا أعلم ما حدث منك تجاه سيدتك (درية).

ثم أشار بطرف عينه لرجاله فحملوا (جابر) على الوقوف عنوة قبل أن يعاجله بصفعة مدوية على وجهه وهو يصيح قائلًا:

- هذه من أجل رفع عينك في وجهها.

وصفعه الثانية وهو يكمل:

- وهذه من أجل محاولتك القذرة معها.

ثم ركله بمنتهى القوة أسفل بطنه فكادت عيناه أن تخرجا من محجريهما من فرط الألم وهو ينهي محاضرته قائلًا:

- وهذه حتى لا ترفع رأسك في وجه أسيادك مرة أخرى أيها الكلب.

ثم استعاد هدوءه مرة واحدة وعاد ليجلس خلف مكتبه قائلًا:

- لولا حكمة سيدتك وحُسن تقديرها لكانت أخبرت زوجها (شعبان) وكنت أنت الآن في عِداد الأموات ولكن حسنًا فعلت أنها أخبرتني أنا لأعرف كيف أؤدبك.

ثم أشار بسبابته في وجه (جابر) وهو يقول منذرًا:

- إكرامًا لخاطرها لن أُلقي بك في السجن أو أقطع عيشك من المقهى ولكنك ستخرج من هنا لتجثو عند قدميها طالبًا الصفح وأقسم أنني لن أرحمك حتى تخبرني هي أنها قد سامحتك.. هل تفهم؟

قالها في حزم غاضب وأشار إلى رجاله ناحية الباب فساقوا (جابر) الذي تهدم بالكامل إلى الخارج في الوقت الذي أشعل فيه (سليم) سيجارة وهو يغوص في ظهر مقعده منتشيًا.. وينفث دخان سيجارته في

استمتاع.. وبداخله يتصاعد الإحساس بالعظمة وأنه مِلكٌ متوجٌ تحققت له السيادة..

والسلطة المطلقة.

٧ ٧ ٧

الفصل الرابع عشر

أمام باب قسم الشرطة ألقوه كمَن يلقون خرقة بالية وعادوا إلى الداخل وكأن شيئًا لم يكن بينما حاول هو أن يلملم شتات نفسه ويجمع بقايا جسده الذي تضعضع من كثرة الضرب وأشلاء كرامته التي تبعثرت على يد (سليم) ورجاله بتوصية خاصة من (درية).. فتحامل على نفسه وسار مبتعدًا في بطء وهو يستند على الحائط بكلتا يديه بينما الأمطار لا تزال تنهمر في غزارة وبين اللحظة والأخرى تشق ألسنة البرق السماء قبل أن يدوي هزيم الرعد.. وكم من مرة سقط على الأرض وعانى للوقوف مجددًا وهو يتعذب من نظرات الناس إليه.. النظرات التي غلب عليها الفضول في البداية قبل أن تتحول إلى شفقة آلمته أكثر من آلام جسده حتى وصل إلى شاطئ البحر.. المكان الوحيد الذي أصبح ملاذًا يلجأ إليه كلما ناء بحِمل ثقيل أقوى من احتماله فسار مترنحًا حتى لامست قدماه مياه البحر الباردة وتوغل فيها بكامل ملابسه التي لوثتها الدماء ثم ألقى بحمل جسده كله داخل مياه البحر

المالحة وتركها تتغلغل في جسده.. تكوي جراحه وتدبل أحزانه وتغمره ببرودة لم تفلح في إطفاء نيران قلبه أو تهدئة دمائه الفائرة داخل عقله.. عقله الذي ظن في بداية الأمر أن ماضيه قد كُشف وأن ما يحدث له نتيجة لما فعله سابقًا وعليه الآن أن يسدد ثمنه كاملًا.. لكن لم يتخيل ساعتها ولو للحظة واحدة أن الأمر كله بتدبير من (درية).. تلك الحية الرقطاء التي عَلِمت جيدًا كيف تنتقم وكيف تُجبره على أن يحطم كرامته ويحني هامته.

قالتها له يومها ولم يستمع.. قالت له أنه سيدفع الثمن وها هو يدفعه.. قالت له أنها سيدته وها هو (سليم) وزبانيته يأتون اليوم ليؤكدوا له هذا الأمر وبطريقة لا يمكن نسيانها.. كان درسًا أرادوه أن يحفظه ومن أول مرة ولكن لا...

سيدفعون الثمن.. جميعهم سيدفعون الثمن..

سيعلمهم هو درسًا قاسيًا..

درسًا في الانتقام..

ومن بين الأمواج الثائرة وكأنها تشاركه ثورته انشقت المياه عن رأسه التي رفعها للسماء الممطرة وظلَّ يصرخ ويصرخ ومن خلفه تتردد أصداء صرخاته في الفضاء الواسع..

حتى كلَّت حنجرته.. وبُح صوته.

* * *

مع نسائم الفجر الأولى وقبل أن يرحل الليل ويسحب عباءته السوداء الحالكة عن الكون مفسحًا الطريق ومانحًا الفرصة لضوء النهار البهيج ليملأ الدنيا بنوره تحركت (زينات) ربما للمرة العاشرة هذه الليلة ناحية النافذة تتطلع عبرها إلى الشارع المظلم الخالي تمامًا من المارة وقد استبد بها القلق وعصفت الظنون بقلبها فهذه أول مرة يتأخر فيها (محمود) لهذا الوقت منذ أن سكن لديهم.. كان دائمًا يعود مع انتصاف الليل ونهاية عمله وبعد أن يُغلق المقهى لكن اليوم كان مختلفًا ليس لأنه تأخر على غير عادته فقط بل لأن قلبها كان يُنبِؤها

بأن هناك شيئًا على غير ما يرام.. سوء قد حاق به لا تدري كنهه لكنها تستشعره ومع ازدياد قلقها وتوترها وجدت نفسها تطرح عليها هذا السؤال..

ما سر كل هذا القلق والتوتر الذي ينتابها ولماذا؟

صحيح أن (محمود) إنسان شهم أنقذها من الاعتداء بل وعرَّض حياته للخطر من أجل حمايتها وصحيح أنها تشعر بميل له وكأن هناك ما يجذبها ناحيته لكن كل هذا لا يبرر هذا القلق الشديد الذي يجري في عروقها مجرى الدم.

إنها تحبه..

صدمتها الحقيقة التي كانت تحاول جاهدة وبكل قوتها نكرانها لكن نفسها عاندتها وخذلتها..

صارحها قلبها وأمَّن على هذا عقلها.. نعم هي تحبه بل تحبه بجنون رغم كل غموضه وعزلته هي تحبه.. رغم وحدته وفقره ونظرة الحزن في عينيه هي تحبه ولن تُخفي هذه الحقيقة لحظة واحدة بعد الآن.. ستعترف

له بكل مشاعرها وستبقى معه للنهاية تشاركه أفراحه وأحزانه.. ستتحمل فقره وضيق حاله رغم أحلامها الكبيرة في أن يكون رجلها فارسًا ثريًا يحقق لها كل ما تصبو إليه وكل ما حُرمت منه طيلة عمرها لكنها على استعداد الآن أن تتنازل عن كل هذا لتبقى بجواره تكافح معه ليحققا أحلامهما معًا.

عاهدت نفسها على أن تصارحه بما يجوب في قلبها عند عودته لكن القدر كان يُخفي لها أكثر مما يحتمل قلبها الغض فها هي تراه قادمًا ناحية المنزل وهو يسير مترنحًا يكاد يسقط على وجهه.. وبدون أن تشعر وجدت نفسها تندفع خارجة من بيتها تهرول عبر السلالم لتلقاه وهي وجلة.. بل وكتمت صرخة كادت تفلت منها حين طالعته وقد بدا كالأشباح بملامحه المتورمة والكدمات الزرقاء تملأ وجهه بينما ملابسه مبتلة عن آخرها وقد التصقت بجسده فاندفعت نحوه تسنده وتعينه على الدخول إلى غرفته إلا أنه دفعها بمنتهى القوة بعيدًا عنه دون أن ينطق بحرف واحد وأكمل طريقه ليدخل غرفته في صمت.

لم يكن من الممكن أن تتركه وهو في هذه الحالة.. كان ما يحركها هو الحب الذي تشعر به نحوه لذلك تغلبت عاطفتها على كبريائها فاندفعت خلفه وهي ملتاعة وقد هالها منظره لتجده جالسًا على حافة سريره وعيناه سارحتان تتطلعان إلى اللاشيء في وجوم فاقتربت منه وبحذر ربتت على كتفه متسائلة:

- ماذا جرى يا (محمود) ومَن فعل بك هذا؟

لم تتلق جوابًا وظلَّ على صمته وجموده كتمثال قدَّ من حجر فأحست بالألم يغزو قلبها لأنه يتألم بهذا الشكل وبحنان غامر تجاهه جعلها ترغب في أن تأخذه بين أحضانها ليسمح لنفسه ولو لمرة بأن يُخرج لها مكنون صدره ويبكي حتى يُفرغ انفعالاته فيستريح وتستريح معه.. ودون أن تشعر وجدت نفسها تجلس على ركبتيها أمامه وتأخذ رأسه بين راحتيها لتضمها إلى صدرها وتمسح على شعره المبتل في حنان وفاض قلبها بالسعادة حين شعرت به وهو يهدأ ويستكين داخل صدرها ويده ترتفع لتحيط بها وكأنها

تتشبث بها في قوة فتمتمت في خفوت وقد تغلبت على خجلها:

- أحبك يا (محمود).

اصطدم اعترافها بجدار من الكراهية أحاط بروحه.. صديد يجري في عروقه مجرى الدم..

قيح لوث كل شيء فيه..

تلقى هو تصريحها بقلب متحجر وعقل مغلق أشعلته الرغبة في الانتقام..

كان صوتها يتردد عبر أذنيه بنبرات أمه و(مادلين) و(درية).. صور متلاحقة تتراءى أمام عينيه توقد غضبه حتى تكاد تقتله..

صورة أمه وهي في أحضان عمه..

صورة (مادلين) وهي مع حبيبها أمام عينيه..

صورة (درية) وهي تصرخ في وجهه أنها سيدته وأنه لا بد سيدفع الثمن.

كلهن سواء.. (نعمة) مثل (مادلين) مثل (درية) مثل.. (زينات).

كلهن سيدفعن الثمن.

ودون أن يشعر وجد يديه تعتصران عنقها ككلابتين من فولاذ وعيناها متسعتان في ذهول وقد احتبس الصوت في حلقها فلم تقدر حتى على الصراخ وهي تحاول التملص من قبضته أو التشبث بأي شيء حولها في حركات لا إرادية محمومة ولكن دون جدوى فقد كانت يداه ثابتتان كالقدر.. ثقيلتان كالموت.. بينما تطالعها عيناه الميتتين ونظرة البغض التي أحرقته وأحرقتها وأحرقت معهما كل شيء وتدريجيًّا غامت الدنيا أمام عينيها وتداخلت الموجودات حولها حتى أظلمت تمامًا.

ظلَّ هو متمسكًا بعنقها يضغط عليها بمنتهى القوة ويكاد يجتثها من جذورها حتى بعد أن أسلمت الروح وهمدت حركتها وتراخى جسدها.. قبل أن يتركها مرة واحدة لتسقط أمامه على الأرض وهو ينظر لها في ثبات لمدة طويلة.. ثم تراخت أعصابه مرة واحدة فجلس على سريره وغطى وجهه براحتيه.. ودون إرادة منه تفجرت مشاعره كلها وشرع يبكي بكاءً شديدًا.

لم يكن يبكي على ما اقترفته يداه منذ لحظات بل يبكي طريقه الذي يراه مرسومًا أمامه كأوضح ما يكون.. طريق لا بد أن يقطعه حتى آخره رغم أنه يعلم جيدًا ما الذي ينتظره في نهاية هذا الطريق لكن لم يعد هناك خيار آخر..

ستكون نهايتهم أو نهايته..

لن يبقى طوال حياته شريدًا تائهًا يخشى الماضي..

لم يعد هناك مهرب.. لم يعد هناك مهرب..

ترددت الجملة داخل أذنيه مرة تلو الأخرى فردَّدها هو بصوت مسموع وكأنه يؤمِّن عليها:

- نعم لم يعد هناك مهرب.

ثم نهض من مكانه بعد أن استقر تفكيره على ما سيفعله وقد دبَّ النشاط في جسده مع خوفه وتدفق الأدرينالين في دمائه فسحب الجثة إلى ركن الغرفة ثم سار بخِفَّة على أطراف أصابعه إلى مدخل البيت وتحت السلالم المؤدية إلى الأدوار العليا بحث بعينه حتى وجد ضالته.. رفش كبير بين عديد من الأدوات المهملة والتي كان يستخدمها صاحب البيت والد (زينات) في البناء ثم أُلقيت في موضعها هذا منذ ذلك الحين.

التقطه وعاد إلى غرفته وأغلق الباب خلفه بحرص ثم فتح مزلاج الغرفة الأخرى الملحقة بغرفته.. والتي ظلَّت مغلقة على بعض الأشياء القديمة التي تحتفظ بها صاحبة المنزل منذ فترة طويلة.. كانت أرضية الغرفة لحُسن حظه ترابية كما هي فلم يحاول أحد أن

يضع عليها طبقة من البلاط يعاني هو من إزالته وإعادته لموضعه لذا دفن الرفش في الأرض بمنتهى القوة وبدأ الحفر.

استمر يحفر لمدة ساعة كاملة حتى سال عرقه بغزارة وتصاعد لهاثه المُجهَد لكنه عندما انتهى صنع حفرة كبيرة تناسب ما خطط له فخرج ثم عاد وهو يجر جثة (زينات) ليسقطها في الحفرة الكبيرة التي صنعها ولم ينس أن يجردها من بعض المصوغات الذهبية التي كانت ترتديها قبل أن يُلقي عليها النظرة الأخيرة ويُهيل عليها التراب من جديد حتى عادت الأرضية كما كانت.

تنفس الصعداء في ارتياح بعد أن أخفى معالم جريمته.. لم تكن جريمته الأولى ولن تكون الأخيرة ويبدو أن القدر لا يزال يخبئ له الكثير فهو قد هرب من بلدته ليتناسى جريمة فإذا به يحط الرحال حيث تنتظره جرائم أخرى أشد قسوة.. لم تكن الجريمة جريمته هو بل جريمة كل مَن ظلمه صغيرًا وكبيرًا.. جريمة كل مَن قسا على طفولته وحطم براءته..

جريمة كل مَن عبث بقلبه ومشاعره.. وهو لن يتسامح بعد الآن سيصرخ في وجوههم صرخة سيتردد صداها طويلًا.

صرخة يسمعها الجميع.

* * *

لم يمر غياب (زينات) على الجميع مر الكرام.. سادت حالة من التوتر الشديد عقب اختفائها وامتلأ المنزل عن آخره بنساء الحي اللواتي ظللن يواسين الحاجة (فردوس) ويطمئنَّها أن ابنتها بخير وأن (زينات) حتمًا عائدة وأنه على الأقل لا مكروه أصابها بدليل تركها للمنزل باختيارها.. وهناك مَن تساءلت عما إن كان هناك خلاف قد نشب بينهما أو عن رغبتها في الذهاب لمكان معين لكن الإجابات جاءت كلها بالنفي فحسب رواية الحاجة (فردوس) أنها دخلت لتنام تلك الليلة بينما ظلَّت (زينات) ساهرة لوقت متأخر وقد بدت متوترة.. حتى أنها سألتها إن كان هناك ما يقلقها فأجابت الأخيرة بالنفي وإن كانت ملامحها تُكَذِّب

قولها.. ثم هل يُعقل لمَن تريد ترك منزلها أن تغادر بدون أن تأخذ كل متعلقاتها وثيابها.. وإلى أين تذهب ومع مَن وهي منذ وفاة والدها تجلس مع أمها في المنزل لا ترى أحدًا ولا أحد يراها.

كانت الأسئلة كثيرة محيرة حتى بالنسبة لرجال الحي الذين بحثوا عنها في كل مكان إكرامًا لأمها ولذكرى والدها ولم يكن هناك بدٌّ في النهاية من تقديم بلاغ في القسم عن اختفائها لعل الشرطة تُوفَق فيما عجزوا هم عنه ولكن دون جدوى ومع الوقت تناسى الناس الأمر برمته وخفَّت الزيارات على المنزل وانفض الجميع من حول الحاجة (فردوس) باستثناء ابنتها الكبرى وبعض صديقاتها وأيضًا عم (سعيد) الذي ظلّ يتردد عليها للاطمئنان على صحتها التي تدهورت كثيرًا بعد اختفاء ابنتها.. خاصة مع الأقاويل الكثيرة التي تناقلتها الألسن عن هروب (زينات) مع عشيقها والإشاعات عن حملها منه مما دعاها لمغادرة الحي حتى لا يُفتضَح أمرها.

كل هذا و(جابر) ينتظر ويترقب.. كان يعلم جيدًا أن الأمر سيبدأ كعادة كل الأمور كبيرًا ثم سرعان ما يصغر تدريجيًّا مع انشغال الناس في أمور حياتهم فينزوي من الذاكرة حتى يصبح طي النسيان.. لقد سألوا الجميع عنها إلا هو وكأنه لا يعيش معهم في ذات المنزل بل وكأنه لم يوجد من الأساس وقد بحثوا عنها في كل مكان تقريبًا بينما هي تقبع أسفل أرضية غرفته التي أصبحت تعبقها رائحة البخور القوية.. البخور الذي اعتاد على إشعاله من فترة ليطرد روائح أخرى لا يريد لها الظهور حتى لا يفتضح أمره ومع مرور الوقت عاد الهدوء للمكان من جديد ومعه بدأ هو يفكر فيما هو قادم من أحداث وما سيحدث معه هو تحديدًا.

كان يتوقع هذه اللحظة وينتظرها.. حين ناداه (شعبان) وأخبره أن يذهب لشراء بعض الطلبات ويرسلها إلى المنزل عَلِم أن عقابه لم ينتهِ بعد وعليه الآن أن يقدم فروض الخضوع والطاعة لسيدته التي أحسنت تأديبه لذلك لم يعترض أو يحاول التملص بل

سار في استسلام كمَن يُساق إلى حتفه وعلى باب المنزل توقف للحظة قبل أن يطرقه ليصل إليه صوت خطواتها تقترب.. حين فتحت له كانت على وجهها ابتسامة ساخرة ونظرة متشفية رمقته بها قبل أن تترك له الباب مفتوحًا وتدخل ليدخل هو وراءها ويغلقه خلفه.

كانت تنتظر هذه اللحظة بشغف كي يكتمل لها نصرها لذلك تأنقت كعروس في ليلة عرسها فرآها تخلع روبًا ارتدته لحظة أن فتحت الباب ليطالعه جسدها البض وعليه قميص نوم أسود قصير لم يشاهدها به من قبل سارت به أمامه وهي تتمايل في إغراء لتجلس على مقعد في حجرة الجلوس واضعة ساقًا على ساق مبرزة جمال فخذيها تاركة له الفرصة ليقول ما يُفترض به قوله فتقدم هو ناحيتها متسائلًا:

- أما زلت غاضبة مني؟

قبل أن يركع على ركبتيه أمامها وهو يقول بلهجة أرادها أن تخرج منه متخاذلة واهنة:

- اسمعيني جيدًا.. لقد جئت إليك لأقدم اعتذاري وأرجو أن تسامحيني على فعلتي.

نظرت إليه دون أن تنطق فأردف قائلًا:

- صدقيني أنا لم أقصد كل ما قلته.. لقد كنت مستاء مما حدث لي معك تلك الليلة وكنت ثائرًا فلم أدر ماذا أقول ولم أعِ حرفًا مما تفوهت به وكل ما أريده الآن أن ننسى كل ما حدث ونبدأ من جديد وأعدك أن نظل سعداء سويًّا إلى الأبد.

اقتربت منه بوجهها ثم قالت في بطء وهي تتعمد الضغط على كل حرف تنطق به ليصل المعنى كاملًا له:

- لا تحاول خداعي يا (محمود).. لقد جئت اليوم لأنك خائف ولأن الدرس الذي أخذته لم تنسَه بعد ثم لا تنكر أنك على علاقة بابنة الخواجة رغم وعدك أنك ستكون لي.

رد بسرعة:

- أقسم لك أنا لست على علاقة بأحد.. لقد أرادت فقط أن أعمل مع والدها في الوكالة ولكنني رفضت وتركتها هي ووالدها.

ثم رق صوته قائلًا:

- من أجلك.

أشاحت بوجهها قائلة:

- لا أصدقك.

مال يطبع قُبلة على فخذها الناعم ثم تساءل في خبث:

- وكيف أجعلك تصدقين؟

لاح على ثغرها شبح ابتسامة جعلته يدرك أنه لعب على الوتر الصحيح وأصاب هدفه لديها فتشجع أن ينهض ويجذبها من يدها لتقف في مواجهته قبل أن يقول معيدًا جملته بصوت خافت:

- كيف أجعلك تصدقين؟

- اثبت لي حبك.

- سأُثبته ولكن الآن هناك ما هو أهم.

ثم ضمها إليه أكثر قائلًا:

- أوحشتني.

نظرت له في عتاب ثم قالت:

- وأنت أيضًا.

ابتسم وهو يسألها:

- حقًّا؟

لم ترد ولكن هزت رأسها إيجابًا وهي تطرق إلى الأرض فقال:

- إذن لنطفئ نار شوقنا.

قالها ثم مال ليحملها بين ذراعيه وسار بها إلى غرفة النوم التي أصبح يمقتها قدر مقته لصاحبتها وهناك قام بدوره على أكمل ما يكون.. دور العاشق المحموم الذي تتأجج بداخله الرغبة تجاه معشوقته وتضطرم فيطفئ لهيبها بين أحضانها.. وبعد أن انتهى وبعد أن همدت حركتهما إلا من صوت لهاث يتصاعد وعرق غزير يغمرهما قال وهو يتطلع إلى جسدها العاري بجانبه:

- أريد أن أبقى بجوارك للأبد.

ابتسمت في سعادة وهي تؤَمّن على كلامه قائلة:

- كم أتمنى.

قال في جدية:

- إذن لنحقق ما نتمناه.

نظرت له في تساؤل فتابع قائلًا في ضيق:

- إلى متى سنبقى على هذا الوضع.. نلتقي في الخفاء ونحسب الدقائق التي تجمعنا معًا بل ونخشى كل يوم أن يُفتَضَح أمرنا.. أي حياة تلك التي نحياها وأنت مع رجل لا تطيقينه وأنا أقف بعيدًا أنتظر.. أنتظر لحظة تجمعنا لا تجيء أبدًا.

- وماذا بيدنا لنفعله؟

تساءلت (درية) في حنق فأجابها هو بسرعة وهو ينهض من جانبها:

- بيدنا الكثير.

عادت تتساءل في حذر هذه المرة وكأنها قرأت ما يدور بخلد (جابر):

- ماذا تقصد؟

- أقصد ما فهمتِه بالضبط.

قالها في ثقة جعلتها تنظر له بدهشة كبيرة وقد ارتفع حاجباها عاليًا فتابع بتصميم أكبر قائلًا:

- نتخلص منه.

قالت في استنكار وهي تنهض بدورها لتواجهه:

- هل جننت؟

أجابها في حِدَّة:

- الجنون أن نبقى على ما نحن فيه.

وأمسكها من كتفيها بقوة وهو يردف قائلًا:

- الجنون أن تظلي بعيدةً عني.. الجنون أن تكوني لغيري.

قبل أن يُنهي تمامًا على تفكيرها ويشل إرادتها ويُوجه ضربة قاصمة إلى مقاومتها وهو يقول مكملًا:

- الجنون أن تتخلي عن حلم الأمومة من أجل رجل كهذا.

ثم احتواها بين ذراعيه وضمها إليه بقوة قائلًا:

- لن أسمح أن تغيبي عني لحظة واحدة بعد الآن.

ابتسمت في سعادة من كل هذا الحب الذي يغمرها به.. الحب الذي بحثت عنه طويلًا وأخيرًا وجدته بعد سنوات من الوحدة.. ينابيع تفجرت داخل قلبها وجرت في شرايينها لتروي جفاف وقحط أيامها.. كلماته كانت لها مفعول السحر.. كلماته عن أمومتها المفقودة وحرارته وهو ينطق بكل حرف جعلتها تحس إحساسًا مختلفًا تمامًا جعلها تقول لا شعوريًا وكأنها مسلوبة الإرادة بالكامل:

- سأظل معك للأبد وسأفعل كل ما تطلبه.

رفع وجهها ليُحدِّق مباشرة في عينيها قائلًا:

- أنا مَن سيفعل لكن عليك أن تنفذي ما سأقوله لك بمنتهى الدقة.

أومأت برأسها موافقة فاحتواها مجددًا بين ذراعيه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة واثقة..

ومن عينيه أطلّت نظرة ارتياح فمخططه يسير تمامًا كما أراد له.. وقريبًا سيحين وقت الحساب..

ويدفع الكل الثمن.

v v v

ساحر الكتب

الفصل الخامس عشر

في آخر الليل وبعد أن أنهى عمله.. يسير (جابر) وحيدًا عائدًا إلى مسكنه وقد خيَّم الظلام وخفَّت الحركة في الشوارع مع سوء حالة الجو والبرد الشديد الذي سرى بداخله لينخر في عظامه قبل أن يبدأ المطر في التساقط بغزارة في الوقت الذي كان يعبر فيه شريط السكة الحديد المواجهة لمنزله اختصارًا للمسافة فمضى في طريقه يرمق عربات القطارات المظلمة الساكنة في منطقة تخزينها التي يُطلق عليها منطقة المناورات كوحوش غافية تنتظر لحظة الاستيقاظ لتزأر في صخب.

حين اقترب من المنزل استقبلته الصرخات المندلعة من داخله فاندفع إلى الداخل بسرعة واعتلى درجات السلم عدوًا لتقابله الفتاة الصغيرة (انتصار) ابنة المريضة وهي تبكي فسألها:

- ما كل هذا الصراخ؟

أجابته من بين دموعها:

- أمي تتألم بشدة.

تركها مكانها ودخل إلى حيث قابلته الحاجة (فردوس) التي ما إن رأته حتى هتفت في لهفة:

- حمدًا لله.. لقد جئت في الوقت المناسب.

- ما الأمر؟

سألها فأجابت وهي تناوله ورقة مطوية قائلة:

- اذهب بسرعة إلى الصيدلية الكبيرة في الشارع الرئيسي ستجدها ما زالت ساهرة واطلب من الصيدلي هذا الدواء بسرعة كي..

قاطعها وهو يلتقط منها الروشتة قائلًا:

- أعلم.. أعلم.. فقد أخبرتني عنها (زينا)..

بتر عبارته بسرعة خاصة مع الامتقاع الشديد الذي صبغ وجه الحاجة (فردوس) حين ذكر اسم ابنتها المفقودة فتلعثم للحظة قبل أن يقول وهو يهرب بعينه بعيدًا عن وجهها:

- سأذهب حالًا.

قطع المسافة بين المنزل والشارع الرئيسي في خطوات سريعة حتى وصل إلى صيدلية الحياة.. أكبر صيدليات المنطقة والتي اعتادت أن تظل ساهرة لساعات متأخرة من الليل وفي رأسه كانت تختمر فكرة شيطانية..

ها هي فائدة أخرى تعود عليه من قتله ل(زينات)..

نعم كان لا بد ل(زينات) أن تموت وإلا فمن أين كان سيتحصل على مراده..

ما إن دخل حتى استقبله الصيدلي العجوز ذو الشعر الأشيب قائلًا:

- خيرًا.

أخرج (جابر) الروشتة المطوية من داخل جيبه بحرص وفردها أمام الصيدلي متسائلًا:

- هل لديك هذا الدواء؟

وضع الصيدلي العجوز نظارته الطبية فوق عينيه وقرَّب وجهه من الروشتة ليقرأ اسم الدواء واسم المريضة المدوَّن عليها قبل أن يُجيب قائلًا:

- بالطبع لدي.. إننى أحضره باستمرار للحاجة (سميحة).

ثم نظر إلى (جابر) في استغراب متسائلًا:

- ولكن مَن أنت؟!.. هذه أول مرة أراك فيها؟

- إنني أسكن معهم في ذات البيت واسمي (محمود).

تهلَّلت أسارير الصيدلي وهو يقول معتذرًا:

- سامحني يا (محمود) فقد اعتدت أن تأتي إلي ابنتها الصغيرة (انتصار) أو لو كانت الأجواء مثل هذه أو الوقت متأخر كانت تأتي إلي (زينات) ابنة الحاجة (فردوس) صاحبة البيت.

ثم استدار ليُحضر المخدر من على أحد الأرفف مكملًا:

- على العموم لقد تشرفت بمعرفتك.

ناوله قنينة صغيرة تحوي المخدر المطلوب فنقده (جابر) ثمنها واستدار ليخرج من الصيدلية قبل أن يتوقف للحظة ويعود إليه متسائلًا:

- ألا توجد طريقة أخرى لإعطاء هذا المخدر سوى عن طريق الحقن فالحاجة (سميحة) قد كلَّت من كثرة الإبر التي نحقنها بها.

ابتسم الصيدلي وهو يُجيبه قائلًا:

- من الممكن بالطبع أن يُوضَع المخدر في أي شيء لتشربه ولكن سيكون مفعوله أبطأ فالحقن أسرع

وسيلة للتخدير لأنه يسري في الدم مباشرة.

شكره (جابر) على المعلومة واستدار ليعود أدراجه إلى المنزل وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة ظفر واسعة فما أكده له الصيدلي سيخدمه بكل تأكيد في تنفيذ مخططه وربما سيسَهِل عليه الأمور كثيرًا.. عليه فقط أن يُحسن التدبير وأن يختار الوقت المناسب ليضرب ضربته.. وعليه قبل ذلك كله أن يتأكد من مفعول هذا المخدر.

عرج على غرفته فأفرغ كمية صغيرة من المخدر في كوب صغير لديه قبل أن يصعد إلى الطابق الأعلى ليعطي قنينة المخدر للحاجة (فردوس) التي تناولتها منه بسرعة وذهبت لتُعِد الحقنة لنجدة المريضة التي كانت لا تزال تصرخ من شدة الألم ويبدو أنها في غمار لهفتها قد نسيت استرجاع الروشتة الطبية التي احتفظ بها (جابر) في جيبه والذي تعمَّد هو الآخر ألا يلفت نظرها إليها ثم انسحب في هدوء عائدًا إلى غرفته.

أغلق الباب خلفه في إحكام وبدّل ملابسه ولم ينس إشعال كمية من البخور لتبديد الرائحة التي بات يحرص على إخفائها.. ثم أعد لنفسه كوبًا من الشاي بعد أن أضاف إليه كمية المخدر التي استبقاها لنفسه وشربه على عجل ثم فرد جسده على سريره الصغير وطفق ينتظر..

لم يدر كيف ولا متى غاب عنه وعيه.. لقد أحس به ينسحب تدريجيًا قبل أن يتلاشى تمامًا وفجأة وجد نفسه هناك.. في بيته القديم.

كان يقف مذعورًا على باب غرفة أبيه الذي بدا مريضًا بشدة وعلى طرف الفراش يجلس عمه وكأنه يساند بمنتهى العطف والحب أخاه في مرضه ورأى أمه تُشعل مزيدًا من البخور الذي تسلّلت رائحته الذكية إلى أنفه وهو واقف في مكانه وهي تُعد شيئًا ما لأبيه ليشربه ورآها تضيف شيئًا آخر من قنينة صغيرة تشبه القنينة التي حمل هو فيها المخدر من الصيدلية وتضع الكوب على صينية صغيرة وتدخل بها إلى والده الذي

تحامل على نفسه كي يعتدل في سريره وهي تناوله الكوب وتحرص على أن يشربه كاملًا.

أراد أن يصرخ ويحذر أباه من مغبة شرب هذا الشيء.. أراد أن يطيح به من يده قبل أن يشربه وأن يُخبره عن خيانة زوجته وأخيه ومخططهم للخلاص منه لكن الصرخة احتبست في حلقه فلم تخرج ولم يسمعها أحد غيره.. ثوان وبدأ المخدر عمله ورأى والده يغيب عن وعيه ورأسه تميل على وسادته وقد فقد الإحساس بكل ما حوله.. ورأى أيضًا ابتسامة الظفر الواسعة التي ارتسمت على وجه كل من أمه وعمه والأخير يوجه نظرته الحاقدة إليه وهو لا يزال واقفًا في مكانه بجوار الباب ثم بصوت حمل كل المقت قال:

- هيا ساعدنا لندفنه.

اتسعت عيناه في ذعر وخرج صوته ضعيفًا مبحوحًا وهو يقول:

- لكنه لم يمت.

نطقها فارتطمت عيناه بزوجين من الأعين تحملان نظرات غاضبة كارهة وعمه يرد قائلًا:

- سندفنه حيًّا.

صاح في وجل:

- لا.. هذا لن يكون.. لن يكون.

صرخ عمه في وجهه بشراسة قائلًا:

- اخرس.

ثم أكمل بنفس النبرة قائلًا:

- نفذ ما أمرتك به أو ندفنك معه.

انسابت دموعه من عينيه لتغرق وجهه الصغير.. دموع القهر والعجز اللذين لازماه طوال حياته وبخطى بطيئة سار ناحيتهم وهو يلعن نفسه مع كل خطوة يخطوها ثم تعاون ثلاثتهم على حمل جسد والده الغائب عن وعيه تمامًا وساروا به إلى ساحة الدار التي حوت

حفرة كبيرة أعدوها خصيصًا لهذا الغرض وهمُّوا بإلقائه بداخلها ولكن فجأة اتسعت عينا والده عن آخرها وامتدت يده لتمسك (جابر) من تلابيب جلبابه وهو يشهق في قوة..

ومعه شهق (جابر).. شهق وهو ينهض من فراشه مذعورًا ليجد نفسه في غرفته التي سادها الظلام.. ورائحة البخور الذي أشعله.. والتي صاحبته في كابوسه الرهيب لا زالت تفعم أنفاسه فمد يده يمسح وجهه الغارق في دموعه.. الذي اكتشف أنه ذرفها أثناء نومه وانخرط في بكاء حار بعد أن أعاد له الكابوس كل ذكرياته المريعة التي عاشها دفعة واحدة.. بل لقد زاد الكابوس من همومه همًّا على هم وانتقى له مشهدًا أشد قسوة من واقعه.. مشهد أعاد له كل ذكرياته التي جاهد لكي ينساها ومن ضمنها ذكرى ضعفه وتخاذله اللذين يجثمان على صدره كحجر صوان لم يفلح انتقامه في أن يزيحه من على كاهله حتى الآن.

لكنه بعد أن هدأت نفسه.. وبعد أن كرر قسمه في داخله.. وعاهد نفسه مجددًا على أن ينتقم من كل

خائن وخائنة وأن يزيحهم من على وجه الأرض..

وجدت الابتسامة طريقها إلى شفتيه..

ابتسامة كانت تحمل له ولكل مَن حوله الكثير.

* * *

ابتسم (جابر) ابتسامة رسمية طبعها على وجهه لحظة لقائه مع (مادلين) التي نزعت من على وجهها غطاء التصنع فكشفت عن وجه آخر لا مكان فيه للعاطفة أو التودد وكأنها قد حسمت أمرها نهائيًّا بالابتعاد عن (جابر) حتى لو أدى ذلك لإفساد أعمال والدها.. الذي سعى بشتى الطرق لإثنائها عن قرارها هذا دون جدوى.

كان اللقاء على باب الوكالة حيث قابلها أثناء خروجها من هناك.. كتم بداخله مشاعر البغض التي تملكته عند مرآها وقد خُيل إليه في البداية أن يندفع نحوها ليعتصر رقبتها الجميلة بين يديه ويشاهدها ترتجف ذعرًا وألمًا وهي تنزف حياتها لآخر قطرة لكنه وارى

خواطره خلف قناع من الهدوء وهو يرسم تلك الابتسامة على وجهه ويقول:

- (مادلين).. كيف حالك؟

أجابته (مادلين) التي بدت غير سعيدة لرؤيته:

- بخير حال يا (محمود).

ثم همَّت بالانصراف على عجل وهي تغمغم:

- والدي ينتظرك بالداخل.

استوقفها قائلًا:

- (مادلين) أريد أن أتحدث معك.

- ليس الآن يا (محمود).. ربما في وقت آخر.

همَّت بالانصراف مجددًا لكنه أمسك يدها ليستبقيها قائلًا:

- تغيرت كثيرًا يا (مادلين).. ماذا فعلت لتعامليني بهذه الطريقة؟

أشاحت بوجهها بعيدًا في ضجر وهي تُجيب:

- لا شيء يا (محمود).. لا شيء.

- إذن لماذا تغيرت معاملتك لي بهذا الشكل؟

هنا فقدت كل قدرة لها على الصبر وهي تجذب يدها من يده في عنف قائلة:

- اسمعني جيدًا يا (محمود) قد يكون كلامي عسير الفهم عليك بعض الشيء لكن لا بد أن أقوله لك.

تطلع لها منتظرًا فالتقطت نفسًا عميقًا وهي تقول مردفة:

- هناك الكثير من الاختلافات بيني وبينك.. اختلافات في كل شيء تقريبًا ومعها لن نكون سعداء أبدًا فأنا وأنت من عالمين مختلفين لذلك لا بد وأن نضع نهاية

لكل هذا حتى لو كانت نهاية صعبة أو مؤلمة لنا نحن الاثنين لكن لا بد منها.. هل تفهمني؟

ظلَّ (جابر) يتطلع إلى عينيها التي طالما سحرته في بطء شديد وقال ضاغطًا على كل حرف من حروف كلماته:

- الآن تحدثيني عن الاختلافات يا (مادلين).. بعد كل ما فعلته من أجلك.. بعد أن عرضت حياتي للخطر أكثر من مرة وتحملت مسئولية كل شيء من أجل سعادتك ومن أجل رضا والدك دون أن أحصل على أي مقابل ودون أن..

رفعت يدها أمام وجهه لتُسكِته وهي تقول في صرامة:

- هذا شأنك معه ولن يكون لي أي دور فيه بعد الآن.. بإمكانك الاستمرار وتحصل منه على الترضية التي تناسبك أو تنسحب وتنسى الأمر برمته.

ابتسم في سخرية وهو يقول:

- أنسى!.

ثم قرَّب وجهه من وجهها مردفًا:

- النسيان دواء العاجز وأنا أعدك أني لن أكون ضعيفًا أو عاجزًا أمامك بعد اليوم.

قالها وانسحب من أمامها إلى داخل الوكالة تاركًا إياها تنظر إليه في رهبة..

نعم رهبة شديدة تسلَّلت إلى داخل قلبها ورجفته بقوة.. فقد كان وقع كلماته وطريقة نطقه بها التي تقطر تصميمًا لم تعهده فيه من قبل يجعلانها تشعر أن الأمور لن تسير على خير أبدًا.. وأن الخلاص من هذا المعتوه لن يكون سهلًا.

في داخل الوكالة استقبله الخواجة (استيفانوس) في ترحاب شديد فقد كان يخشى أن يخسره الآن لأي سبب ثم انتحى به جانبًا في مكان لا يسمعهما فيه أحد ثم قال هامسًا:

- اليوم ستصل شحنة جديدة.

ابتسم (جابر) في ثقة قائلًا:

- عظيم.. سأخبر السائق ليجهز العربة الليلة.

رفع (استيفانوس) أصبعه محذرًا وهو يقول:

- (محمود) كن على حذر فالموظف الذي نتعامل معه يؤكد أنهم يدققون في الإجراءات الأمنية هذه الأيام ويرصدون كل شاردة وواردة على مدار اليوم وبالتحديد بعد حالات التهريب المتكررة التي انتشرت هذه الأيام خاصةً بين اليهود.

هز (جابر) رأسه مطمئنًا وأتبعها بقوله:

- اطمئن سيكون كل شيء على ما يرام.

مد (استيفانوس) يده داخل درج مكتبه والتقط مفاتيح المخزن ناولها له ومعها مظروفًا مغلقًا ألقاه أمامه على المكتب عرف (جابر) أن بداخله المبلغ

المتفق عليه والذي سيدفعه للموظف في الميناء نظير إخراج الشحنة.. وزنه بيده فوجد به مبلغًا محترمًا ولاحظ (استيفانوس) حركته فقال بسرعة:

- هذه المرة سيكون لك مبلغ كبير يا (محمود).. أعدك بهذا بعد أن تُحضر البضاعة إلى المخزن.

هز (جابر) رأسه بينما عيناه معلقتان بفتاحة خطابات موضوعة أمامه على المكتب ولم يعلق فآخر شيء يريده من هذه العائلة الآن هو المال.. إنه يريد شيئًا أكثر أهمية بالنسبة إليه.. يريد الانتقام من (مادلين).

عرج قبل عودته إلى المقهى على أحد محلات صناعة المفاتيح وفعل الشيء الذي لم يفكر في فعله قبل الآن وهو أن يصنع نسخته المقلدة من مفاتيح المخزن.

كانت الخطة تختمر في ذهنه فأصبحت كالقطار الذي انطلق ولا سبيل لإيقافه ولا مناص من أن يدهس الجميع في طريقه.. الجميع بلا استثناء.

انتهى من صنع نسخته من المفاتيح فعاد إلى المقهى ولم يجد المعلم (شعبان) في انتظاره وحين سأل عليه أخبروه أنه يستقبل ضيفًا آتٍ إليه من محطة القطار فانهمك في عمله لفترة حتى انتبه على صوت ضحكات المعلم (شعبان) الصاخبة وهو يتسامر مع ضيفه على باب المقهى.. ضيفه الذي كان شاردًا مشغولًا عن مبادلته المزاح والذي ظلَّ يحملق في (جابر) بعينين مفتوحتين حتى تلاقت عيناهما.. ضيفه الذي ميَّز فيه (جابر) شخصًا يعرفه جيدًا..

(طلبة) صديق عمه.

* * *

تسمر (جابر) في مكانه.. وتصاعدت أنفاسه حتى وصلت إلى حد اللهاث.. مع ارتفاع صوت ضربات قلبه التي كانت تدوي كالطبل في أذنيه وهو يُحدِّق في عيني (طلبة) ولم يقطع تلك اللحظة إلا صوت (شعبان) وهو يقول:

- أحضر لنا الشاي ورص لنا حجرين فسنجلس بالخارج في الهواء.

قالها وجذب (طلبة) بيده في رفق ليجلسا على أحد الموائد الموضوعة على الرصيف المواجه للمقهى بينما عينا (طلبة) لم تفارقا (جابر) لحظة واحدة حتى وهو يجلس بجانب (شعبان) الذي انتبه لشرود صاحبه فسأله قائلًا:

- ما لي أراك واجمًا هكذا؟

بادل (طلبة) سؤاله بسؤال:

- مَن هذا الشاب؟

نظر (شعبان) إلى داخل المقهى وقد فهم أنه يقصد (جابر) الذي تشاغل بإعداد الطلبات حتى يبتعد عن مجال عيني (طلبة) الثاقبتين اللتين تكادان تخترقان صدره لتعرفا مكنون قلبه وما يُخفيه وقال:

- إنه شاب مسكين من الصعيد أحضره لي أحد معارفي ليعمل لدي فلم أستطع أن أرد له طلبه.

عاد (طلبة) يسأل:

- وماذا تعرف عنه؟

أجاب (شعبان) وقد اندهش من كثرة أسئلة صاحبه واهتمامه الشديد وقال:

- لا أعرف الكثير سوى أنه شاب يتيم ضاقت به الحياة في بلده فأتى إلى الإسكندرية ليعمل ويشق طريقه في مكان جديد.

- ومن أين هو؟

- قلت لك إنه من الصعيد.

قال (طلبة) في عصبية:

- أعلم أنه من الصعيد ولكن من أي محافظة في الصعيد؟

قلَّب (شعبان) كفيه في حيرة وقد تفاجأ هو نفسه بأنه يعرف أقل القليل عمَّن يعمل لديه وقال:

- حقيقة لا أدري.

- وما اسمه؟

- اسمه (محمود).

في تلك الأثناء كان (جابر) يتقدم ناحيتهم ويضع صينية الشاي على المائدة بينما عينا (طلبة) ما زالت مثبتة عليه ولم ينتظر أكثر فبادر قائلًا:

- سمعت أنك من الصعيد يا (محمود).

هز (جابر) رأسه أن نعم فسأله (طلبة) قائلًا:

- من أي مكان في الصعيد؟

أجابه (جابر) على الفور وقد توقع هذا السؤال وجهز إجابته قائلًا:

- من المنيا.. مركز بني مزار.

عاد (طلبة) يسأل فى إلحاح:

- من أي عائلة في بني مزار؟

ارتج على (جابر) للحظة ولم يعرف بما يُجيب لكن المعلم (شعبان) أنقذه حين أجاب هو نيابة عنه قائلًا:

- لا تحاول فلن يخبرك الحقيقة أبدًا فربما كان لديه ثأر في بلده يخشى معه أن يعرف أحد مَن هو ومن أي عائلة.

ثم ضحك مبدًا كآبة الموقف وهو يُكمل قائلًا:

- يبدو أن جميع الصعايدة لديهم ثأر في مكان ما.. أليس كذلك؟

ثم أشار إلى (جابر) قائلًا:

- اذهب أنت الآن يا (محمود) وسأناديك عندما أحتاجك.

همَّ (جابر) بالانصراف لولا أن استوقفه (طلبة) بسؤال أخير قائلًا:

- من أين جاءتك هذه الندبة يا (محمود)؟

تحسس (جابر) الندبة التي تزيِّن جبينه وقال وهو يداريها بيده:

- إنها أثر جرح قديم من أيام الطفولة.. جرحت عندما كنت ألعب مع أصدقائي.

قالها وانصرف ليغيب عن بصرهما داخل المقهى تاركًا (طلبة) خلفه شاردًا تمامًا حتى عن حديث (شعبان) وقد ضيَّق عينيه.. وغرق في تفكير عميق.

٧ ٧ ٧

الفصل السادس عشر

كانت الأمور تتضح أمامه الآن وكلها تؤدي إلى معنى واحد.. إنها النهاية إذن.. كل الظروف تُعاكسه وتقف في طريقه وها هو الآن على وشك افتضاح أمره إن لم يكن قد فُضح بالفعل.. ما حدث اليوم يؤكد ذلك.. وهو يعلم جيدًا أن (طلبة) لا بد وقد تعرَّف عليه ليس لديه شك في هذا.. عليه أن يتصرف بسرعة.. عليه أن يبتعد قدر الإمكان.. عليه أن يختفي بلا أثر ويظهر في مكان جديد باسم جديد وقصة جديدة.

هكذا فكر (جابر) وهو يُسرع إلى مسكنه ليلملم حاجياته ويغادر هذا المكان نهائيًا بلا رجعة.. صحيح أنه وضع خططًا كثيرة للانتقام لم يكن من ضمنها الهروب.. صحيح أن يديه تلوثت بالدم في سبيل هذا لكن الأقدار كانت لها شأن آخر.

قطع أفكاره صوت طرق على الباب فتوجس.. ترك ما في يده واقترب من الباب وبصوت مرتجف صاح:

- مَن؟

أجابه صوت خشي كثيرًا في تلك اللحظة أن يسمعه:

- (طلبة).

فتح الباب في حذر فطالعه وجه (طلبة) وقد ارتسمت عليه ابتسامة قاسية فتساءل (جابر) وهو لا يزال يسد الباب بجسده:

- خيرًا يا معلم.

- ألن تدعوني للدخول؟

قالها (طلبة) وهو يتطلع إلى ما خلف (جابر) فأفسح له هذا الأخير الطريق وهو يقول في استسلام:

- تفضل.

خطا (طلبة) إلى الداخل وهو يتطلع فيما حوله ثم جلس على أقرب مقعد قابله ليقول مبتدئًا الحوار:

- طبعًا أنت تسأل نفسك عن سبب زيارتي لك الآن.

غمغم (جابر) في خفوت:

- أنت على الرحب والسعة.

حدَّجه (طلبة) بعينه للحظة قبل أن يبدأ هجومه قائلًا:

- يبدو لي أنك تُخفي وراءك أسرارًا كثيرة أيها الشاب.

زوى (جابر) ما بين حاجبيه وهو يقول في استنكار زائف:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن لديك ما يُثقل كاهلك ويجعلك دائمًا تتلفت حولك وتعيش كما يعيش كل مَن يخشى الماضي.

ارتج على (جابر) من جرَّاء هذا الهجوم وحاول أن يعقب لولا أن (طلبة) لوَّح بيده في وجه (جابر) مكملًا:

- لا تحاول الإنكار يا فتى فقد كانت ملامحك تفضح خوفك عندما قابلتني لأول مرة في المقهى.

رد (جابر) بصوت حمَل كل توتره وإن حاول جعله أكثر صلابة قائلًا:

- ما زلت لا أفهم ماذا تحاول أن تقوله لي.

- أتعلم أنك تشبه كثيرًا أحد أبناء قريتي.

رفع (جابر) حاجبيه في دهشة مصطنعة قائلًا:

- أنا؟!

أكمل (طلبة) وكأنه لم يسمعه قائلًا:

- وهذا الشاب هرب من القرية بعد أن قتل بدم بارد أقرب الناس إليه.. أمه وعمه وإخوته.. لم يترك أحدًا منهم على قيد الحياة.

ثم تساءل في خبث:

- برأيك ما الذي دفعه لفعل هذه الجريمة البشعة؟

كانت دماء (جابر) تغلي في هذه اللحظة لكنه حاول التماسك قائلًا:

- لا أدري ربما وجد منهم ما دفعه إلى كل هذا.

- لدرجة أن يقتلهم جميعًا حتى الأطفال!.

رد (جابر) بصوت يقطر حقدًا:

- القسوة تولِّد القسوة وحيث الموت لا تنبت حياة.

هز (طلبة) رأسه في تفهم قائلًا:

- معك حق فيقال أن هذا الفتى كان يُجبَر على مشاهدة أمه وهي تضاجع عمه أمام عينيه قبل وبعد مقتل والده.. الذي كان ضعيفًا وتركه ليقاسي وحده كل هذه الأهوال ثم إن..

- كفى.

انطلقت صيحة (جابر) لتُخرسه فابتسم في ظفر وقال في انتصار:

- لِم كل هذه العصبية يا (محمود).. أتراك تأثرت بالحكاية لهذه الدرجة.

ثم انقلبت ملامحه دفعة واحدة مكملًا:

- أم تراها حكايتك أنت.

ثم مال إلى الأمام قائلًا في صرامة:

- أليس كذلك يا... (جابر)؟

كانت الأمور قد وصلت إلى مرحلة أقوى من أي إنكار لا طائل من ورائه فتساءل (جابر) في استسلام:

- ماذا تريد؟

التمعت عينا (طلبة) في جشع وهو يقول:

- الأرض.

حدَّق فيه (جابر) مبهوتًا وردد خلفه وكأنه لا يعي ما يقول:

- الأرض؟!.

قال (طلبة) في صرامة:

- نعم يا (جابر) الأرض.. أرض آل وهدان التي تركتموها جميعًا فأصبحت أقرب إلى البوار ومرتعًا لكل مَن هب ودب يضع يده عليها.

قال (جابر) مدافعًا:

- ولكنها أرضي وأرض أبي.

قال (طلبة) في شراسة:

- أرضك التي لن تراها مجددًا ما حييت لم تعد لك ولن تعود لها لأنك لو فكرت في الاقتراب من القرية سيكون الإعدام مصيرك وأنت تعلم هذا.

تساءل (جابر) في حذر:

- وما الذي يضمن سلامتي حتى لو تنازلت لك عن الأرض؟

أكمل (طلبة) بنفس الشراسة:

- لا ضمانات.

ثم تمالك أعصابه ليقول مكملًا:

- أنت تعلم هذا وأنا أعلمه فلا داعي لإضاعة المزيد من الوقت.. أنت ستتنازل لي رسميًا عن الأرض بعقد مُوثق وأنا سأتناسى أني رأيتك في يوم من الأيام.. ها فما قولك.

كان في هذه اللحظة (جابر) يلهث بقوة من فرط الغضب وقد ارتكز بيديه على المنضدة مُعطيًا ظهره ل(طلبة) ثم هدأ قليلًا وزفر في حنق قائلًا:

- للأسف أنت لم تترك لي الخيار.

تصاعدت ابتسامة (طلبة) الواثقة وهمَّ بقول شيء ما إلا أن (جابر) قاطعه دون أن يراه قائلًا:

- لكن عليك أن تعدني بشيء.

قال (طلبة) متسائلًا:

- وما هو؟

التفت له (جابر) وهو يُجيب قائلًا:

- أن تنساني للأبد.. لا أنا رأيتك ولا أنت رأيتني.

- لك ما تريد.

مد (جابر) يده نحوه ليصافحه فنظر (طلبة) لها للحظة في شك قبل أن يمد يده هو الآخر مصافحًا.. عندها لم يدر ماذا حدث.. لم يدر متى ارتفعت يد (جابر) الأخرى ولا متى هبطت بمنتهى القوة لتغرس المحقن حتى آخره في رقبته ويُفرغه فيها بمنتهى الثبات.. المحقن الذي أعده بصبر وهو مُولٍ له ظهره.. ولا متى

اندفع نحوه ليُسقطه على الفراش ويشل حركته وهو يُكمم فمه بيده..

كل ما شعر به (طلبة) في لحظة واحدة هو أن وعيه ينساب بعيدًا عنه كما يتسرب الدم من وريد مقطوع إلى غير رجعة فحاول جاهدًا أن يتملص من مُقيده.. حاول بكل قوته ولم يُفلح.. حاول حتى أن يصرخ علَّ أحدهم يسمع صرخته فيكون في هذا نجاته لكن لم يستجب أحد لأن صرخاته لم تنطلق من الأساس فالأمور كانت أسرع حتى من خاطره فغاب كليًّا عن الوعي بينما (جابر) لا يزال مكممًا فمه بكل قوته حتى تأكد أنه هامد تمامًا بلا حراك عندها وعندها فقط تركه دفعة واحدة ونهض من فوقه وهو يرمقه بنظرة جمعت بين البغض والتشفي

لقد استحق ما حل به وما سيحل عليه الآن ليس لأنه هدده أو ابتزه فقط بل لأنه يستحق هذا منذ سنين طويلة عندما خطط ودبر لعمه كيفية الخلاص من أبيه وهو الآن سيرد الدين..

سيرد الصاع صاعين وسُيكمل ما بدأه ولن يوقفه أحد.

وقف يلتقط أنفاسه بعض الوقت ثم اعتلى (طلبة) الغارق في سبات عميق واعتصر رقبته بلا رحمة حتى تأكد تمامًا أنه قد انقطعت أنفاسه نهائيًا ثم وكما في المرة السابقة أشعل الكثير من البخور وأحضر أدوات الحفر وبدأ في مراسم الدفن التي لا يحضرها غيره.

استغرق الأمر منه ساعة أو أكثر قليلًا حتى كان (طلبة) يجاور (زينات) في قبرها عندها جفف (جابر) عرقه واستعد لمهمته الليلية التي سيكون لها هذه المرة طابعًا مختلفًا..

طابع الموت.

* * *

كان الأمر بالفعل كما توقعه الخواجة (استيفانوس).. هناك الكثير من الإجراءات الأمنية والمراقبة وتدقيق في كل شيء.. أعصاب مشدودة وحراس متوترون فكانت هناك حراسة على المخارج والمداخل وتحفز

تجاه أي سيارة تدخل أو تخرج لكنه برغم كل هذا كان مستعدًا وقد نسَّق مع الموظف المسئول واتفق معه على كل شيء فتم تغيير مكان البضاعة حيث نُقلت في وقت سابق من مخازنها إلى مخازن أخرى تُخزَّن فيها البضائع التالفة التي تنتظر أن يتم إعدامها كما تم تغيير مكان اللقاء حيث دخلت السيارة من أحد البوابات الجانبية التي كانت حراستها أخف وطأة من البوابات الرئيسية وانتظروا حتى ميعاد تبديل نوبة الحراسة ليكون التركيز في أدنى درجاته وعندها تم تحميل السيارة.

كانت مخاطرة كبيرة والقيام بها يحتاج إلى جرأة حقيقية لكن (جابر) لم يتردد كثيرًا في القيام بها.. ليس حبًّا في (استيفانوس) ولا ابنته ولا حتى طمعًا في المكافأة التي وعده بها بل كانت مجازفته لهدف أكبر من هذا بكثير.. كانت مجازفته ليسترد حقه كاملًا وفصلًا جديدًا من فصول انتقامه لذلك تحمل كل هذا الخطر حتى خرجت السيارة بحملها وابتعدت عن محيط الميناء حتى أصبحت في الأمان عندها أمر

السائق أن يُغير خط سيره المعتاد وسط دهشة هذا الأخير إلا أنه لم يجد مناصًا من طاعة (جابر) فاتجه بالسيارة إلى خارج المدينة وهناك أمره (جابر) بالتوقف حيث كانت بانتظارهما سيارة أخرى تماثل سيارتهم تمامًا فتم نقل البضائع كلها إلى السيارة الأخرى ثم نقد (جابر) السائق أجرته قبل أن يأمره بالرحيل ونسيان كل ما حدث هذه الليلة.

كان الأمر غريبًا وغير معتاد لكنه كان الطُعم الذي سيجذبهم جميعًا إليه لذلك تعمَّد أن يمر على الخواجة (استيفانوس) في منزله.. انطلق من فوره إلى منزل الأخير الذي كان ينتظره على أحر من الجمر فتح له الباب واستقبله واللهفة واضحة في عينيه فابتسم (جابر) ابتسامة خفيفة ودلف إلى الداخل حيث عاجله (استيفانوس) بالسؤال وقد بلغ منه الصبر مبلغه:

- ها.. ماذا حدث؟

أخرج (جابر) مفاتيح المخزن من جيبه وناولها له وهو يقول بثقة:

- اطمئن.

عاد (استيفانوس) يسأل:

- هل استلمت الشحنة؟

جلس (جابر) على أقرب مقعد ولم يرد فأعاد (استيفانوس) السؤال مرة أخرى قائلًا:

- (محمود).. هل استلمت الشحنة؟

نظر له (جابر) في دهشة مصطنعة وهو يُجيب على سؤاله بسؤال قائلًا:

- أي شحنة؟

صاح (استيفانوس) بانفعال:

- ماذا دهاك يا (محمود) هل تتلاعب بي.. أسألك عن الشحنة هل استلمتها أم ماذا؟

أجاب (جابر) وهو يتطلع فيه في برود:

- وما شأنك أنت بهذه الشحنة؟

اتسعت عينا (استيفانوس) في ذهول وهو يقول:

- ما شأني؟!

قال (جابر) بنفس البرود:

- نعم ما شأنك.. هذه الشحنة من حقي أنا.. أنا مَن خاطرت من أجلها لذلك هي حقي وتعويضي عن كل مكاسبك السابقة التي كنت أنا سببًا فيها.

تحوَّل صياح (استيفانوس) إلى صراخ وهو يقول:

- أي حق وأي تعويض.. أنت تسرقني بمنتهى الصفاقة وتسميها تعويضًا.

- قل ما شئت لكن هذا لن يغير من الأمر شيئًا.. لقد حصلت على حقي وانتهى الأمر ولا أعتقد أننا سنتعاون مع بعض مرة أخرى.

اندفع (استيفانوس) نحو (جابر) وجذبه من ياقة قميصه وهو يصرخ في هياج:

- أيها الوغد.. أيها الحقير.. أتظن أنك تستطيع سرقتي أنا.. سرقة (استيفانوس).. أقسم أن أجعلك تدفع ثمن ما فعلته غاليًا.. سأجعلك تندم على أنك جئت إلى هذه الدنيا من الأساس وستعيد كل مليم سرقته مني رغم أنفك.. هل تفهم؟

في هذه اللحظة دارت مفاتيح في ثقب الباب ودخلت (مادلين) لتجد أباها يُمسك بتلابيب (جابر) بمنتهى العنف وقد أوشك وجهه على الانفجار من فرط الانفعال فصاحت في جزع:

- رباه.. ماذا يحدث؟

نظر لها (جابر) ولم يعقب فصرخ (استيفانوس) قائلًا:

- هذا الحقير.. سرق الشحنة وباعها لحسابه ويزعم الآن أنها من حقه.. أتتخيلين أنه أصبح لهذا الوغد حقوق.

أمسك (جابر) يدي (استيفانوس) ودفعه بعيدًا عنه بمنتهى القوة وقال في ثبات:

- اسمعني جيدًا أيها العجوز المخرف بإمكانك أن تسبني حتى الصباح لكنك لن تحصل مني على شيء.. الشحنة معي وأنا وحدي الذي أعرف مكانها ولن تطال منها شيئًا مهما فعلت لذا عليك القبول بالأمر الواقع ولا تحاول إثارة المشاكل معي وإلا فأنت مَن سيندم على يوم مجيئه إلى هذه الدنيا فأنا قد ندمت منذ زمن بعيد جدًّا أبعد مما تتخيل.

قال جملته واندفع يغادر المنزل وسط صراخ (استيفانوس) وتهديداته ونظرات (مادلين) الذاهلة بينما على وجهه هو ارتسمت بسمة تشفٍّ وانتصار وجدت طريقها أخيرًا إلى شفتيه.

* * *

على مقعد في مواجهة باب المنزل جلست تنتظر.. تتحرق لتلك المواجهة بشدة.. كان لا بد أن تُنهي الأمر الليلة وتصارحه بكل شيء لذلك كانت (درية) في حالة

غير عادية من التوتر خاصة مع انتظارها عودة زوجها التي طالت اليوم عن أي يوم آخر فظلَّت تروح وتجيء داخل المنزل وترتب أفكارها وما ستقوله له عند عودته ربما للمرة الألف حتى أتى خلاصها أخيرًا عندما سمعت صوت الباب وهو يُفتح ورأت (شعبان) يدلف من خلاله وقد بدا عليه القنوط.

لحظتها فكرت في أن تتراجع وترجئ الأمر إلى يوم آخر لكن صورته التي ملأت عينيها وقلبها والتي ملكت عليها كل حواسها لم تدع لها فرصة للتردد فاندفعت خلف (شعبان) الذي ألقى عليها السلام ودخل إلى غرفة النوم ليُبدل ملابسه واقتربت منه لتجده يزفر في قوة فقالت متسائلة:

- ماذا بك يا (شعبان)؟

أجابها في برود اعتادته منه في الفترة الأخيرة فلم يعد يدهشها:

- لا شيء.

قالت في إصرار:

- لا تنكر يا (شعبان) فأنا أعرفك عندما يشغلك شيء ما.. هيا قل لي ما المشكلة؟

زفر مرة أخرى وهو يُجيبها قائلًا:

- هناك صديق لي قادم من الصعيد وكان بيننا عمل ما ننهيه واتفقنا على كل شيء وكان هناك ميعاد بيننا الليلة لكنه لم يأتِ.. جلست أنتظره حتى وقت متأخر فلم يظهر.. سألت عليه في الفندق الذي سيبيت فيه ليلته لكنهم قالوا لي أنه لم يعد منذ خرج في الصباح.

- ربما تراجع عن هذا العمل بينكما وعاد إلى بلده.

قال (شعبان) في استنكار:

- دون أن يخبرني؟!.

قالت (درية) مفسرة:

- ربما أحس بالحرج منك وفضَّل أن يرحل دون أن تراه.

هز (شعبان) رأسه رافضًا الفكرة وقال:

- لا أعتقد فهذه ليست أول مرة أتعامل معه وبيننا صداقة طويلة لن يُفسدها بتصرف كهذا كما أنه لم يُبد أي استياء مما بيننا من أعمال وكان بيننا اتفاق على كل شيء فكيف يُغير رأيه بهذه السرعة.

ثم صمت لحظة مفكرًا وجلس على حافة سريره ونظر ل(درية) قائلًا:

- لكن أتدرين لقد حدث أمر غريب لم أجد له تفسيرًا حتى الآن.

تساءلت (درية) قائلة:

- وما هو؟

أجاب قائلًا:

- عندما اصطحبته إلى المقهى بدا مصعوقًا عندما رأى الفتى (محمود) وبدا وكأنه رأى شيطانًا.

ثم أكمل وهو يتطلع في وجهها:

- شيطانًا يعرفه من قبل.

قالت في امتعاض:

- ما هذا الهراء؟

قال وهو لايزال يتطلع إليها:

- هذا لأنك لم تشاهدي وجهه حين رآه ولا كم الأسئلة التي لاحقه ولاحقني بها حتى أنه سألني عن عنوان مسكنه وقد حيرني الأمر ساعتها فلم أكن أرى ما يستدعي كل هذا الاهتمام.

تساءلت وهي تحاول أن تستشف ما يدور بخلده:

- أتظن أن ل(محمود) يد في اختفاء صديقك هذا؟

قلّب شفتيه وهز رأسه في حيرة قائلًا:

- لست أدري.

ثم ضيّق عينيه في تفكير مكملًا:

- لكنني سأعرف كل شيء.. حتمًا سأعرف.

هنا قررت أن تستغل حالة الحيرة والارتباك التي يشعر بها وقررت أن تلعب على وتر شكه في (جابر) الذي أصبح كجمر النار داخل صدره فقالت:

- هناك أمر أريد أن أُخبرك به أنا الأخرى.

رفع عينيه إليها متسائلًا:

- ما هو؟

فركت يديها في توتر وقالت وهي تُشيح بنظرها عنه:

- أمر كنت أُخفيه عنك منذ مدة طويلة.. حاولت أن أتصرف فيه بمفردي كي لا أُثير غضبك وأجعلك تفقد

أعصابك لكن..

قطعت كلامها وكأنها لا تجد ما تعبر به أو أنها تخشى الاستمرار في الحديث وقررت التراجع فجأة فقال وقد بدأ يتوتر:

- لكن ماذا؟.. وأي أمر هذا الذي تخشين أن تخبريني به؟

قالت بصوت خفيض:

- إنه أمر يتعلق أيضًا بالفتى (محمود).

تساءل وتوتره يزداد:

- ماذا حدث؟

أجابت وهي لا تزال مُشيحة بوجهها بعيدًا عنه وكأنها تخشى النظر في عينيه:

- أنت تعلم أنه يأتي إلى هنا كثيرًا.. أنت بنفسك كنت تُرسله دائمًا ليُحضر لي طلبات البيت.

قال في ترقب وقد نفد صبره:

- ها.. وماذا بعد؟

اغرورقت عيناها بالدموع وقالت في أسى:

- في مرة من تلك المرات كنت أستحم وفاجأني صوت الطرق على الباب فلم أدر ماذا أفعل فوضعت الروب على جسدي وفتحت.. كان (محمود) على الباب وقد جلب الطلبات التي أرسلته بها فأمرته أن يُدخلها إلى المطبخ ويخرج على الفور وتركت له الباب مفتوحًا بينما دخلت أنا إلى الحمام لأكمل استحمامي وقد ظننت أنه قد وضع ما معه وخرج لكن بعد فترة وبينما أنا بداخل الحمام لمحت مَن ينظر إلي من خلف الباب الموارب وحين دققت النظر عرفت أنه (محمود).. كان يتطلع إلى جسدي العاري وكأنه سيفترسه ثم عندما لاحظ أنني انتبهت إليه خرج مسرعًا واختفى في لمح البصر.

جز (شعبان) على أسنانه وقال في غل:

- الكلب.. سأعرف كيف أجعل منه عبره.. سأقتلع عينيه حتى لا ينظر بها لأسياده مرة أخرى.

قالت (درية) وهي تنتحب:

- لم أشأ أن أُخبرك عن هذا الأمر في البداية وقلت أنه شاب صغير وقد أثاره الأمر فغيَّب عقله ولم يدر ماذا يفعل وأيضًا لم يُحسن التفكير في عواقب فعلته ولكن ليت الأمر اقتصر على هذا.

انعقد حاجبا (شعبان) في غضب وصاح وهو يجذبها من ذراعها ناحيته في قوة:

- تكلمي.. ماذا حدث بعد ذلك؟

رفعت عينيها الدامعتين إليه قائلة:

- عندما لم أُخبرك عن المرة الأولى ظن أنني لن أتكلم مهما فعل فتجرأ أكثر وأكثر حتى هذه المرة الأخيرة.. لقد اقتحم عليَّ المنزل حين فتحت له الباب وألقاني

أرضًا وحاول أن يعتدي عليَّ لولا أن صرخت فخشيَ افتضاح أمره وولى هاربًا.

قالتها وانهارت باكية وكأن سدود مقاومتها قد انهارت فجأة مُطلقة لدموعها العنان ثم ارتمت في أحضانه تستمد منها الأمان فأحاطها بذراعيه وهو يقول بغل:

- أقسم أن أقتله.. لن يعيش يومًا آخر بعد اليوم.

ردت هي عليه وكأنها تؤَمِّن على كلامه:

- نعم.. لن يعيش يومًا آخر بعد اليوم.

وعلى محياها ارتسمت تعابير غدر لم يرها (شعبان)..

لسوء حظه.

* * *

- ماذا سنفعل الآن؟

انطلق السؤال من فم (استيفانوس) بمنتهى الحِدَّة فصاحت فيه (مادلين) قائلة:

- وما شأني أنا.. قلت لك من قبل أنني خارج هذا الموضوع أكثر من مرة.

صاح (استيفانوس) في غضب:

- الأمر ليس لعبة يا (مادلين) نشترك بها وقت ما نشاء ونتركها وقتما نرغب إنها أموالنا.. أموالنا التي قضينا السنين في جمعها.. هل سنترك هذا الحقير يسلبها منا.

جلست (مادلين) تفكر فيما قاله فجلس قبالتها وهو يردف:

- يجب أن نفعل شيئًا يا (مادلين).. أي شيء.

قالت متفكرة:

- ليس بيدنا أي شيء نفعله الآن.

صاح (استيفانوس) في سؤال مستنكر قائلًا:

- ماذا تقصدين؟

أجابته قائلة:

- أي شيء سنفعله الآن سيكون محتاطًا له فهو يعلم أننا لن نسكت عليه.. قد نراقبه أو حتى قد نُؤذيه لذلك سيبقى على حذره حتى يرى كيف سنتصرف.

سألها (استيفانوس) في لهفة:

- وماذا نفعل؟

هزَّت رأسها نفيًا ولوَّحت بأصبعها أمامه يمينًا ويسارًا وهي تُقرن إشارتها بالقول:

- لا شيء.

ارتفع حاجباه في دهشة وانقلبت سحنته وهو يتراجع بظهره للوراء في حِدَّة مرددًا:

- لا شيء؟!.

ردت (مادلين) بسرعة قائلة:

- ليس هذا معناه أننا سنقف مكاننا ساكنين ولكننا سنتصرف بشكل لا يلفت نظره من خلال أحد غيرنا لا يعرفه.

قال (استيفانوس) وقد بدأ يفهم:

- أتقصدين..

قاطعته قائلة بحسم:

- نعم.. سأجعل (كمال) يراقبه كظله ليل نهار.. هو لا يعرفه ولم يره من قبل فلن يرتاب في أمره وحتمًا في لحظة ما سيفقد حذره ويُقدم على فعل يجعلنا نمسك بطرف الخيط الذي سيقودنا لكل ما سرقه.

التمعت عينا (استيفانوس) وقال:

- وعندها وبعد أن أحصل على مالي سأعرف كيف أؤدبه على فعلته هذه.

قالها بثقة دون أن يدري أنه وابنته يسيرون إلى شرك محكم..

الشرك الذي أعده لهم (جابر) بدقة مذهلة..

شرك جعلهم يسيرون إليه..

وبإرادتهم.

٧ ٧ ٧

الفصل السابع عشر

قلَّ عدد زبائن المقهى بشكل ملحوظ وبدأوا في المغادرة تباعًا في هذا الوقت المتأخر من الليل وبدأ (شعبان) يجمع حصيلة اليوم ويحسبها وهو يتابع بعينه (جابر) ومَن معه وهم يعيدون ترتيب المكان وتوزيع الموائد والمقاعد من حولها وينظفون الأرضية إذانًا بغلق المكان.. والحقيقة أنه كان يختص (جابر) وحده بالمتابعة وكان ينتظر بفارغ الصبر أن ينهوا عملهم فظلَّ يصرخ فيهم يستحثهم أن يسرعوا وقد انتوى أن يصفِّي حسابه كاملًا مع (جابر) هذه الليلة.. بعد أن انتهوا تجمعوا حول (شعبان) الذي نقد كل منهم يوميته فبدأوا في المغادرة كذلك ومعهم (جابر) لولا أن سمع صوت المعلم (شعبان) وهو يهتف باسمه يستبقيه قائلًا:

- انتظر يا (محمود).

توقف (جابر) والتفت له في تساؤل فقال (شعبان):

- أريدك في أمر ما.

تسمر (جابر) في مكانه بينما نهض (شعبان) من على مقعده واتجه إلى باب المقهى ليغلقه عليهما متجاوزًا (جابر) الذي تطلع إليه في دهشة كبيرة وتساءل في توتر مشوب بالحذر:

- ماذا هناك يا معلم؟.. لماذا أغلقت الباب؟

اقترب منه (شعبان) ووقف قبالته يتفرس في ملامحه قبل أن يقول:

- لماذا يا (محمود)؟

قال (جابر) وقد أربكته نظرات (شعبان):

- ماذا فعلت يا معلم؟

صرخ (شعبان) في قوة:

- لا تراوغ.

صاح (جابر):

- أقسم لك أنني لا أفهم.

اندفع (شعبان) تجاه (جابر) وأمسكه من قميصه وجذبه ناحيته في غضب قائلًا:

- أنت أيها الحقير تعتدي على حُرمة بيتي بعدما أكرمتك.

صاح (جابر) في قوة:

- كذب يا معلم.. أقسم لك أنه لم يحدث شيء من هذا.

هنا هوت الصفعة قوية من يد (شعبان) على وجنة (جابر) لتطيح به من مكانه وتسقطه أرضًا و(شعبان) يهتف في غضب:

- قلت لك لا تراوغ.

ثم مال ناحيته ليجذبه من ملابسه مرة أخرى ويوقفه على قدميه وهمَّ بتوجيه صفعة ثانية له عندما هتف

(جابر) فجأة:

- إنها خائنة.

تجمدت يد (شعبان) في الهواء واتقدت عيناه من فرط الغضب وهو يقول بصوت كالفحيح:

- ماذا تقول؟

أجاب (جابر) قائلًا:

- إنها كاذبة.. أيًّا ما كان ما قالته لك فهي كاذبة وتسعى لخيانتك.

ظلَّ (شعبان) ينظر إليه في ذهول فخلَّص (جابر) نفسه من بين يديه وقال:

- هذه هي الحقيقة يا معلم لم أشأ أن أُخبرك بها من قبل لكن أن تتلاعب بعقلك وتتهمني أنا بالخيانة فهذا ما لن أسكت أمامه أبدًا.

تفرَّس (شعبان) في وجهه وكأنه يستقرئ صدقه من كذبه قبل أن يسأله قائلًا:

- ماذا حدث؟

التقط (جابر) نفسًا عميقًا وزفره في قوة كي يستجمع شتات نفسه وقال وهو يتحسس موضع الصفعة التي تلقاها:

- لم أتخيل أن الأمور هكذا.. في البداية كانت تعاملني معاملة جيدة وظننت أنها تعطف عليَّ لأنني وحيد وليس لي أهل وظللت لفترة أقنع نفسى أن الأمور تسير على هذا النحو حتى أتى يوم..

توقف عن السرد وكأنه يخشى الإفصاح عما بداخله فقال (شعبان) يستحثه والغضب بادٍ على وجهه:

- أكمل كلامك بسرعة.

ثم رفع أصبعه في وجه (جابر) مهددًا:

- واعلم أنك إن كنت كاذبًا فأقسم بالله أن أدفنك مكانك.

أومأ (جابر) برأسه إيجابًا وهو يُكمل قائلًا:

- في ذلك اليوم ذهبت لها ككل مرة أحمل لها فيها الطلبات ففاجأتني بأنها أغلقت باب المنزل علينا واقتربت مني بنظرة غريبة على وجهها تتحسس جسدي فلما رفضت وأبعدتها عني ظلَّت تصرخ في وجهي وتهددني بأنها ستقطع عيشي من هنا وستخبرك كما أخبرتك الآن أنني حاولت الاعتداء عليها ثم مرة واحدة انهارت في البكاء وقالت لي أنها تعيش وحيدة وأنك دائمًا بعيدًا عنها.. لا تشعر بها ولا تستمع إليها..

قال (شعبان) يستحثه وقد بدا ذاهلًا وكأن الكلام يتسرب إلى عقله مباشرة يستولي على تفكيره ويغيِّبه:

- ها.. وماذا بعد؟

أجاب (جابر) وهو يدور حوله ويصب الكلام داخل أذنيه:

- قالت لي أنها سئمت هذه الحياة الجامدة وأنها تريد أن تعيش حياتها كما تريد هي وليس كما تريد أنت.. كما قالت لي أنك لا تنجب وهي تريد أن تحقق حلم حياتها في أن تصبح أمًّا.. ولأنها تعلم جيدًا أنك لن تقبل أن تطلقها إذن فالحل الوحيد هو أن تتخلص منك.

حدَّق فيه (شعبان) في دهشة واتسعت عيناه في ذهول وهو يردد:

- تقتلني.

أومأ (جابر) برأسه مرة أخرى وهو يقول:

- نعم.. لقد طلبت مني مساعدتها للخلاص منك وبعدها وعدتني بأن تجعل مني شخصًا آخر كما ستعهد لي بإدارة المقهى وساعتها يمكننا أن نُكمل حياتنا معًا.

ظلَّ (شعبان) يُحدِّق في لا شيء وهو يردد:

- إذن فالأمر هكذا.

- بل الأمر أكبر من هذا.

قالها (جابر) فبهت (شعبان) وقال متسائلًا:

- ماذا لديك أيضًا؟

قال (جابر) وقد قطع شوطًا سيكمله لنهايته:

- لقد اعترفت لي أنها كانت أيضًا على علاقة مع (سليم فتوح).

صرخ (شعبان) في غضب:

- ماذا؟

أكد (جابر) قوله مغمغمًا:

- هذا ما قالته لي.. قالت أنها كانت ضائعة وهذا جعلها تُقبِل على كل مَن يقول لها كلمة حب أو يُشعرها بحنان وعطف افتقدته وعندما سألتها لماذا تعترفين لي قالت أنها فضلتني عليه لأنه كان يريد امتلاكها.

احمرت عينا (شعبان) من فرط الغضب وجز على أسنانه حتى كاد يكسرها ثم التفت إلى (جابر) وتساءل في صرامة:

- وكيف أتأكد أنك صادق في كلامك؟

أجابه (جابر) على الفور:

- بإمكاني أن أثبت لك.

تساءل (شعبان) مرة أخرى في لهفة:

- كيف؟

ابتلع (جابر) ريقه في صعوبة قبل أن يقول:

- سأجعلها تأتي إلي في منزلي وعندها ستسمع كل ما قلته لك الآن ولكن عن لسانها هي.

قال (شعبان) وقد بدا كمَن ضُرب بألف مطرقة على رأسه:

- سأسايرك حتى النهاية ولو صدق كلامك فسأقتلها وأغسل عاري بيدي.

ثم نظر إلى (جابر) مكملًا:

- أما لو كنت كاذبًا فسأجعلك أنت تتمنى الموت.

قال الأخير وهو يدفع التهمة عن نفسه:

- سترى أنني صادق في كل كلمة قلتها.

قالها وفتح باب المقهى وخرج تاركًا (شعبان) غارقًا في لُجة أفكاره وقد أيقن أن الأمور تسير بقوة غامضة نحو نهاية محتومة.

* * *

بحذر شديد وبخطوات سريعة سارت (درية) وهي تُخفي نفسها داخل ملاءتها وقد عَمِدت إلى إخفاء وجهها خشية أن يلمحها أحد ما ويتعرف عليها.. كانت تخشى هذا الموعد وتنتظره ومن داخلها تصاعدت ضربات قلبها الوجلة ونبتت حبات العرق على جبينها

من فرط التوتر لكن لم يعد هناك مفر من المحتوم لقد دارت عجلة الأمر ولا سبيل لإيقافها.

كما قال لها (محمود) من قبل.. الآن إما هما أو هو.. لا يوجد حلول أخرى.. لذلك أطاعته في كل ما طلبه منها.. حتى اليوم عندما طلب منها أن تأتي إليه في منزله ورغم خوفها الشديد لم تملك إلا أن تُطيعه وتُنفذ ما طلبه منها وتحايلت على (شعبان) فأخبرته أنها ستذهب لزيارة أمها هذا الصباح ورغم نظرات الشك التي لاحقها بها إلا أنها لم تتردد لحظة واحدة.

وصلت إلى مسكن (جابر) فاستقبلها هذا الأخير على الباب وجذبها بيده بسرعة إلى الداخل ثم نظر خارج باب مسكنه ليتأكد أن أحدًا لا يتبعها ثم أغلق الباب والتفت إليها قائلًا:

- تأخرت كثيرًا.

قالت وهي تخلع الملاءة وتضعها جانبًا:

- انتظرت حتى غادر (شعبان) كي لا يرتاب في شيء.

- إنه قادم خلفك بالتأكيد.

هزَّت رأسها إيجابًا ثم سألت (جابر):

- لماذا أصريت على أن يكون الموعد في منزلك.. لماذا لم ننفذ ما اتفقنا عليه في منزلي.

أجابها بصوت خفيض:

- لم يكن هذا ممكنًا.. وإلا فكيف سنتخلص من جثته حينها.. لكن هنا ستكونين أنت بعيدة عن أي شيء وسأعرف أنا كيف أُخفيه.

قالت في حماس:

- لقد كانت خطتك محكمة جدًّا فمن ناحيتي أنا زرعت الشك في قلبه تجاهك وأنت جعلته يشك في أمري أنا.

قال (جابر) بثقة:

- إنه الآن كمَن ضُرب على رأسه فهو مُشتت لا يدرى أين الحقيقة والشك يأكله من ناحيتنا نحن الاثنين.

- لهذا سينفذ ما طلبته منه.

قال على الفور:

- بالطبع.. لقد قلت له أن دليل خيانتك أنك ستأتين إليَّ في منزلي وطلبت منه ملاحقتك ليكتشف الأمر بنفسه وأنا واثق أنه الآن بالخارج يتحين الوقت ليداهمنا وبذلك نكون جعلناه يأتي إلى هنا بقدميه ويكون خلاصنا منه أسهل بكثير.

اقتربت منه قائلة:

- أتفعل هذا من أجلي يا (محمود)؟

- إن لم أكن أفعله من أجلك فمن أجل مَن.

رق صوتها وهي تسأل:

- أتحبني حقًّا؟

أجابها في سخرية قائلًا:

- وما الذي سيدفعني لارتكاب جريمة قتل إن لم أكن أحبك؟!!.. ليس من هواياتي قتل الناس بالتأكيد.

- أنا أيضًا أحبك.. بل أعشقك.

- و(سليم)؟

ألقاها (جابر) متسائلًا فأجابت بسرعة:

- أرجوك يا (محمود) أن تنس هذا الأمر.

ثم اقتربت منه أكثر مكملة:

- حكاية (سليم) و(سليم) نفسه أصبحا من الماضي الآن والغد لا يوجد فيه أحد غيرنا.. لا (سليم).. ولا (شعبان).

قالتها ثم التصقت به والتقمت شفتيه بين شفتيها وغابت معه في قُبلة طويلة وهو يمد يده ليخلع عنها ثوبها ليُكمل تفاصيل الخطة في اللحظة التي اقتحم فيها (شعبان) المكان وقد بدا كالثور الهائج وهو يندفع

تجاه (درية) التي أطلقت صرخة فزع وتراجعت إلى الخلف لكنه أطبق بيديه على عنقها وهو يضرب رأسها بالجدار في هياج.. كل هذا و(جابر) يقف في منتصف الغرفة في استسلام لا يفعل شيئًا وكأن الأمر لا يعنيه بينما عينا (درية) تستنجد به لينفذ ما اتفقا عليه وينقذها لكن ملامحه كانت تعكس شيئًا آخر..

ملامحه كانت تقول كل شيء..

لقد غدر بها وتلاعب بعقلها حتى يكشفها ويضعها هي في مواجهة (شعبان) الذي تلاعب بعقله هو الآخر وبمساعدتها لينجو هو بنفسه من الموقف كله.

حاولت الصراخ لإنقاذ نفسها لكن صرخاتها احتبست مع ضيق الهواء داخل صدرها.. حاولت التملص من قبضة (شعبان) لكن غضبته جعلته كالوحش الكاسر فأطبقت قبضتيه على عنقها ككلابتين من حديد.. إلا أن غريزة البقاء بداخلها جعلتها تركل (شعبان) بقدمها العارية بكل قوتها فخفَّت قبضته على عنقها حتى استطاعت دفعه بعيدًا عنها وتحرير نفسها عندها

حاولت الهروب تجاه باب المنزل لكن فجأة وجدت مَن يطوقها من الخلف ويطرحها على السرير ويُكبل يديها فوق رأسها بينما جثّم (شعبان) فوقها يستكمل ما بدأه والغل يطفر من عينيه حتى أظلمت الدنيا أمام عينيها مع تسرب آخر رمق من الحياة بداخلها وكان آخر ما رأته قسمات وجه (شعبان) وهي ترتعش..

في جنون.

* * *

ذاهلًا عن كل ما حوله.. ضائعًا في لُجة من الأفكار تتناوب على رأسه فتُصليه نارًا من الجحيم.. ناظرًا إلى يده التي لم تكُّف عن الارتعاش جلس (شعبان) بجوار جثة (درية) لا يدري ماذا يفعل.. إحساس كبير بالضياع والعجز انتابه وهو يتطلع إلى جثتها العارية بعد أن أسلمت الروح وهمدت تمامًا بينما عيناها لا تزالان تحملان تلك النظرة الذاهلة المرتاعة.

لم يتخيل ما وصلت له الأمور بينهما.. لم يتخيل أن يأتي اليوم الذي يجلس فيه جوار جثتها بعد أن يقتلها

بيديه.. صحيح أن الحياة بينهما لم تكن على ما يرام ودائمًا ما كانت الخلافات تنشب بينهما لأتفه الأسباب وأحيانًا بدون أي سبب على الإطلاق..

ربما ليداروا به السبب الحقيقي وراء غضبهما وضيقهما من بعضهما وهو عدم قدرتهما على الإنجاب..

ربما ليشعرا أنهما ما زالا على قيد الحياة فيتشاجران لمجرد الشجار..

لكنه لم يتوقع ولو للحظة واحدة أن تطعنه في ظهره بهذا الشكل.. أن تُسلم نفسها لرجل غيره والأدهى أنها تتآمر للخلاص منه.

كيف وصل هو إلى هذا؟..

كيف وصلت بها الأمور إلى هذه الدرجة؟..

دوامة تدور به في دوائر لا نهائية لا نجاة منها ولا فكاك..

دوامة ابتلعته في قلبها فلا يجد سبيلًا للخلاص منها بعد أن ضاع كل شيء..

ترك (جابر) يد (درية) التي كان يكبِّلها منها واقترب من (شعبان) الذي لم يرفع عينه ناحيته فربت على كتفه قائلًا:

- لا وقت للحزن الآن يا معلم.

نظر له (شعبان) وعيناه تحملان هم الدنيا وقال بصوت مبحوح:

- ومتى يأتي الوقت وقد ضاع كل شيء.

قال (جابر) بسرعة:

- لم يضع شيء.

ثم جذب (شعبان) ليقف على قدميه قائلًا:

- يجب أن تذهب الآن وتنسى كل ما حدث هنا.

أشار (شعبان) ناحية جثة (درية) وقال متسائلًا:

- وماذا عنها.. ماذا ستفعل بها؟

قال (جابر) في حسم مطمئنًا:

- لا تقلق سأعرف أنا كيف أُخفيها عن الأنظار ولكن ليس الآن بالطبع يجب أن أنتظر حين يحل الليل ولكن أنت يجب أن تبقى في المقهى تمارس حياتك بشكل طبيعي تمامًا وتُبدي القلق حين تعلم بتغيبها عن المنزل واختفائها وتبحث عنها في كل مكان وتسأل الجميع بل ويجب أن تُبلغ الشرطة عن اختفائها كذلك حتى تُبعد أي شبهة عنك.

نظر له (شعبان) وقال بصوت خفيض:

- لا أدري ماذا أقول لك.

ربت (جابر) على كتفه وقال وهو يدفعه للخارج:

- فيما بعد يا معلم.. فيما بعد.

خرج (شعبان) فأغلق (جابر) الباب على نفسه واقترب من (درية) ليحملها بين ذراعيه ويدخل بها إلى الغرفة الأخرى حيث أعد كل شيء فوضعها جانبًا وأشعل البخور المعتاد ومد يده يلتقط الرفش ويبدأ الحفر..

لم تمض فترة حتى كانت جثة (درية) ترقد في قاع الحفرة التي تصاعدت منها روائح شيطانية نجحت في إخفائها ببراعة كمية البخور الهائلة التي أشعلها (جابر) الذي كمَّم أنفه وفمه بمنديل وإن ظلَّ ينظر إلى جثة (درية) العارية ويتذكر ما مضى..

يتذكر يوم اقتادوه كالخراف إلى المذبح وكيف تم ضربه وتعذيبه وإهانة كرامته بغرض التأديب..

يتذكر يوم ذهب إلى (درية) وكيف انحنى أمامها يعتذر ويُقبِّل قدمها لتصفح عنه كأي عبد يخشى غضبة سيدته..

يتذكر كيف أجبر نفسه على مضاجعتها وإمتاعها بينما كان يود لو يخنقها بيديه ويمزقها بأسنانه..

مر شريط الذكريات أمام عينيه في ومضات متلاحقة قبل أن يقول في تشفٍّ:

- أرأيت.. لا أحد يهين (جابر وهدان) ويبقى على قيد الحياة.. اليوم كان يومك وغدًا يحين يوم الكلب (سليم).

ثم ضرب كومة الرمال بالرفش وقال:

- مع السلامة يا... سيدتي.

أنهى جملته وألقى الرمال فوق الجثة حتى توارت عن الأنظار.

* * *

لأيام طويلة استمر البحث عن (درية) بلا جدوى.. كانت حكاية اختفائها هي الشغل الشاغل لكل أهل المنطقة وحديثهم من الصباح إلى المساء فمن ناحيته لم يتوان (شعبان) عن فعل أي شيء بينما من ناحية أخرى كانت أسرتها تبحث في كل اتجاه بلا كلل ولكن

ذهبت كل جهودهم أدراج الرياح فلم يُعثر لها على أثر حتى الشرطة التي تم إبلاغها بحالة الاختفاء لم تضف أي جديد رغم كثرة البحث والتحري واهتمام (سليم فتوح) بالموضوع على المستوى الشخصي.

وبين الناس سادت أقاويل كثيرة.. منهم مَن قال أنها هجرت (شعبان) بسبب أعماله المشبوهة.. وآخرون قالوا أنها لا تزال تأمل وتسعى للإنجاب فقررت أن تختفي من حياته.. بينما كانت الحكاية الأكثر شيوعًا والتي سرت كالنار في الهشيم هي أن (درية) قد عَرِفت عشيقًا غير زوجها وهربت معه واقترن اسمها باسم (زينات) التي سبقتها وهربت هي الأخرى مع عشيقها فصارا مضرب الأمثال في الخيانة وما آل إليه حال النساء هذه الأيام وكيف أن المرء أصبح لا يأتمن حتى أقرب الناس إليه.

تحدث الجميع وأدلى كل منهم بدلوه بينما (شعبان) و(جابر) لا يزالان على صمتهما وينتظران.. تتلاقى عيونهما فتحكي كل شيء.. لم يكن هناك شعور بالذنب.. من ناحية (شعبان) على الأقل.. بل كان

الخوف ثم الخوف من افتضاح أمرهما وكشف ما عملا جاهدين لستره لكن كما بدأ الموضوع مرت الدائرة وانتهى وعاد الجميع لحياتهم فلم يعد هناك إلا بعض المواساة من الرجال سواء كانت صادقة أو تحمل قدرًا من التشفي ومصمصة الشفاه والتحسر على حاله من النساء بينما الأغلبية انشغلوا بهموم حياتهم اليومية ونسوا الأمر برمته.

واحد آخر ظلَّ ينتظر..

واحد آخر ظلَّ يتبع (جابر) كظله.. أينما يذهب يكون هو خلفه حتى كاد يعد عليه أنفاسه..

واحد آخر لم يستطع رفض طلب (مادلين) حين طلبت منه مراقبة (جابر) ومعرفة ما يخفيه..

واحد اسمه (كمال).

ظلَّ هذا الأخير يتبع (جابر) طوال الأيام الماضية دون أن يستخلص أي معلومة قد تُفيد (مادلين) أو والدها حتى كاد ييأس ويعود لها ليخبرها أنه لم يستطع

الحصول منه على شيء وأنها عليها أن تنسى الموضوع لفترة طالما الوغد شديد الحذر بهذا الشكل.. إلى أن أتى هذا اليوم الموعود.. كان يومًا عاصفًا لم تهدأ الرياح فيه لحظة واحدة فبدا وكأنها تريد أن تقتلع كل شيء من جذوره لتُخلي الساحة أمامها لتصفِّر وحيدة في قفر مهجور.

مع انتصاف الليل أُغلقت أبواب المقهى وغادر كل مَن فيها إلى بيوتهم وهم يسيرون عبر شوارع ساكنة خالية ومعهم غادر (جابر) وتحفز (كمال).. شيء ما بداخله أخبره أن الليلة ستكون مختلفة.. ستكون غير أي ليلة سابقة.. وبالفعل وكأن (جابر) لم يرد أن يُخيب ظنونه وجده (كمال) وقد اتخذ خط سير مختلف عن مساره المعتاد إلى منزله.. يتلفت يمينًا ويسارًا شأن مَن يخشى أن يكون مُراقَبًا وبخطى حذرة متوترة سار خلفه.. كان لا يريد أن يلفت انتباهه فيفتضح أمره ومعه يأخذ (جابر) كل الحذر ويضيع كل شيء لذلك ظلَّ يحافظ على مسافة بينهما حتى وجد (جابر)

يتوجه بخطى ثابتة نحو المخزن السري الذي يملكه (استيفانوس) ويفتح أقفاله وينسل إلى الداخل.

ظلَّ (كمال) واقفًا بالخارج لفترة لا يدري ماذا يفعل.. هل ينتظر بالخارج حتى يظهر (جابر) أم يغامر ويتقدم ليُلقي نظرة على ما يدور بالداخل..

كان الفضول يقتله وهو لا يدري ما سبب تواجد (جابر) في هذا المكان الآن والأغرب أنه قَدِم هنا وحده وفتح بمفاتيح خاصة به..

منذ متى وهو يحمل مفاتيحه الخاصة.. (مادلين) قالت له أنه لا يملك واحدة.. إذن هو يحمل هذه النسخة دون علمها فلماذا؟..

بدأ الشك يدبُّ بقلبه فحسم قراره.. سيُلقي نظرة واحدة تكشف له كل شيء ثم يغادر على الفور عندها يكون قد أوفى بوعده وفعل كل شيء من أجل (مادلين).. ببطء حذر بدأ يتقدم.. نظر حوله في كل اتجاه قبل أن يخطو إلى الداخل وقد ضايقته الظلمة

التي تسود المكان فبقي في مكانه لفترة حتى اعتادت عيناه هذا الظلام وبدأ يميِّز بعض الموجودات داخل المخزن ثم تحرك يستطلع المكان وهو يخشى في كل لحظة أن ينقض عليه (جابر) فتسوء العاقبة.

كان المخزن كبيرًا بالفعل ربما لم يتخيل (كمال) أنه بهذا الاتساع لكنه أيضًا كان ممتلئًا عن آخره حتى أنه تساءل من أين ل(استيفانوس) بكل هذه الأموال التي اشترى بها هذه البضائع؟.. كيف سيبيعها؟.. ماذا ترك لغيره إذا كان هو وحده يمتلك كل هذا.

سار بحذر متسترًا بأكياس ضخمة من البضاعة وهو يبحث بعينيه عن هذا الشبح الذي دخل واختفى كأنه تبخر فلم يبق منه أثر.. مرت ثوان لم يجد فيها أحدًا ولم يدر ماذا يفعل حتى بدأ الخوف يدبُّ في نفسه فحسم أمره وقرر أن يتراجع.. لكن في تلك اللحظة سمع صوتًا خافتًا كأن أحدًا يعبث في شيء ما خلف هذا الركن المكدَّس بالبضائع.. غلبه الفضول وشعر بالخزي من نفسه حين تملكه الخوف فقرر أن يستجمع

شجاعته ويُلقي نظرة وبالفعل وضع تفكيره موضع التنفيذ وخطا حول تلك البضائع يستطلع ما خلفها..

وهناك كانت بانتظاره مفاجأة.

٧ ٧ ٧

الفصل الثامن عشر

قلق شديد تملك (مادلين) في اليومين الأخيرين.. قلق من النوع المفزع الذي يهاجمك بضراوة وتوحش فينهش روحك ويتركها أشلاء ممزقة.. قلق على حبيب اختفى فجأة دون أدنى أثر وبدون سابق إنذار.. حبيب دفعته بنفسها للقيام بمهمة غاب على إثرها منذ يومين دون أن يظهر أو تسمع عنه خبر يطمئنها

هي تحبه.. نعم تحبه بكل ما بقلبها من طاقة للحب وهي لا تخجل من الاعتراف بهذا ليس فقط بينها وبين نفسها ولكن أمام الناس جميعًا حتى أقربهم إليها.. والدها.

لذلك ظلّت تفرك يديها في توتر وتكاد لا تستقر بمكان ووالدها ينظر إليها وإلى قلقها قبل أن يقول:

- (مادلين) يجب أن تهدئي ربما ليس هناك سبب ما لغيابه هذا.

التفتت إليه وقد جعل توترها نبراتها أكثر حِدَّة وهي تقول:

- كيف يكون غيابه بدون سبب.. إنه يعلم خطورة ما نحن فيه وأننا ننتظر منه الأخبار على أحر من الجمر فهل هناك مبرر يدفعه للاختفاء هكذا دون أن يترك خلفه أدنى أثر.. لقد سألت عليه في بيته وأمه لا تعرف عنه أي شيء مثلنا وقلقها أكثر من قلقنا وفي عمله لم يروه من يومها واعتبروا غيابه غير المسبب انقطاعًا عن العمل.

تساءل (استيفانوس) في دهشة:

- وماذا بيدنا لنفعله؟

أجابته في ضيق قائلة:

- أي شيء.. أي شيء غير انتظارنا هذا.

ثم حدَّقت في وجهه وهي تردف قائلة:

- ربما الجواب عند (محمود).

تساءل (استيفانوس) مرة أخرى بدهشة أكبر:

- ماذا تقصدين؟

أجابته وقد بدت شاردة تفكر:

- ربما لاحظ (محمود) أن (كمال) يتعقبه فطاله بمكروه.

صاح في هلع:

- هل جننت؟

صاحت هي الأخرى وقد فقدت السيطرة على أعصابها:

- قل لي عن سبب آخر يدفعه للاختفاء بهذا الشكل.. قل لي لماذا يترك بيته وعمله ويتركنا هكذا بدون سبب؟.. ولماذا لم يحدث هذا سوى الآن عندما بدأ يلاحق (محمود)؟

ثم أكملت وهي تلتقط حقيبتها وتندفع نحو باب المنزل قائلة:

- كما قلت لك.. الجواب عند (محمود) وسأعرفه الآن.

وصفقت الباب خلفها بمنتهى القوة.

* * *

متوارية عن الأنظار وعلى الناصية المواجهة للمقهى وقفت تنتظره.. تابعته بعينها وهو ينهي عمله ويغادر متجهًا إلى بيته.. كان الوقت متأخرًا لكنها سارت خلفه تتبعه وقد قررت أن تحسم معه الأمر الليلة وتعرف منه عن (كمال) ليهدأ وجيب قلبها ويستريح من وحش القلق الذي ينهشه ليل نهار.

كان (جابر) يسير متمهلًا وكأن لديه وقت الدنيا كله وقد وضع يديه فى جيبي بنطاله وهو يُطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا تزجية للوقت حتى صادفه أول شارع جانبي فسلكه على الفور ومن خلفه (مادلين) تتبعه كظله.. أسرعت الأخيرة الخُطَا بعد أن غاب

(جابر) عن نظرها خشية أن تفقد أثره فسارت في خطوات واسعة حتى بلغت هذا الشارع الجانبي فدخلت فيه لترتطم بمَن يقف في مواجهتها ليسد عليها الطريق.

شهقت (مادلين) في فزع وتراجعت للخلف في رعب وهي تنظر إلى (جابر) الذي وقف أمامها هادئًا وقد شبَّك يديه أمام صدره وعلى وجهه ابتسامة واثقة ثم قال في سخرية:

- يا لسعدي.. (مادلين) هانم تسعى خلفي.

تمالكت (مادلين) أعصابها وأخذت نفسًا عميقًا تهدئ به من روعها قبل أن تقول وهي تنظر إلى هذا الأخير:

- نعم يا (محمود) في الحقيقة أنا أسعى خلفك.

تساءل (جابر) والابتسامة الساخرة لا تزال على وجهه:

- ولماذا يا ترى.. ماذا فعلت لأنال هذا الشرف؟

قالت (مادلين) بجدية وهي تنظر بمقت لابتسامته الساخرة:

- لا داعي للَّف والدوران يا (محمود).

- لا أفهم.

قالت في حِدَّة:

- بل أنت تفهم جيدًا.

ثم التقطت نفسًا عميقًا زفرته في قوة قبل أن تسأله بثبات:

- أين (كمال) يا (محمود)؟

- (كمال) مَن؟

- أنت تعلم.

ارتسمت معالم الاندهاش على وجهه وإن أيقنت هي أنه كاذب ثم قال:

- وما شأني أنا بهذا الشخص؟!

كررت سؤالها في تحد:

- أين هو يا (محمود)؟

قرَّب وجهه من وجهها وببسمة ترتسم على ركن فمه سألها:

- هل حقًّا تريدين رؤيته؟

أجابت في ثبات:

- نعم.

- والثمن؟.

ألقاها مرة واحدة فرفعت حاجبيها في دهشة قبل أن تسأل:

- ماذا تريد؟

نظر في عينيها قبل أن يسألها هو قائلًا:

- هل ستنفذين ما أطلبه منك؟

أجابته بسرعة:

- سأفعل أي شيء تطلبه.

- أيًّا كان؟!.

أومأت برأسها إيجابًا وهي تردد خلفه قائلة:

- أيًّا كان.

قال وهو يبتسم في سخرية:

- ألهذه الدرجة تحبينه؟

صاحت في عصبية:

- هذا ليس من شأنك.

نظر لها في تحدٍّ قائلًا:

- مَن قال أني أعرف أي شيء عن مكان حبيبك هذا وما علاقتي به من الأساس.. إنني حتى لا أعرفه.

صاحت (مادلين) في عصبية أشد:

- (محمود) لا تراوغني.. كلامك يؤكد أنك تعلم عنه كل شيء وتعرف أين هو الآن فلا داعي لهذه الألاعيب.

ثم تهدج صوتها وانخفض وهي تقول في استعطاف:

- (محمود) أنا أعلم أني جرحتك ولن أبرر لنفسي أمامك ولكن ليكن انتقامك مني أنا ولا تأخذه بذنب ليس ذنبه.

وانحدرت دموعها لتغرق وجهها وهي تُكمل قائلة:

- أرجوك يا (محمود).. أرجوك خذني إليه.

ظلَّ (جابر) يتطلع إليها وهي تبكي أمامه وتستعطفه بينما بداخله بركان يفور ويقذف حمم الغضب لتُغرق كل ما بداخله.. لم تكن الشفقة أو الرحمة لتعرف سبيلًا

إلى قلبه بعد كل ما مر به وما لاقاه من كل مَن حوله لذلك لم يكن يشعر تجاهها في تلك اللحظة سوى بالمقت.. المقت الشديد.

مزيج من المشاعر المختلطة التي لا يعرف لها دواء ولا يملك منها مهربًا..

مزيج من الرغبة العارمة والوله والافتتان مع كثير من البرودة والمقت.

كان كناسك أفنى عمره يتعبد في إله لم يعد يشعر بوجوده أو كحارس أضاع أيامه في حراسة خزائن فارغة لا قيمة لها..

لقد أمضى أيامه الماضية يحلم..

يحلم بحياته مع (مادلين) وارتباطهما الأبدي الذي لا انفصام فيه وكيف سيبدأ حياته معها من البداية..

كيف سيكوِّن أسرة جميلة ويعيش معها أيامًا هانئة سعيدة بعيدًا عن عالم القتل والخيانة..

كيف سيعمل معها ومع والدها ينمي تجارتهما وينسى معهما ماضيه الأسود وأيامه التي أصبحت كوابيس تلاحقه كلما أغمض عينيه..

كيف سيتقدم بهما العمر هو وهي ويشيخا معًا بينما الحب بينهما لا يزال متقدًا والإخلاص والوفاء ميثاقًا لم ولن ينقضوه..

ظلَّ يبني مستقبلًا كقصور من رمال ضربتها موجة قسوتها بلا رحمة..

أوهام عاش فيها بكل جوارحه ليستيقظ منها على صفعة مدوية هزته من الداخل وضعضعت كيانه المتداعي من الأساس..

نعم كانت (مادلين) حبه الأول والأخير لكنها بمنتهى السهولة خانته وتلاعبت بقلبه.. استغلته لتحقيق مصالحها ومصالح والدها بينما عقلها لم ينشغل به.. قلبها لم يلفظ اسمه ولو مرة واحدة.. والآن تأتي

لتستعطفه بل وتبكي بين يديه من أجل شخص آخر.. أي قسوة بل أي قلب هذا؟!.

تركها تبكي وتنتحب أمامه ثم قال لها بصوت جامد:

- لم أكن أعلم أنك تحبينه لهذه الدرجة.

ثم أكمل وقد اتخذ قراره:

- سأجعلك ترينه.

بدأت تشكره بشدة لكنه استوقفها بإشارة من يده وقال:

- لكنك من الآن ستطيعين أوامري بلا مناقشة.

هزَّت رأسها موافقة فسار في طريقه وهي خلفه لا تدري إلى أين يذهب ولكنها كانت على استعداد أن تذهب للجحيم إذا اقتضى الأمر من أجل أن تطمئن على (كمال).. (كمال) الذي لم تفارق صورته عينيها منذ غيابه.. لم تكن تتوقع ولو للحظة واحدة أن تقع

في الحب بهذه الطريقة.. أن يكون عندها استعداد لأن تضحي بكل شيء حتى بحياتها من أجله هو.

ظلَّ (جابر) في طريقه وهي خلفه حتى وصل إلى بنايته ففتح باب غرفته وهو يقول لها:

- تفضلي.

ترددت للحظة فقال يستحثها:

- ادخلي يا (مادلين) ولا تخافي.. سأجمعك بمَن تحبين قريبًا.

دخلت خلفه فأغلق الباب ودعاها للجلوس وهمَّ بإعداد كوبين من الشاي فصاحت (مادلين) قائلة وقد لاحظت ما يفعله:

- ماذا تفعل يا (محمود).. هل هذا وقته؟

قال وهو يحمل الكوبين ويستدير إليها:

- علينا أن ننتظر قليلًا وبعدها سنتحرك معًا لنذهب إليه.

ناولها كوبها قبل أن يجلس بجانبها وهو يقول:

- سامحيني يا (مادلين).. لقد أحببتك بصدق ولم أقصد أن أسيء إليك.

رشفت (مادلين) الشاي في رشفات سريعة وكأنها تستعجل الدقائق لتمر وقالت:

- أسامحك يا (محمود).. ولكن دعنا ننسى ما فات ونسوي خلافاتنا بما يُرضي كل الأطراف.

هز رأسه موافقًا وقال وهو ينظر إليها:

- معك حق.. بعد أن يجتمع شملك أنت و(كمال) سأسوي كل شيء مع والدك.. أعدك بهذا.

ابتسمت له وإن زاغت عينها قليلًا ودارت رأسها فقالت في دهشة:

- ما هذا؟

سألها (جابر) وهو يحملق فيها:

- ماذا بك؟

أجابته بصوت مرتجف وهي تضع يدها على رأسها:

- رأسي تدور بشدة.

ثم نظرت له وهي تجاهد كي تفتح عينيها وقد أصبح وزن جفنيها ثقيلًا:

- إنني أراك بصعوبة.

ثم أكملت في فزع:

- ماذا فعلت بي؟

نهض من مكانه والتقط كوب الشاي من يدها قبل أن يُجيبها قائلًا:

- فعلت ما وعدتك به.. وهو أن أجمعك بحبيبك الفاشل قريبًا.

حاولت النهوض بل جاهدت لتحرر نفسها من أسر هذا الضباب الذي أحاط بعقلها لكنها فشلت وقد خذلتها إرادتها فسقطت مكانها مرة أخرى ومالت على جانبها الأيمن وغرقت في سبات عميق فاقترب (جابر) منها ومد يديه لتحيط برقبتها وهمَّ بأن يعتصرها قبل أن يتوقف مرة واحدة ويده تتراجع وتتحسس جسدها بشبق غلب على عقله وقال وهو يبتلع ريقه بصوت مسموع:

- سأرسلك إليه لكن قبلها ستكونين لي.. لي وحدي.

مد يده ينزع عنها ملابسها بل إنه بالأحرى مزقها من على جسدها بمنتهى العنف حتى وجد نفسه يتطلع إليها وهي تستلقي أمامه عارية وعيناه تتخلل كل تفصيلة في جسدها الذي طالما أثاره.. لم يتخيل حتى في أجمل أحلامه أن تكون بكل هذا القدر من الفتنة.. وكأنه لم ير امرأة أخرى في حياته من قبل.

كانت (مادلين) بالفعل مثال للفتنة المجسدة.. كل تفصيلة فيها كانت تنضح بالجمال والغواية.. خطوط ومنحنيات جسدها كانت وكأنها رسمت بيد رسام عاشق حتى أنفاسها كانت عطرًا يُنفث في أجواء الغرفة الخانقة.. رائحتها التي طالما أسكرته.. أضف إلى ذلك حالة الوله والعشق المسيطرة على (جابر) منذ أن رآها أول مرة لتعرف إحساسه الآن وهو يرقبها عارية.

كل هذا دفعه لينقض عليها مباشرة..

يقتحمها دون تمهيد وبكل ما في الكلمة من معنى وكأن كل عضلات جسده مُسخَّرة لهذا الأمر بل وكأنها خُلقت لهذا من الأساس..

كانت شفتاه تلتقم أي شيء منها ويداه تقبض بقوة على ما تلقاه من جسدها بينما كان يدفع نفسه ليلتحم بجسدها أكثر وأكثر وهو يلهث بشدة من فرط الشهوة.. كان في اغتصابه لها نوعًا من استرداد الحق المسلوب.. نوعًا من التشفي والانتقام.. فالآن والآن

فقط أصبحت (مادلين) له حتى ولو كانت مسلوبة الإرادة.. حتى ولو كانت في غير وعيها.. المهم أنها الآن بين يديه خاضعة له بالكامل يفعل بها ما يشاء وهو كان يتمنى هذه اللحظة منذ فترة طويلة منذ أن صاحبته في خيالاته وصارت سيدة أحلامه بلا منازع.

ظلَّ يضاجعها بقوة وبلا توقف لمدة طويلة.. كان ينهل منها فلا يرتوي ولا تنطفئ ناره فينهل من جديد حتى تفصدت قطرات العرق من جسده لتغمرهما معًا.. وتصاعد لهاثه أكثر وأكثر حتى صار كشهقات جائعة للهواء وهو لا يتوقف حتى فقد القدرة على التحكم في نفسه وتقطعت أنفاسه فهمدت حركته بعد أن طبع بصماته على كل جسدها فهمَّ بتنفيذ ما كان سيفعله منذ البداية وما وعدها به من قبل إلا أن أصابعه تجمدت مرة أخرى ليس بسبب الرغبة هذه المرة ولكن بسبب صوت الطرق الشديد..

الطرق الذي تصاعد على باب غرفته.

* * *

كانت لحظة قاسية بالنسبة إليه.. ف(مادلين) أمامه لا تزال مستلقية فاقدة الوعي وهو وهي لا يزالان على عريهما.. إن هذا الزائر والحق يقال اختار أسوأ الأوقات للزيارة.. إلا أن هذا لم يمنع (جابر) من أن يتصرف بسرعة قدر المستطاع فارتدى ملابسه على عجل وحَمَل (مادلين) الغائبة عن الوعي ووضعها في الحجرة الأخرى وأغلق الباب عليها بإحكام قبل أن يُعَدِّل من هندامه وهو يصيح:

- أنا قادم.

قالها وفتح الباب ليطالعه وجه صغير.. كانت (انتصار) ابنة الحاجة (سميحة).. المريضة التي تسكن الدور العلوي.. أول ما رآها حتى ارتفع حاجباه في دهشة فهذه كانت أول مرة تطرق عليه باب غرفته لذلك سألها:

- ماذا هناك يا (انتصار)؟

أجابته وعيناها تجوبان فضاء الغرفة من خلفه:

- لا شيء.. لقد كنت صاعدة لمنزلنا فسمعت أصواتًا عالية تنبعث من هنا فخفت أن يكون هناك شيء ما أو أن يكون مكروه قد أصابك فنحن جيران وأنت كنت شهمًا مع أمي في مرضها آخر مرة حين تبرعت بشراء الدواء بنفسك.

هز رأسه أن لا شيء هناك وهمَّ بقول شيء ما إلا أنه قاطعته آهة ألم انبعثت من داخل الغرفة.. كانت آهه خافتة لكنه التقطها وخشي أن تكون الفتاة أيضًا قد سمعتها لذلك سألها وهو يتابع مسار عينيها القلقتين:

- هل تبحثين عن شيء؟

أجابته بسرعة مذعورة:

- أنا.. لا أبدًا.

فقال (جابر) وهو يُفسح لها الطريق ويقول بينه وبين نفسه أن اليوم ستكون هناك جثتين لا جثة واحدة:

- إذن ادخلي يا (انتصار).. لن تبقي بالخارج هكذا.

تراجعت للخلف في خوف واضح وهي تصيح:

- لا.. لا.. لقد تأخرت على أمي.

ثم اتبعتها وهي ترتقي درجات السلم بسرعة:

- لقد كنت فقط أطمئن عليك.

تابعها حتى غابت عن نظره وقد بدأ الشك يدبُّ في قلبه من ناحية هذه الفتاة فهي على صغر سنها تملك عقلًا راجحًا وتتصرف أكبر من سنوات عمرها العشر كما أن تصرفها هذا يدل على أنها تشُك فيه أو أنها لاحظت أشياء الفترة الماضية يحاول هو إخفاءها قدر المستطاع لكن لكل شيء وقته ليرجئ الآن التفكير في تصرفات هذه الفتاة المريبة وليركز حاليًا على ما بدأه ولم ينهه بعد لذلك أغلق باب غرفته جيدًا وأشعل كمية البخور الضخمة التي اعتاد إشعالها حتى صارت لا تنقطع من عنده ثم توجه للغرفة الأخرى ليفتحها ويدلف إلى الداخل.

كان يتوقع أن يجد (مادلين) وقد بدأت تستفيق من غيبوبتها لكنه فوجئ بمَن تنقض عليه في شراسة وتغرس أظفارها في وجهه بمنتهى القوة حتى أنه أطلق صرخة ألم شديدة قبل أن يدفعها بعيدًا عنه وهو يقول في قسوة:

- كنت أعلم أنك مختلفة.

ثم هجم عليها وانهال على وجهها بالضرب المبرح حتى تراخت مقاومتها فألصق وجهها بالحائط وكبَّل ذراعيها خلف ظهرها بيده اليمنى وأحاط عنقها بذراعه اليسرى وقال وهو يُقرِّب شفتيه من أذنها:

- أنت مختلفة عن الأخريات حتى في الموت.

حاولت (مادلين) أن تقاوم وأن تخفف ضغط ذراعه عن عنقها..

أن تجاهد لتحرر نفسها..

أن تستغل القوة الدافعة التي تعطيها لها غريزة البقاء لتقاتل وتحيا.. لكن حالتها بعد التخدير وأيضًا إرهاقها لحد الإنهاك ودماؤها التي تُغرق أسفلها بعد الانتهاك الوحشي الذي تعرضت له كانت كلها عوامل تلعب ضدها في مباراة غير متكافئة كانت نهايتها محسومة قرأتها قبل أن تبدأ فتدريجيًّا قلَّت مقاومتها وتهاوت ضربات يديها اليائسة وبدأت الدنيا تظلم من جديد ولكن بشكل أخير هذه المرة ولم تسمع قبل النهاية سوى جملة واحدة قالها (جابر) بمنتهى البرود وهو يُقبِّل جانب وجهها بينما ذراعه الأخرى تعتصر الحياة منها اعتصارًا:

- حقًّا.. أنت خسارة في الموت.

٧ ٧ ٧

الفصل التاسع عشر

حقًّا لم تعد الأمور كما كانت في الحي كله.. صار الأمر أكبر من السكوت عليه ومن مجرد إشاعات وحوارات جانبية تتبعها مصمصة شفاه بل صارت حوادث الاختفاء والقتل محور أحاديث الناس بلا منازع يبدءون يومهم بها ويستمرون خلاله في متابعتها ويُنهونه وقد حللوا وفندوا ووضعوا الاستنتاجات فقط ليبدأ يوم جديد بأحاديث جديدة لا تنتهي.

بعد مضي أكثر من يوم على اختفاء (مادلين) لم يعد أمام (استيفانوس) سوى حل واحد أخير وهو أن يُبلغ الشرطة.. والحقيقة أن بلاغ (استيفانوس) كان مثار اهتمام كبير من رجال الأمن خاصة وهو ليس البلاغ الأول لوقائع اختفاء فتاة بل هو الثالث حيث سبقتها كل من (زينات) و(درية) بل وتعدى الأمر خطف الفتيات ليأتي بلاغ عن غياب واختفاء شاب في مقتبل العمر يدعى (كمال أنطون).

كان (استيفانوس) الآن في حالة يرثى لها من التوتر والخوف..

إحساس بالبؤس انتابه منذ غابت شمسه التي رافقته أيامه دون لحظة غياب..

نعم كانت تلك أول مرة تغيب عنه فيها (مادلين) كل هذه المدة.. لقد أحس الآن كم يفتقدها وكيف أنه لم يعرف حياة الوحدة من قبل ولا يتخيل أن يعيش لحظة واحدة من دونها..

كان على استعداد أن يدفع كل ثروته في سبيل أن يطمئن عليها ويراها أمامه مرة أخرى.. أن يعرف فقط أنها بخير وأنه لا مكروه أصابها.

كان القلق يعتصره لأنه حتى الآن لا سبيل يهتدي به إليها وليس هناك دليل يقوده أو يقود غيره لمكانها.. حتى رجال الشرطة الذين أبلغهم بنفسه وأفضى لهم بكل مخاوفه وشكوكه وشاركهم وساوس تنهش قلبه وتكاد تفتك بعقله لم يُقدموا له أي جديد وكأن ابنته

مثلها مثل غيرها ممَّن سمع عنهم وعن اختفائهم قد ذابت بلا أثر كحبة ملح في بحر عريض أو كإبرة في كومة قش.

سارت التحقيقات في رتابة كالعادة وانتهت على لا شيء بل وتحمَّل مرغمًا غمزات بعضهم بأن ابنته ربما هجرته مع عشيقها وهذا يفسر سبب اختفائهما معًا وفي نفس التوقيت أما عن شكه في (محمود) والذي أفضى به إليهم فلم يجد لديهم أذنًا مُصغية خاصة وأنه لا يوجد دليل واحد على علاقته بالأمر كما إن شهادة صاحب المقهى (شعبان جودة) جاءت كلها في صالحه حيث قال إنه كان معه الفترة الماضية في أعمال المقهى وكان يمضي معه أغلب اليوم تقريبًا من الصباح الباكر للمساء كما أن هناك أيضًا سببًا وجيهًا جعلهم يستبعدون أي شبهة عليه.. وهو أن (استيفانوس) نفسه لم يذكر في أي تحقيق رسمي صلته ب(محمود) ولا الأعمال المشبوهة التي كانا يرتبان لها سويًّا.. كانت خشيته من افتضاح أمره وإدانته باعترافه تجعله يُخفي تلك المعلومات عن أي

أحد ربما لأنه لم يكن يملك الدليل الذي يدعم به مزاعمه ولأن أحدًا ممَّن يشاركونه هذا العمل الخفي لن يتبرع بالشهادة في قضية تدينه من أجل أمر لا ناقة له فيه ولا جمل فلا موظف الميناء ولا حتى السائق سينطقون بحرف بل سينكرون أي معرفة لهم ب(محمود) وبه هو شخصيًّا.

انتهى به الأمر وحيدًا في منزله لا يدري ماذا يفعل وقد أُسقط في يده.. جلس متفكرًا يحسب خطواته القادمة وسط طوفان من مشاعر اليأس والإحباط حتى لاح له اسم ظهر فجأة أمام عينيه وأضاء بقوة داخل عقله..

(سليم فتوح)..

كان (سليم) من أكثر الداعمين له أثناء بحثه عن ابنته وهو أكثر مَن التفت لكلماته وأثار اهتمامه اسم (محمود) الذي أتى على لسانه في التحقيقات وقد دبَّ الشك في قلبه أكثر حين عَلِم من (استيفانوس) أن (مادلين) كانت تحب (كمال) هذا بحق ولأنه هو يعلم

شخصيتها جيدًا فهو متأكد من أنها لم تهرب معه بل هي ليست في احتياج لهذا من الأساس فهى قادرة بكل تأكيد على فرض إرادتها حتى على والدها ولو شاءت أن تحب (كمال) فستحبه.. ولو شاءت أن تتزوجه فستتزوجه مهما كانت الصعوبات أو التحديات.

كان اللقاء بينهما في الوكالة عند (استيفانوس)..

على مكتب الأخير وبعيدًا عن مسترقي السمع وفي وقت تأخر فخفَّت فيه أرجل الزبائن وقلَّت حركة البيع جلس (سليم) ببنيانه الضخم كما اعتاد كملك متوَّج أراح ظهره في المقعد ووضع ساقًا على الأخرى قبل أن يسأل (استيفانوس) الذي يجلس مترقبًا:

- طلبت لقائي أكثر من مرة يا خواجة فماذا تريد؟

أجاب (استيفانوس) بصوت حزين مكسور:

- ابنتى.. ابنتى يا (سليم) بك.

قلّب (سليم) كفيه في حيرة وهو يقول:

- وماذا بيدي لأفعله يا (استيفانوس).. لقد تابعت معك التحقيقات من بدايتها لنهايتها وهذا من أجل خاطرك ثم إن البحث لا يزال جاريًا عنها حتى الآن وأنا أتابعه من أجلك يوميًّا ماذا أفعل أكثر من هذا؟

- أن تأتي لي بابنتي.

قالها (استيفانوس) فحدّق فيه (سليم) وقد ظن بعقله الظنون قبل أن يقول في دهشة:

- تتحدث كما لو كنت أنا خاطفها.

- لست خاطفها لكنك تعلم مَن هو.

هز رأسه في فهم وأردف:

- تقصد (محمود).

أومأ (استيفانوس) برأسه إيجابًا وقال في أسى:

- نعم (محمود).. ليس هناك غيره ولا يوجد أحد آخر مُستفيد من خطفها أو قد يتسبب فيه غيره هو.

تساءل (سليم) في دهشة:

- ولماذا (محمود) بالذات؟

- لا أفهم.

قالها (استيفانوس) متصنعًا الجهل فقال (سليم) في صرامة:

- بل أنت تفهمني جيدًا.. قلت إنه المستفيد الوحيد من خطفها فلماذا؟

صمت (استيفانوس) ولم يُعقب فحدَّجه بنظرة أكثر صرامة وقال:

- ما وجه استفادته من خطف ابنتك ثم ما علاقتك به من الأساس.. ما الذي يجمع بين خواجة صاحب وكالة مانيفاتورة كبير مثلك وشاب صعيدي يعمل في مقهى؟

ظلَّ (استيفانوس) على صمته فهبَّ (سليم) من مكانه وصاح في غضب:

- لا داعي لإضاعة وقتي بعد الآن ما دمت أنت تريد أن تبقى على صمتك هذا.

هبَّ (استيفانوس) من مكانه بدوره وأمسك بيده يستبقيه قائلًا:

- اجلس يا (سليم) بك من فضلك.

ثم حنى رأسه في يأس قائلًا في استعطاف:

- لا تتركني في هذا الموقف أرجوك.

بقيَ (سليم) في مكانه يتطلع إليه بملامح غاضبة فقال (استيفانوس) مرة أخرى وكأنه يستحلفه:

- أرجوك.

- ستخبرني بكل شيء وستكشف الغموض عن علاقتك بهذا الشاب إن كنت تريد مساعدتي.

هز (استيفانوس) رأسه موافقًا فعاد (سليم) ليجلس مكانه فجلس (استيفانوس) هو الآخر خلف مكتبه وقال:

- ماذا تريد أن تعرف؟

أجاب (سليم) في صرامة منذرة:

- كل شيء.

أخذ (استيفانوس) شهيقًا عميقًا وزفره في قوة ليخفِّف من حِدَّة توتره وجال ببصره حولهما ليتأكد أنه لا أحد قريب أو يسترق السمع لحديثهما قبل أن يقول:

- ما سأخبرك به الآن سري الخاص الذي لا يعرفه أحد سوى أقرب الناس إلي ولهذا السبب لم أكن أستطيع أن أبوح به لأحد حتى أثناء التحقيقات.

أثارت الجملة الأخيرة انتباه (سليم) ودغدغت الحاسة الأمنية لديه فنظر إلى (استيفانوس) باهتمام يستحثه أن يُكمل فقال الأخير:

- لقد كنت أقوم ببعض الأعمال في الخفاء بعيدًا عن أعين الجميع وكانت ابنتي (مادلين) تساعدني في بعض هذه الأعمال من آن لآخر لكني كنت أُبعدها عن كل الأعمال الخطرة التي تحتاج رجلًا للقيام بها وكنت أقوم بها وحدي حتى رأيت (محمود) ففكرت أن أجعله يقوم هو بهذه الأعمال الخطرة ويكون في المواجهة وأبقى أنا وابنتي بعيدًا عن الأعين.. لقد قلت لنفسي لِم لا وقد كبرت ولم أعد قادرًا على هذه المشقة وهو شاب صغير ووحيد بلا أهل أو أقارب.

- وهل قَبِل؟

سأل (سليم) فابتسم (استيفانوس) ابتسامة خفيفة سرعان ما زالت من على وجهه وقال:

- لا أحد يرفض طلبًا ل(مادلين).

ابتسم (سليم) في سخرية قبل أن يعود ويسأل:

- وما هو نوع الأعمال التي كنتم تقومون بها؟

تحرَّج (استيفانوس) في الإجابة للحظات قبل أن يقول بصراحة:

- كنا نُهرِّب البضائع من الميناء لمخزن سري خاص بي.

أطلق (سليم) صفيرًا من بين شفتيه وهو ينظر إلى (استيفانوس) في دهشة قبل أن يقول:

- التجارة في البضائع المهربة أكثر ربحًا بالتأكيد.. أليس كذلك؟

قال (استيفانوس) في مقت:

- كان هذا قبل أن يطمع فيَّ هذا الوغد ويشق عليَّ عصا الطاعة.

- ماذا فعل؟

تساءل (سليم) فأجاب (استيفانوس) بمقت أشد:

- سرقني.

ظلَّ (سليم) على صمته وبدا وكأنه غير مندهش من حدوث هذا الأمر فتابع:

- آخر مرة ذهب كالعادة إلى الميناء وكما هو متبع كان سيستلم البضائع ويعود بها إلى المخزن ليتم تخزينها هناك.. لكنه طمع في المكسب كله لنفسه وأخذ السيارة إلى مكان آخر لا نعلمه أفرغ فيه البضائع وباعها لحسابه.

- وماذا فعلت أنت؟

- هددته.. لكنه رفض الانصياع بل وهددني بالمقابل ولم أدر ماذا أفعل خاصة وأن (مادلين) رفضت أن تُكمل علاقتها به أو أن يكون لها دخل بمثل هذه المواضيع مرة أخرى حتى استحلفتها كي تتدخل بدلًا من أن يضيع كل شيء في غمضة عين فاقترحت أن نجعل (كمال) فتاها التي تربطها به قصة حب وتستطيع أن تأتمنه على أسرارنا يسير خلف (محمود).. قالت إنه لا يعرف شكله ولم يره من قبل

دودة الكتب حرامية

ويمكنه أن يلاحق خطاه أينما ذهب عسى أن يكتشف هو ما خفي عنا نحن.

مط (سليم) شفتيه قبل أن يقول:

- وطبعًا اختفى (كمال) هذا بلا أثر.

قال (استيفانوس) بسرعة:

- بل تبخر.. لقد قلبنا الدنيا كلها بحثًا عنه دون جدوى فلا أحد في محيط مسكنه أو عمله يعلم عنه أي شيء.

- ها.. وماذا بعد؟

أجاب (استيفانوس) في ألم:

- بعد مرور أكثر من يوم على اختفائه أرادت (مادلين) أن تبحث عنه.. كان إحساسها بالذنب يكاد يقتلها خاصة وأنها هي مَن طلبت منه هذه المهمة فقررت أن تسعى هي خلف مَن صار محل شكوكنا كلنا.. (محمود).

عودة الكاتب حرامية

- واختفت هي الأخرى.

قالها (سليم) منهيًا قصة (استيفانوس) فانتحب الأخير بصوت مسموع وقال:

- أنا لا أدري كيف أتصرف ولكن كل ما أعرفه أن هذا الوغد لا بد وأنه خلف كل ما حدث لذلك لجأت إليك لتساعدني.

تساءل (سليم) في مكر:

- وكيف أساعدك يا (استيفانوس)؟

قال الأخير في مداهنة:

- أنت رجل ذو سطوة ونفوذ وتقدر على فعل الكثير.

مد (سليم) يده وفرك سبابته وإبهامه في علامة واضحة وهو يقول:

- ولكن هذا أيضًا سيكلفك الكثير.

عودة الكتب الحرامية

بصبر وبأسلوب تاجر اعتاد البيع والشراء قال (استيفانوس):

- سيكون لك كل ما تطلبه وأزيدك عليه أيضًا لكني أريد عودة ابنتي سالمة في أسرع وقت مع تأديب الكلب الذي تسبب في غيابها.

قال (سليم) في حذر:

- لنأمل فقط أن يكون تحركنا في الوقت المناسب.

صاح (استيفانوس) في هلع:

- أتعني أنه ربما يكون قد..

لم يستطع إكمال جملته فقال (سليم) بسرعة:

- أنا لا أقصد شيئًا ولا حتى أتكهن بما لا أعرفه لكني أضع أمامك جميع الاحتمالات.

ثم قام من مكانه في ثقل وقال وهو يستدير ليغادر المكان في حزم واثق:

دودة الكتب حرامية

- سأرى ما يمكنني عمله.

قالها وغادر تاركًا (استيفانوس) يجلس متهدمًا في مقعده لا يحرك ساكنًا..

يلملم أشلاء نفسه التي مزقتها كلمات (سليم)..

وقلبه يبكي في صمت غياب شمسه..

(مادلين).

٧ ٧ ٧

الفصل العشرون

حين لاحظ وقوف رجال (سليم) على مسافة من المقهى يرصدون حركاته ويترقبون عَلِم أن اللقاء قريب.. اللقاء الذي لن يُبدي فيه (سليم) أي لمحة من تساهُل أو أي ذرة من شفقةٍ أو رحمة.

كان يعلم أن اللقاء هذه المرة لن يكون للتحقيق معه أو حتى بغرض تأديبه كما المرة السابقة بل سيكون فيه نهايته لذلك أنهى عمله في المقهى وهمس في أذن (شعبان) بكلمات حذرة انقلبت على إثرها سحنة الأخير وغادر يقصد وقوفهم.. كان سيره في هدوء تجاهم محط استغراب وتساؤل ودهشة غلبت عليهم فعلهم فتثبتوا في أماكنهم وأُلجمت ألسنتهم حتى وقف هو بينهم وقال بمنتهى الهدوء:

- هيا بنا.

نظروا لبعضهم البعض وحاروا فيما يفعلون.. لقد كانوا يتوقعون هروبه أو حتى إبداء مقاومة كانت

ستسعدهم وتدفعهم لممارسة هوايتهم في ضربه أو التنكيل به لكن تصرفه قَلَب عليهم الطاولة فساروا به تجاه قسم الشرطة بدون كلمة واحدة حتى وجد (جابر) نفسه أمام مكتب (سليم) الذي ابتسم ابتسامة قاسية وقال:

- ها نحن نلتقي مرة ثانية يا عزيزي.

نظر له (جابر) في هدوء تعمده فقال (سليم):

- أرجو أن تكون قد تعلمت من المرة السابقة ولا ترهقني في استجوابك فإن لصبري حدودًا تعرفها لذلك سأسألك سؤالًا وأتوقع منك إجابة فورية بلا كذب أو مواربة.

ثم مال على مكتبه مكملًا:

- أين (مادلين)؟

ظلَّ (جابر) على صمته لفترة قبل أن يقول ببطء:

- لا أعلم عنها شيئًا.

نظر له (سليم) في غضب وسأله سؤالًا آخر:

- وأين الفتى (كمال)؟

أشاح (جابر) بوجهه إلى الناحية الأخرى ولم يُجب فقال:

- هكذا.

ثم نهض من خلف مكتبه وأمسك بتلابيبه وهو يقول بصوت كظيم:

- اسمعني جيدًا يا ابن العاهرة.. أنت لن تخرج من هنا حتى تنحل عقدة لسانك فتُخرِج جوابًا يرضيني وبعدها ستسترحمني ولتأمل أن يكون في قلبي متسع لرحمة لك.

ثم دفعه بمنتهى القوة ناحية رجاله الذين التقطوا الإشارة فانهالوا عليه ضربًا وصفعًا كوحوش جائعة

وجدت من فورها فريسة مستسلمة حتى انبجس الدم من مواضع شتى في جسده وهو يكتم أناته حتى لا تسعد أذني معذبيه فتكوم على الأرض يعض شفتيه في ألم وغضب بينما الأرجل تستبيح كل بقعة من جسده فتُصدِع العظام وتهرس اللحم حتى غاب عنه وعيه بعد أن فقدت إرادته القدرة على المقاومة.

حين أفاق مرة أخرى على إثر دلو من الماء البارد انسكب على رأسه كان في مكان غير المكان..

حجرة أخرى أشبه بقبو مظلم بلا نوافذ لا تدخله الشمس ولا يُسمع من داخله صوت.. كان مُقيدًا لمقعد في منتصف الحجرة وقد رُبطت يديه خلف ظهره وقدميه إلى بعضهما البعض وأمامه كان (سليم) يقف بين رجاله ويتطلع إليه مبتسمًا كفاتح منتصر ينظر في وجه عدو متهدم ضاعت هيبته بعد أن فقد كل نصير له وقال:

- جميل أن استعدت وعيك حتى نُكمل ما بدأناه.

جز (جابر) على أسنانه من فرط الألم والبغض وهو يقول متوعدًا:

- سيأتي يوم تفقد فيه هيبتك المزعومة هذه وعندها لن ينجيك أحد.

ابتسم في سخرية أشد وقال:

- عندما يأتي هذا اليوم.. هذا إن أتى.. ستكون أنت قد تعفنت في قبرك منذ زمن.

- لن أدخل قبري قبل أن أراك ذليلًا.

أطلق ضحكة مجلجلة ثم قال:

- يبدو أن الضرب أفقدك عقلك.

ثم انقلبت ملامحه إلى الجدية وقال:

- والآن كفى هراءً وأخبرني أين (مادلين) وفتاها؟

صاح (جابر) في غضب:

- اسأل صديقك فهو يعلم.

انعقد حاجبا (سليم) وقال في تساؤل:

- صديقي مَن؟

قال (جابر) في تحد:

- (استيفانوس).

قال (سليم) في سخرية مستنكرة:

- أتقول أنه مَن خطفها..

ثم أكمل في صبر:

- يا فتى كن عاقلًا أم تريدني أن أصدق أن الأب هو مَن خطف ابنته.

قال (جابر) في تحد أكبر وهو يُكمل الدور الذي بدأه:

- لا ولكنه يعلم أين يُخفيها وأين يُخفي جثة عشيقها الخائن.

انطلقت الكلمات كالسهام نحو عقل (سليم) تخترقه..

لكن عقل هذا الأخير كان كالحصن المنيع..

عقل فُطر على الدهاء والمكر.. عقل أثقلته الخبرة ودربته الدسائس والمؤامرات فتلقى السهم بأريحية وفنَّد الرسالة التي يحملها بكل صبر..

ما الذي يجعله يصدق كلام هذا الفتى؟..

ما الذي قد يدفع (استيفانوس) لحجب ابنته وقتل حبيبها؟..

بل وما الذي يدفعه للاستعانة به وطلب خدماته ونقده كل هذه الأموال إن كان هو حقًّا الفاعل الحقيقي؟..

توقف عقله كثيرًا عند التساؤل الأخير ثم ببطء كَسر السهم المسموم وتحركت شفتاه لترسم بسمة على ركن فمه الأيسر قبل أن يقول:

- محاولة فاشلة أيها الغرير.

ثم اقترب بنفسه من المقعد المقيد إليه (جابر) وصفعه صفعة هائلة على وجهه ثم قال في صرامة غاضبة:

- عندما تفكر في خداع الذئب لا تفكر بعقل حمل.

ثم قبض على شعره بيده ورفع رأسه قائلًا:

- لآخر مرة أين هما وماذا فعلت بهما؟

أجاب (جابر) في إنهاك:

- لو أعطيت نفسك الفرصة لتسمعني وتفكر في كلامي فستعرف حتمًا أين هما.

حرر (سليم) شعره وجذب مقعدًا آخر ليجلس قبالته وهو يشير لرجاله بمغادرة الغرفة وتابعهم بعينه حتى خرج آخرهم ثم التفت إلى (جابر) المُقيد آمرًا:

- تكلم.

التقط (جابر) أنفاسه وبصق دماءً تجمعت في فمه قبل أن يقول:

- لا شك لدي في أنك تعلم عن الخواجة (استيفانوس) وما يقوم به من أعمال في الخفاء لكن ما لم يقله لك أنني أنا و(كمال) كنا رجاله الذين يعتمد عليهم في مثل هذه الأعمال وكانت معنا (مادلين) أو بالأصح نحن مَن كنا معها فهي الصنارة التي يصيد بها مَن يريد أن يوقعهم في حبائله فيجعلها تتقرب منه وتُغريه.. تلعب على وتره الحساس فتستولي على قلبه وتستخدم فتنتها ومكرها لتسيطر على عقله فيكون طوع بنانها كالخاتم في أُصبعها ولو أبدى أي بادرة من رفض أو اعتراض تتمنع عليه وتعرض عنه حتى يأتي إليها زاحفًا على بطنه.. خاشعًا راجيًا ألا تطرده من جنتها وألا تسلبه وهمه الذي يُصليه ويشتعل به فؤاده..

تمتم (سليم) في سخرية مقاطعًا:

- ونعم الرجال.

ثم قال يستحثه على المتابعة:

- أكمل.

تنهد (جابر) بقوة وقال:

- لا تلُمني فلم يكن الأمر بيدي أو بيد غيري وأنا لا أبرر ما فعلته لكني أريدك أن تعرف أنني كنت كالمسحور.. غيبتني بدلالها وفتنتها وأعطتني أملًا راودني وعشت عليه أيامي وحلمًا صاحبني في صحوي ومنامي.

- أأصبحت تقرض الشعر فيها؟

جال في ذهنه مشهد جثتها العارية وهو يقول:

- بل أقتل من أجلها لو اقتضى الأمر.

قال (سليم) بنفاد صبر:

- فهمنا أنك كنت ومَن معك مسحورَيْن بجمالها وقد ساقتكما كما شاءت كالخراف فماذا بعد؟

- كان لا بد لهذا السحر أن ينفك خاصة وأنها ضاقت بنا وأصبحت تتجاهلنا وقد علِمت أنها مارست أفاعيلها

على (كمال) كما مارستها علي وهو أيضًا عرف هذه الحقيقة لكنه لم يغفر أو يسامح وتحول حبه لها نار غضب تحرقه وتحرق مَن حوله وقد قرر الانتقام منها ومن أبيها وعرض عليَّ مشاركته لكني رفضت..

سأله (سليم) بدهشة:

- ولماذا؟

أجاب (جابر) وهو يخفض عينيه:

- لم أستطع.. كان حبي لها يغللني ويجعلني أقبل منها أي سوء معاملة وكنت أنتظر أن تغيِّر معاملتها لي حين تعلم أنني ظللت وفيًّا لها.

- و(كمال)؟

أجاب (جابر) وكأنه كان يتوقع السؤال:

- خانهم.. وقام بآخر عملية لحسابه وتهرب من سداد أموال البضائع لهم فقرر (استيفانوس) الانتقام منه

على طريقته.. والآن يريد أن يُلصق التهمة بي لأني الشاهد الوحيد على ما حدث.

- ولماذا لم يذكر (استيفانوس) هذا الكلام في التحقيقات وما الذي يدفعه أن يبوح باتهامه لك لي أنا؟

قال (جابر) مفسرًا وهو يشعر برعشة قوية لا يدر لها سببًا ترجفه بشدة ويقشعر لها بدنه:

- لم يكن يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام في تحقيقات رسمية فهذا يُدينه هو قبل غيره لكنه عمد لزرع بذرة الشك في قلبك تجاهي كي يجعلك تسير في طريق رسمه لك ويُبعد الشكوك من حوله.

عاد (سليم) يسأل:

- وأين (مادلين) الآن؟

هز (جابر) رأسه بمعنى أنه لا يعرف وقال:

- أكيد يُخفيها في مكان ما وقد يكون أخرجها خارج البلاد فقد سمعت أنه يصفي أعماله وربما سيحاول الهرب واللحاق بها.

أنهى (جابر) حكايته فهز (سليم) رأسه رافضًا وقال:

- لا أصدقك.. ولا يوجد دليل واحد على صدق كلامك.

في اللحظة ذاتها دخل أحد رجاله المكان ومال عليه ليهمس في أذنه ببضع كلمات غيرت معالم وجهه قبل أن ينظر إلى (جابر) مصعوقًا..

فقد كان ما سمعه يغيِّر كل شيء ويُدير الأمور كلها..

يُديرها رأسًا على عقب.

v v v

الفصل الحادي والعشرون

كان الكشف مذهلًا وقَلَب الدنيا رأسًا على عقب كما توقع (سليم) بالضبط فمَن كان يتصور أن الخواجة (استيفانوس) الذي كان الكل يتعاطف معه ويواسيه في حادثة اختفاء ابنته يصبح اليوم متهمًا بجريمة قتل كشفت الغموض حول اختفاء شاب يوناني آخر هو (كمال أنطون).

بدأ الأمر حين تلقت إدارة الأمن العام رسالة من مجهول تخبرها بوجود جثة الشاب اليوناني المختفي في مخزن قديم يمتلكه اليوناني (استيفانوس) صاحب وكالة القماش والمانيفاتورة الكبيرة وعلى الفور وفي استجابة سريعة ناتجة عن حالة التخبط الشديد وكثرة بلاغات الاختفاء في الفترة الأخيرة داهمت قوة كبيرة من رجال الأمن المخزن السري الخاص ب(استيفانوس) فقلبت كل ما فيه ونبشت أرضه حتى عثرت على جثة (كمال) المدفونة في

أرضية المخزن ومعها فتاحة خطابات منقوش عليها أحرف اسم سيشغل رجال الشرطة لفترة طويلة.

اسم (استيفانوس).

كان الحدث جللًا وتصاعد الصخب من حوله وما كان همسًا من قبل أصبح الآن يخترق الآذان.. فجريمة مثل هذه لم تكن معتادة ولم يُسمع بها من قبل وكالعادة أخذت هذه الجريمة حيزًا كبيرًا من اهتمام الناس ومن محاوراتهم بل وتطوع البعض بتجويد التفاصيل والملابسات بإضافات من وحي خياله حتى إن أخبارها ظهرت في الجرائد الرسمية وتبادل الجميع الآراء حول تطور الجريمة في المجتمع المصري وحالة القسوة وتبلد المشاعر التي أصابت الناس وما هي أسبابها وكيفية علاجها والجميع ينتظر حكم القضاء العادل الذي سيشفي الغليل في الصدور ويُعيد الحق لأصحابه بأخذ القصاص.

كل هذا الصخب لم يتسرب ولو للحظة إلى أذني (جابر).. فبعد يومين من اكتشاف جثة (كمال) لم يجد

(سليم) بدًّا من الإفراج عنه وإطلاق سراحه بعد أن غلبته دفة الأمور وسارت في طريق آخر رُسم لها بدقة لكنه رغم ذلك أطلق سراحه على وعد بلقاء ثان ينهي فيه ما بدأه وقد قال له أثناء خروجه:

- لن تغيب عن عيني لحظة واحدة.

وصلت الجملة إلى أذني (جابر) ضعيفة متقطعة مع حالة انعدام الوزن التي أصابته فما كان يشعر بها رجفة أو رعشة أصبحت الآن هزة تزلزل كيانه وتجعله ينتفض مع تفصد العرق البارد من كل جزء في جسده ليسيل مختلطًا بدمائه في لوحة صارخة عنوانها التعذيب.

لم يدر كيف وصل إلى بيته لكن كل ما يذكره أنه سقط على عتبة الدار بلا حراك لتتلقفه أيدى الحاجة (فردوس) بعد أن استنجدت ببعض جيران الحي فحملوه إلى حجرته وجسده لا يكف عن الانتفاض من فرط الحمى التي ضربت جسده وغلَّفت وعيه وغيبته عن كل ما حوله في الوقت الذي ظلَّت فيه الحاجة

(فردوس) بجانبه ترعاه وتدفِّئه وتضع الكمادات الباردة على جبينه الملتهب عملًا بنصيحة الطبيب حتى تأخر الوقت ومعه فقدت هي أيضًا قدرتها على المواصلة فجاءت ب(انتصار) ابنة الحاجة (سميحة) جارتها وطلبت منها البقاء بجواره وعلمتها كيف تُبدل الكمادات كل فترة على جبينه كي تهدأ حرارته ورغم تهيُّب (انتصار) وخوفها غير المبرر حتى من مجرد دخول الغرفة إلا أنها قبلت صاغرة في النهاية تحت ضغط كبير من (فردوس) التي غادرتها تاركة إياها وحيدة معه فجلست على طرف السرير وقد حافظت على مسافة بينها وبينه تهيبًا وخوفًا.

منذ فترة ليست بالقصيرة و(انتصار) تلاحظ أمورًا كثيرة.. أمورًا غريبة تُثير ريبتها في (محمود) وتجعلها تخشى حتى مجرد الاقتراب منه..

منذ شاهدت (زينات) وهي تتردد عليه في غرفته وسمعت بعض محاوراتهما إلى اختفائها المفاجئ ودون أدنى أثر..

منذ أن رأت ذلك الرجل الغريب الذي حضر إلى غرفته ولم تشاهد خروجه حتى الآن..

أصوات العنف والحركات الصاخبة والصرخات المكتومة التي سمعتها تنبعث من داخل غرفته والتي توحي بأن هناك مَن يتصارعا بالداخل مما دفعها لطرق بابه لتجلي الغموض وتستكشف الحقيقة لكنها فوجئت به يفتح بابه في هدوء جعلها تشك حتى في حواسها خاصة مع سنها الصغيرة والتي ستجعل الكثيرين يشككون في صدق قولها فآثرت الصمت.

تصارعت الأفكار داخل عقلها الصغير بقوة آلمتها فهزت رأسها لتنفض عنها كل هذا ما جعلها تفيق من شرودها وتُسرع لتبديل الكمادات الباردة على رأس (جابر) الذي كان في هذه اللحظة غائبًا تمامًا عن كل ما حوله وواقعًا تحت سطوة الأحلام التي تتقاذفه كموج البحر المتلاطم وقد عاد بعقله وكل كيانه إلى هناك حيث بدأ كل شيء..

إلى قريته..

كان الظلام يكتنف الموجودات من حوله والصمت والسكون يخيمان على كل شيء حتى بدا المشهد كلوحة جامدة لا حياة فيها.. فلا صوت لهواء أو حفيف شجر.. نباح كلب ضال أو نقيق ضفدع.. أو حتى صوت رتيب لحشرات الليل.

كان منهكًا والضعف يدُّب في بدنه كله لا يجعله يقوى حتى على السير فكان يتطوح يمينًا ويسارًا ويستند بيده على جدران البيوت وجذوع الأشجار بينما أنفاسه وكأنها تصارعه فتأبى الدخول إلى رئتيه وتتمنع في الخروج منها حتى كاد يسقط أرضًا متخليًا عن آخر بريق حياة في جسده.

وصل إلى محيط بيته وبيت والده.. بيت (عبد الحميد وهدان).. فتطلع إلى ما حوله في حذر مَن يخشى أن يُلمح أو يتعرف أحد حقيقته وسار بخطى وئيدة إلى داره فدفع بابها الذي انفتح على الفور مُحدثًا صريرًا يوقظ الموتى فدفع قدميه ليدلف إلى ساحة الدار التي غلفتها رائحة العطن التي تشي بأن هذا البيت مهجور من فترة ليست بالقصيرة ثم تمشى بعينه في أرجاء

المكان الذي شهد طفولته وبداية مأساته قبل أن يُثبِّت عينه على باب غرفة والديه..

الغرفة التي وقف يومًا على بابها والصدمة تشل أطرافه وتُفقده حتى القدرة على النطق في الوقت الذي كانت تنبعث فيه من داخلها آهات أمه الحارة وهي في لقاء حميم مع عمه أجج بداخلهما مشاعر الرغبة والشهوة.. وأجج بداخله مشاعر البغض والنقمة.. قتل كل ما بداخله من مشاعر الطفولة وسحق بمنتهى القسوة كل قدرة لديه على الحب..

لقاء أحياهما وأماته..

طفل مات يوم مات أبوه وترك شابًا عاش مكللًا بالخزي والعار يحيا حياة هي عبارة عن مسلسل لا ينتهي من الهروب والخوف..

تقدم بخطى وجلة نحو الغرفة وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة وجال بنظره داخلها تاركًا تفاصيلها تنطبع داخل عينيه.. رأى السرير الفارغ وملاءاته المتناثرة

في إهمال ورأى الحبل الغليظ المتدلي من السقف يتأرجح أمامه يمينًا ويسارًا..

الحبل الذي شنق به عمه يومها ومن أسفله كان المقعد الصغير الذي دفعه بقدمه من تحته ملقى في ركن الغرفة وقد غطّت خيوط العناكب كل شيء من عروق الأخشاب الضخمة التي تدعم السقف إلى أعمدة السرير النحاسية التي انطفأ لونها.

سار كالمغيَّب بجسده المنهك وعقله الذي أثقلته ذكرى الآلام إلى السرير فاعتلاه وفرد نفسه عليه ثم أغمض عينيه وراح في سُبات لم يستمر سوى للحظات قليلة.. سُبات قطعه صوت ضعيف لاصطكاك مفاصل السرير مع أنامل ملّست بهدوء على شعره ففتح عينيه فزعًا ليجد (نعمة) تتطلع إليه في حنان لم يره عبر أيامه من قبل..

وبصوت مبحوح مبهور قال:

- أمي.

تخلّلت بأصابعها خصلات شعره الناعم تمامًا كما كان يتمنى أن يحدث منذ طفولته ورددت بصوت لم يسمعه من بين شفتيها من قبل:

- استرخِ يا صغيري.

ظلَّ يتطلع إليها بلهفة قبل أن يُطيعها ويُرخي جسده بالكامل فاستمرت تعبث في خصلات شعره ثم مالت لتطبع قُبلة حانية على جبينه وفي موضع ندبته القديمة بالذات..

قُبلة كان لها مفعول السحر ففي لمح البصر شعر بدغدغة خفيفة في مكان الندبة الغائرة التي كلّلت جبينه لسنوات طويلة وصاحبته منذ طفولته حتى الآن وحين مد يده ليتحسسها وجد جبينه وقد عاد سليمًا تمامًا ولم تشعر أصابعه التي تتحسس موضعها أي أثر غائر لها فابتسم والتقط يد أمه يُقبّلها قبل أن يقول الكلمة الوحيدة التي أرادها أن تسمعها منه الآن:

- سامحيني.

نظرت له نظرة لم يفهم معناها ثم قالت:

- ليس المهم أن أسامحك أنا.

ثم رفعت عيناها لتنظر حولهما قائلة:

- المهم أن يسامحوك هم.

حرك (جابر) عينيه إلى حيث نظرت ليجد كل من (زينات) و(درية) و(مادلين) يقفون حول أطراف السرير ويتطلعون إليه في صمت متهم فلوَّح بذراعيه مُخفيًا وجهه وهو يصيح في ذعر شديد:

- لا.. لا.. لا تقتربوا مني.

لكن كلماته تبخرت في الهواء ولم يجد صداها أي منفذ إلى آذان مغلقة فظللن يقتربن منه حتى أحطن بالسرير من جميع الجهات في الوقت الذي التقطت فيه (انتصار) تمتمته الخافتة وشاهدت حركة عينيه المضطربة من خلال جفنيه المغلقين فاقتربت منه بحذر ومدت يدها لتلصق ظهرها بجانب وجهه الذي

كان يلتهب من شدة الحرارة ولسانه يهذي بكلمات من مكان آخر..

مكان كان يواجه فيه أسوأ كوابيسه مع عجز تام سيطر عليه وأفقده القدرة على الحراك..

شلل تام أصاب أطرافه فلم يقوَ على تحريكها وذعر شديد انتابه وهو يراهن يُحِطن به فصرخ بكل قوته وهو يحاول دفع جسده للحركة والخلاص من وضع انعدام الحيلة الذي يعانيه:

- ابتعدن عني.

بقين يتطلعن إليه في صمت مهيب أرجفه وساهمت برودة الجو التي شعر بها فجأة في جعل ارتجافته تتحول إلى انتفاضة عظيمة هزته وزلزلت أعماقه جعلت (انتصار) تُحكِم الغطاء حول جسده بينما هو يحاول التشبث بأمه علّها تحميه لكنها تركت جانبه فجأة وملامح وجهها تتغير لتستعيد قسوتها الأولى ولتقف بجانبهم مكملة الدائرة التي أُحكمت من حوله

بملامح تنطق بالكره والرغبة في الانتقام ورويدًا رويدًا شعر بألم يعصف بجبهته فمد يده يتحسسها ليجد الندبة تتشكل من جديد مع دماء ساخنة أغرقتها وكأن الجرح القديم يأبى أن يفارقه وعاد حيًا من جديد وأمه تقول وهن يرددن من خلفها:

- لا سماح ولا رحمة لأمثالك.

مسحت (انتصار) العرق الغزير الذي انسال من على جبينه الملتهب واختلط بماء الكمادات البارد في وقت كان هو ينظر بهلع لقتيلاته اللواتي تقدمن نحوه وتمسكت كل واحدة منهن بطرف من أطرافه فالتقطت أمه يده اليسرى و(زينات) اليمنى وجذبت (درية) القدم اليسرى و(مادلين) اليمنى وبمنتهى القسوة جذبت كل واحدة منهن طرفه باتجاهها بقوة هائلة لا يمكن أن تتواجد فيهن أو في أي امرأة أو حتى رجل على وجه الأرض حتى شعر بأعضائه تتمزق وعينيه تحتقنان بعنف والدم يحتشد فيهما فصرخ بكل ما بداخله من حياة يسترحمهن واحدة واحدة..

صرخ باسم (زينات) التي تحجرت عيناها..

صرخ باسم (درية) التي اسودَّ وجهها..

صرخ باسم (مادلين) التي ارتعدت ملامحها بغِل..

صرخ أخيرًا باسم أمه التي منحته نظرة قاسية لا تختلف عما شاهده منها طوال عمره وهي تزوم كالوحوش..

ومن خلفهن وفي طرف الحجرة شاهد (كمال) وعمه واقفان يتطلعان إليه في صمت وعلى وجهيهما نظرة بغض رهيبة جعلته يكره اليوم الذي وُلد فيه في عالم لا يطيقه وبشر حملوا له كل المقت منذ وقعت عيناه على الدنيا..

وكان آخر ما شاهده قبل أن تُظلم عيناه حبلًا متدليًا من السقف يتأرجح أمام عينيه يمينًا ويسارًا.

v v v

الفصل الثاني والعشرون

مبنى إدارة الأمن العام..

الإسكندرية.

بخطوات سريعة واثبة وجسد قوي ممشوق.. ارتقى اليوزباشي (كامل مدكور) سلالم مبنى إدارة الأمن العام بالإسكندرية وسار في الرواق الطويل المفضي إلى مكاتب الإدارة بزيه الرسمي المهندم الأنيق وحذائه الأسود اللامع الذي دق به أرضية المبنى في خطوات صارمة وهو يتلقى التحية العسكرية ممَّن يقابلونه ويردها لهم في حزم حتى وصل إلى باب حجرة مكتب الحكمدار فوقف للحظة عدَّل فيها هندامه وتمَّم على هيئته ثم بهدوء طرق الباب طرقتين متتابعتين ودخل ما إن سمع الصوت من الداخل يدعوه للدخول.

كان الحكمدار ذا مظهر مهيب ببنيانه القوي ونظراته الثاقبة المقتحمة التي تكفي واحدة منها لتسبر أغوار أدهى الرجال وتفكك أوصال أشجعهم مع شعره

الفضي الذي انحسر عن مقدمة الرأس تاركًا انطباعًا عن رجل عركته الحياة وأثقلته الخبرة والتجارب.

وقف (كامل) أمامه في ثبات وأدى التحية العسكرية في احترام حتى دعاه للجلوس قبل أن يبتسم في وجهه قائلًا:

- كيف حالك يا (كامل)؟

أجابه (كامل) وهو يبادله الابتسام بمودة:

- بخير حال يا سيدي.

- سعدت كثيرًا بأخبار نجاحاتك في الصعيد وراجعت بنفسي كل تقاريرك الواردة من هناك وملفات القضايا التي استطعت حلها بشكل استثنائي.

ابتسم (كامل) ابتسامة هادئة وقد سَعِد بمدح رئيسه وإشادته بعمله قبل أن يقول في هدوء:

- الفضل لله سبحانه وتعالى أولًا ثم لتعاون الزملاء ومساعدتهم وتوجيهك لي منذ بداية عملي في سلك الشرطة.

قال الحكمدار في ثناء:

- أنت ضابط كفء يا (كامل) ولولا إصرارك على الذهاب للعمل في الصعيد ما كنت فرَّطت في وجودك معي هنا في الإدارة.

- يسعدني دائمًا العمل معك يا سيدي وها هي الظروف تجمعنا معًا في إدارة واحدة من جديد ولكني أشهد أن العمل في مناطق الصعيد قد أفادني أشد الإفادة وجعلني أكثر صلابة وأكثر قدرة على العمل مما كنت.

أومأ الحكمدار برأسه في موافقة ثم قال في جدية:

- الحقيقة أنني استدعيتك اليوم من أجل قضية جديدة تُثير شكي وريبتي منذ بدأت أُتابعها.

تحفزت ملامح (كامل) وجلس على طرف مقعده وهو يتطلع إلى الحكمدار باهتمام شديد وقال:

- كلي آذان مصغية.

التقط الحكمدار ملفًا من أمامه وقد بدا أنه سبق وجهزه من قبل وفتحه ليقول:

- منذ فترة قصيرة وردت إلينا عدة بلاغات عن اختفاء فتيات وسيدات بل ورجال أيضًا بصورة غريبة غير مبررة ودون أن يتركوا أدنى أثر وبعد البحث والتحري لم نصل إلى أي طرف خيط يقودنا إليهم.. مما سبب حالة عامة من القلق مع ما صاحب هذه الحوادث من غموض.

تساءل (كامل) وقد جذب الموضوع اهتمامه:

- وهل كل هذه الجرائم في محيط واحد.. أعني في منطقة واحدة.

ضيَّق الحكمدار عينيه وهو ينظر له قبل أن يرد سؤاله بسؤال قائلًا:

- ما الذي دفعك لذِكر ذلك اللفظ؟

تساءل (كامل) في حيرة:

- أي لفظ؟

أجاب الحكمدار:

- لفظ جرائم.

قال (كامل) موضحًا:

- بالطبع يا سيدي أنا لا أستبق الأحداث ولكنني فقط لا أؤمن بقانون الصدفة أبدًا.. وحدوث مصادفات كثيرة في منطقة واحدة أو حتى في توقيت واحد أمر لا يهضمه عقلي ولا يستسيغه بل يدفعني للبحث عن السبب الفعلي خلف كل هذا.

لوَّح الحكمدار بأصبعه في وجه (كامل) وهو يقول:

- لهذا السبب اخترتك أنت بالذات لمتابعة هذه القضية لأن الشك والبحث سيكونان رفيقاك خلالها وأنا أعتمد على ذكائك وقدرتك على إدارة الأمور خاصة بعد إشادة رؤسائك عندما استطعت حل غموض عدد من الجرائم في الفترة الأخيرة.

تساءل (كامل) في استفسار:

- ما هي ظروف هذه القضية؟

أجابه الحكمدار وهو يطالع الملف الذي أمامه:

- بداية الأمر كانت عندما أبلغت إحدى السيدات وتدعى (فردوس الوكيل) عن اختفاء ابنتها (زينات الدمنهوري) وتغيبها عن المنزل وقد قمنا بالإجراءات المتبعة في تلك الحالات فبحثنا عنها في الأقسام والمستشفيات وراجعنا في حالات الحوادث عن فتيات توفين أو قُتلن دون معرفة هويتهن كما قمنا بعمل نشرة بأوصافها وزعناها على مختلف الأقسام والكمائن

ولكن كل هذا كان دون جدوى ولم يردنا عنها أي معلومات حتى الآن.

ثم قَلَب الصفحة مكملًا:

- لم نكد ننتهي حتى وجدنا بلاغًا آخر من شخص يدعى (شعبان جودة) وهو صاحب مقهى من نفس المنطقة ادَّعى فيه اختفاء زوجته (درية رضوان) وعدم عثوره عليها رغم بحثه عنها في كل مكان..

قال (كامل) متوقِعًا:

- وطبعًا قمتم بنفس الإجراءات المعتادة.

أردف الحكمدار قائلًا:

- بالضبط.. لم يكن أمامنا غير هذا خاصة أن الحالتين اختفيتا بدون أدنى أثر.

تساءل (كامل) وقد أثار الأمر اهتمامه أكثر:

- وهل تكررت هذه الحالات مرة أخرى؟

هز الحكمدار رأسه أن نعم وهو يوضح قائلًا:

- بالفعل فبعد فترة أخرى وردنا بلاغ عن اختفاء شاب يوناني يُدعى (كمال أنطون) تغيب فجأة عن عمله وعن بيته بلا سبب واضح ثم تبع ذلك بلاغًا آخر عن اختفاء شابة يونانية تُدعى (مادلين استيفانوس) تغيبت بعد هذا الشاب بأقل من يومين..

قاطعه (كامل) وهو يضيّق عينيه مفكرًا:

- هذا غريب.

أغلق الحكمدار الملف الذي أمامه ونظر ل(كامل) قائلًا:

- الأغرب لم يأت بعد.

تطلع (كامل) إليه في لهفة فأكمل مردفًا:

- وردنا بلاغ آخر من الصعيد هذه المرة وتحديدًا من محافظة أسيوط في إطار التعاون بين الإدارات حيث تم الإبلاغ عن اختفاء رجل بالغ يُدعى (طلبة الشحات)

من قِبَل أهله وقد شوهد لآخر مرة متوجهًا إلى محطة قطار أسيوط قاصدًا الإسكندرية وعند قيامنا بالبحث والتحري وجدنا أنه وصل إليها بالفعل بل وحجز غرفة في أحد الفنادق القريبة من المحطة ولم يمكث بها يومًا واحدًا حتى اختفى هو الآخر بلا أثر تاركًا كل متعلقاته في الغرفة كما هي وترك لنا حيرة لا توصف.

تفكر (كامل) فيما سمعه ثم قال مفندًا المعلومات:

- من سياق المعلومات التي سمعتها من سيادتك أن حوادث الاختفاء هذه لا يجمع بينها جنس أو عِرق فمنهم الرجال والنساء ومنهم المصري واليوناني ولكن أوجه التشابة والتي تجمع هذه الحوادث كلها في حزمة واحدة هي أنها وقعت كلها في محيط منطقة واحدة وفي فترة زمنية قريبة.

- لكن هذا ليس كل شيء.

قالها فتطلع له (كامل) في استغراب فأردف قائلًا:

- لقد ورد إلينا بعد ذلك بلاغ عن وجود جريمة قتل بطلها (استيفانوس) والد الفتاة (مادلين) المختفية هي الأخرى وضحيتها هو (كمال أنطون).

تساءل (كامل):

- وهل حققتم في الأمر؟

أجاب الحكمدار:

- نعم وبعثنا بقوة من رجالنا إلى مخزن خاص تابع لوكالة (استيفانوس) هذا وهو المكان الذي أشار إليه البلاغ وعند تفتيشه بدقة عثرنا على جثة الفتى مدفونة في أرض المخزن بالفعل وبذلك لم يكن لدينا غير توجيه تهمة القتل العمد ل(استيفانوس) وهو الآن قيد المحاكمة والأغلب أنه ينتظر حكمًا بالإعدام.

قال (كامل) في شك:

- لكن هذا لا يفسر باقي حالات الاختفاء.

أمّن الحكمدار على جملته قائلًا:

- هذا بالضبط ما يُثير ريبتي واعتقادي أن هناك شخصًا خفيًا وراء كل ما يحدث.. شخصًا سيكشف ظهوره كل خبايا هذه القضية.

- بالفعل لا بد وأن هناك تفسيرًا آخر.

- وما رأيك؟

سأل الحكمدار في اهتمام فأجاب (كامل) في حذر:

- لدي تفسير واحد فقط لكل هذا لكني أخشى الإفصاح عنه.

ضيّق الحكمدار ما بين حاجبيه في دهشة متسائلًا:

- وما هو؟

تردد (كامل) للحظة قبل أن يُجيب قائلًا:

- التفسير هو أن هناك جرائم وقعت كلها في هذه المنطقة وفي وقت قصير وتكرار هذه الحوادث ينفي بشكل قاطع فكرة الاختفاء بل يُشير بقوة إلى وقوع جرائم قتل بل ويُشير أيضًا إلى أن هناك فاعل واحد يكمن خلف كل هذا وبمعنى آخر وبعد كل ما سمعته أقول بثقة أننا نبحث الآن عن..

ثم نظر للحكمدار بثقة وأكمل:

- عن سفَّاح.

تراجع الحكمدار في مقعده مبهوتًا وردد دون وعي:

- سفَّاح.

هز (كامل) رأسه إيجابًا وقال:

- هذا التفسير الوحيد.

تمالك الحكمدار نفسه بسرعة واستعاد صرامته المعهودة بعد أن تخلص بسرعة من صدمة المفاجأة

وقال في حزم:

- (كامل).. هذه قضيتك منذ هذه اللحظة وسيكون لك كل الدعم الذي تطلبه ولكني أريد منك حسم هذا الأمر في أسرع وقت ممكن فما قلته لي الآن يشير أننا مقبلون على مرحلة صعبة ولا الأوضاع الأمنية ولا حتى السياسية تسمح الآن بالإعلان عن وجود سفَّاح وإحداث ذعر نحن في غنى عنه بين المواطنين.

نهض (كامل) من مكانه والتقط الملف الذي ناوله له الحكمدار ثم أدى التحية العسكرية بمنتهى الاحترام قبل أن يقول:

- سأسعى لإنهاء هذا الأمر في أسرع وقت ممكن.

قالها وغادر الغرفة متوجهًا إلى مكتبه الجديد ومن داخله تصاعدت الأسئلة..

هل حقًّا سيقدر على حل هذه القضية؟..

هل سيكشف الغموض الذي يُحيط بها من كل جانب؟..

إن كان الأمر هكذا.. فلماذا يشعر بكل هذا التوتر إذن؟..

لماذا يشعر بكل هذا الانقباض يعتصر قلبه؟..

لماذا يصيح عقله بداخله أن هذه القضية ستكون مختلفة وستؤثر ليس فقط على عمله بل ستترك أثرها على حياته بأكملها؟..

أسئلة كثيرة تزاحمت داخل عقله ولن يجد لها جوابًا إلا بالبحث والتوغل في أكثر شيء يقلقه الآن..

تلك القضية.

٧ ٧ ٧

الفصل الثالث والعشرون

ليومين كاملين كان (جابر) في عالم آخر..

ليومين كاملين كان فريسة لكل مخاوفه وأرضًا خصبة تلهو فيها كوابيسه وتمرح بحرية كيفما شاءت..

يومين كان فيهما لا يكاد يفيق من أحدها حتى تتلقفه الثانية وتؤمّن عليها الثالثة ليظل في دوامة من الرعب لا تنتهي بلا رحمة ترتجى ولا سبيل لخلاص..

حين أفاق من غيبوبته كان منهك القوى وكأنه خاض غمار معركة شرسة في حرب ضروس خرج منها مهزومًا مضعضع البنيان لكنه تحامل على نفسه فارتدى ملابسه وهمّ بالخروج رغم اعتراضات الحاجة (فردوس) التي أصرت على أن يبقى لفترة في سريره حتى يتعافى ويسترد صحته دون أن تدري أن السرير التي تشير إليه لن يجد فيه راحة أبدًا والغرفة نفسها صارت قبرًا يضمه كما ضم من قبل ضحاياه الساكنين على بعد خطوات منه..

آه لو تدري أن ابنتها التي قلبت الدنيا بحثًا عنها تسكن الآن أسفل قدمها.. وأن مَن ترعاه في مرضه هذا هو مَن حرمها منها وأنهى حياتها بيديه انتقامًا من غدر وقسوة لازماه طيلة عمره.

خرج من المنزل وسار بخطى مترنحة حتى وصل إلى المقهى فدخل إلى حيث (شعبان) الذي هاله منظره وصاح في ذعر متسائلًا:

- أين كنت كل هذه الفترة ومَن فعل بك هذا؟

كان (شعبان) يشير إلى آثار الضرب المبرح والكدمات التي انتشرت في كل جسده ولم يزل أثرها بعد لم يُمح لكن (جابر) رمقه بصمت للحظة ولم يُعقِّب أو بالأحرى لم يكن لديه أي قدرة على الكلام سوى بجملة واحدة ألقاها في صيغة تساؤل:

- ماذا حدث؟

أجلسه (شعبان) على أحد مقاعد المقهى وجذب مقعدًا آخر جلس عليه قبالته وقال:

- لقد حدث الكثير خلال الفترة الماضية.

ثم استطرد مكملًا:

- بعد أن اختفيت أنت انتظرت يومًا كما اتفقنا ثم أرسلت تلك الرسالة التي تركتها معي والتي لم أعلم محتواها حتى الآن فقد خشيت أن أفتحها وأرسلتها مغلقة كما هي.

هز (جابر) رأسه في امتنان فأكمل (شعبان) قائلًا:

- لكن أثناء غيابك كانت الدنيا مقلوبة فهاجم رجال المباحث وكالة (استيفانوس) اليوناني وقبضوا عليه ووجهوا له تهمة قتل شاب يوناني يُدعى (كمال) رغم أنه وحتى الآن لم تظهر ابنته (مادلين).

تمتم (جابر):

- ولن تظهر أبدًا.

اقترب منه (شعبان) متسائلًا:

- ماذا قلت؟

لوَّح (جابر) بيده مجيبًا:

- لا شيء.

ثم سأل (شعبان) قائلًا:

- ألم يأتك أحد من رجال المباحث ويسألك في أمر غياب زوجتك؟

انقلبت ملامح (شعبان) فجأة عند ذِكر سيرة (درية) وقال في قرف:

- لقد ذهبت إلى الجحيم من غير رجعة ولم يعد أحد يهتم أو يسأل عنها الآن.

ثم نظر مليًا إلى (جابر) متسائلًا هو الآخر:

- ولكن قل لي بصدق أين اختفيت وماذا حدث لك؟

جز (جابر) على أسنانه بغضب وقال:

- ليس الآن يا معلم فقريبًا ستعلم كل شيء ولكن تأكد أن ثأرنا قد أصبح واحدًا ونحن لم نحصل عليه كاملًا بعد.

قال (شعبان) في مقت:

- تقصد (سليم).

قال (جابر) مؤمِّنًا على قوله:

- نعم.. يجب أن يدفع هذا الوغد ثمن ما فعله ويفعله بنا.

- أهو سبب اختفائك؟

سأل (شعبان) فأجاب (جابر) قائلًا:

- لقد أخفاني لأيام لكننا سنُخفيه للأبد.

قالها وتلاقت أعينهما..

تلاقت على هدف واحد.

* * *

وحيدًا في الظلام.. منزويًا فى ركن الزنزانة.. جلس (استيفانوس) يجتر مرارة أحزانه ويسترجع كل ما فات كشريط فيلم يدور داخل عقله بالسرعة البطيئة.

كيف وصل به الحال إلى اعتباره مذنبًا ينتظر حكمًا بالاعدام في جُرم لم يرتكبه؟..

كيف خسر كل ما لديه في لحظة واحدة بعد كل ما كان فيه؟..

كيف استطاع شخص واحد أن يسلبه ابنته الوحيدة وحياته وكل ما يملك؟..

إحساس بالعجز والمرارة انتابه وحزن شديد سيطر عليه والأسئلة تتوالى داخل عقله تبحث بحيرة عن إجابة لا يملكها فخبط رأسه بالجدار خلفه علَّ الضجيج بداخلها يهدأ قليلًا فاسحًا المجال لبصيص من تفكير وتعقل.

قُطعت أفكاره بغتة حين سمع صوت مفاتيح تدور في القفل قبل أن يُفتح باب الزنزانة ويُطالع وجه الحارس وهو يبحث عنه بعينيه على الضوء المتسرب من خلفه ثم قال حين وقعت عيناه عليه:

- (استيفانوس).. لديك زيارة.

تساءل في دهشة:

- مَن يا شاويش؟

أجاب الأخير في صرامة:

- لا أدري.. هيا بسرعة ولا تتلكأ.

نهض (استيفانوس) في تثاقل مستندًا إلى الجدار خلفه قبل أن يتبع الحارس إلى غرفة خاصة فتح له بابها وأشار له بالدخول فامتثل لأمره ودلف إلى الداخل ليرتد بظهره إلى الوراء في عنف مصعوقًا فقد كان أمامه آخر شخص يرغب أو يتوقع رؤيته الآن..

ابتسم (جابر) حين شاهد الذهول على وجهه وأشار إليه أن يجلس قبالته فجلس وقد بدا تائهًا أو كأن الذهول قد أفقده عقله فيما قال الحارس وهو يرنو بنظره إلى خارج الحجرة خشية مرور أحد:

- أمامك ربع ساعة لا أكثر.

نهض (جابر) من مكانه متجهًا للحارس وهو يقول:

- ربع ساعة تكفي وتزيد.

ثم أخرج من جيبه رزمة من النقود وضعها في يد الحارس الذي طالعها بنظرة خبيرة مقدرًا قيمتها قبل أن يخرج ويغلق الباب خلفه ليلتفت (جابر) ل(استيفانوس) الذي جلس يتطلع إليه في مقت منتظرًا فبادر هو قائلًا:

- أغلق فمك الذي تفغره عن آخره قبل أن يدخله الذباب.

قال (استيفانوس) بصوت مبحوح:

- أنت من دون كل الناس.

ضحك (جابر) في سخرية وقال في تعجب:

- وهل كنت تنتظر أحدًا آخر؟

قال (استيفانوس) بصوت يقطر حقدًا:

- جئت تشمت فيَّ أليس كذلك؟

هز (جابر) رأسه نفيًا وتوجه إلى مقعده فجلس وهو يقول:

- لا دخل للشماتة بالأمر.

ثم نظر له نظرة احتقار مكملًا:

- أنت أتفه من أن أكلف نفسي كل هذا لأشمت فيك.

تلقى (استيفانوس) الإهانة فتساءل بحِدَّة:

- إذن لماذا جئت؟

- جئت لأشكرك.

ارتفع حاجبا (استيفانوس) في دهشة وهو يقول مرددًا:

- تشكرني.

أومأ (جابر) برأسه إيجابًا وهو يقول:

- نعم أشكرك فأنت وابنتك أصحاب فضل علي.. فمن مكركما وخستكما معي جعلتما مني شخصًا آخر.. شخصًا يستطيع التدبير بروية.. شخصًا يعرف كيف يُلقي الطُعم ويصبر على صيده حتى يقع بين يديه.. تمامًا كما وقعت أنت وابنتك.

ثم التقط نفسًا عميقًا زفره في حرقة مكملًا:

- ابنتك التي ظنت أنني أقل من مستواها وأنني قروي ساذج تتلاعب به كيفما شاءت فتقرِّبه منها وتبعده عنها وقتما تريد ثم عندما تمل منه وتنتهي منفعتها

تدهسه بقدمها دون رحمة وتسحق أحلامه داخل قلبه بلا شفقة وكأنه ليس إنسانًا لديه مشاعر لتحترمها.

صاح (استيفانوس) بغضب:

- والآن تشعر أنك قوي يا (محمود).. أنك حققت انتقامك وشفيت غليلك.

صاح (جابر) بغضب أكبر:

- نعم حققت انتقامي وأخذت حقي منك ومنها ومن هذا الأحمق الذي فضلته علي ثم من فضلك لا تدعي الطيبة والبراءة فابنتك فعلت معي كل ما فعلت بتدبير منك أنت.. وأنت استغللتني لتحقيق كل مصالحك دون أن تفكر في سلامتي أو مصلحتي أنا فلماذا تعاتبني على أمر تعلمته منك أنت؟

ثم أكمل في تشفٍّ وهو يرفع رأسه عاليًا:

- كانت لعبة لعبناها سويًّا.. لعبة وضعت أنت قواعدها وجررتني إليها بإرادتك.. لعبة أنا تفوقت فيها عليك

وانتصرت والفائز يحصد كل شيء.

- وهل كانت ابنتي جائزتك؟

أشاح (جابر) بوجهه فصرخ (استيفانوس) مكررًا:

- هل كانت ابنتي جائزتك؟

ولدهشته شاهد التماعة عينيه والدموع تترقرق فيهما وهو يُجيب قائلًا:

- بل كانت السيف الذي غُرس في قلبي.

قالها وقام يغادر المكان فانقض عليه (استيفانوس) وأمسك به من ملابسه صائحًا:

- أين ابنتي يا (محمود).. أين هي؟

نظر (جابر) في عينيه بثبات وهو يُجيب قائلًا:

- تنتظرك.

اقشعر بدن (استيفانوس) بشدة واتسعت عيناه عن آخرهما وهو يتراجع في تخبط إلى الخلف وقد دارت رأسه وهو يتمتم :

- هل تعني أنها.. أنها..

ولم يُكمل جملته هذه أبدًا..

الدوار الذي أصابه ومحيط الحجرة الذي ضاق فجأة ليُطبق على صدره ونظرة (جابر) التي تكويه بنار حامية..

كل هذه الأمور جعلت نهاية اللقاء حتمية..

وفي وسط الحجرة سقط (استيفانوس) مغشيًا عليه.

* * *

انخرط (كامل) في قراءة كل تفصيلة من تفاصيل تلك القضية وذلك من واقع الملفات ومحاضر البحث والتحري التي وعلى الرغم من دقتها لم تسفر عن شيء وغاص بكل كيانه في الوقائع التي يطالع أحداثها

أمامه على الورق حتى أنه لم يشعر بزميله اليوزباشي الآخر (إبراهيم خليل) وهو يدلف إلى المكتب ويجلس قبالته قبل أن يتنحنح مُلفتًا انتباهه ويسأله قائلًا:

- أراك منهمكًا بشكل كبير في هذه القضية؟

أجابه (كامل) وهو يرفع عينه عن الأوراق:

- الأمر بالفعل غريب فلا وجود لأي شبهة جنائية ولا يوجد شيء مثير في حياة كل من الفتيات الثلاث كما أن التحقيقات تؤكد حسن سمعتهن فما الذي يجمع بينهن وما السر وراء اختفاء كل واحدة منهن على حِدة.

قال (إبراهيم) مؤكدًا:

- لاحظ أن كل واحدة منهن بعيدة كل البعد عن الأخرى فلا توجد صداقة تجمعهن لنقول أنهن رتبن كل شيء معًا.

- إذن فهناك مَن ينتقي ضحاياه بشكل دقيق وهذا يضعنا أمام احتمال واحد فقط لا غير.

ابتسم (إبراهيم) وهو يقول:

- تقصد أن هناك سفَّاحًا يقتل الفتيات.

قال (كامل) في ضيق:

- أنت تضحك وأنت تقولها لأنك لا تصدق حرفًا مما أقول ولكن اعلم أن ما تستنكره اليوم وتنفي وجوده بكل قوتك سيُصبح في يوم من الأيام حقيقة واقعة لا لبس فيها وعندها ستذكر جيدًا صدق كلامي.

قال (إبراهيم) مُديرًا دفة الحوار ليبتعد عن فكرة السفَّاح التي لا يقبلها عقله:

- اترك الآن هذا الأمر جانبًا وقل لي كيف حال زوجتك وولدك؟

ابتسم (كامل) ابتسامة حانية وقال:

- إنهما بخير حال والحمد لله.

- كم عمر ولدك الآن؟

- إنه في الثالثة من عمره وأصبح شقيًا بشكل لا يُصدَق.

ضحك (إبراهيم) قائلًا:

- مَن شابه أباه فما ظلم.. هو يُثير المتاعب هناك في المنزل وأنت تُثيرها هنا في الإدارة.

بادله (كامل) الضحك وقال:

- بل قل إن أولادك أنت هم مَن يثيرون جنونك.

خبط (إبراهيم) على رأسه قائلًا في أسى:

- دائمًا وحياتك.

قالها وعاد إلى حوار العمل قائلًا:

- على فكرة سيادة الحكمدار طلب أن نُبلغه بأي مستجدات تخص هذه القضية.

هز (كامل) رأسه متفهمًا فاستدرك (إبراهيم) متسائلًا:

- لكن قل لي من أين تريد أن تبدأ؟

أجاب (كامل) وهو ينقر بأُصبعه على الملف الذي أمامه قائلًا:

- سوف أُعيد كل شيء من البداية وأقوم بجميع التحقيقات مرة أخرى وسأستجوب جميع الأطراف ومقدمي البلاغات من جديد.

- على العموم أنت لديك كل الصلاحيات وحكمدار الأمن العام أصدر تعليماته بتوفير كل ما تحتاجه لحل هذه القضية.

شرد (كامل) بعينه في تفكير وهو يقول:

- أنا متأكد أنني سأجد طرف الخيط.

قالها دون أن يدري ما تُخبئه له الأيام القادمة والذي لو علمه لكان ترك البحث عن طرف الخيط الذي يبتغيه..

تركه وترك معه هذه القضية برمتها.

٧ ٧ ٧

الفصل الرابع والعشرون

بعد أن أنهى عمله في الإدارة وبعد حلول المساء بقليل خرج (كامل) من محل المشغولات الذهبية حاملًا طفله الصغير (حسين) على كتفه ومصطحبًا زوجته (هدى) التي كانت ملامحها كلها تطفر بالسعادة وهي تداعب سلسلة ذهبية صغيرة تحمل بداخلها صورة صغيرة لطفلهما الصغير وقالت بمرح وهي تتأبط ذراعه الأخرى:

- تتبقى سلسلة أخرى تحمل صورتك لتكونا أنتما الاثنين دائمًا جوار قلبي.

نظر لها (كامل) بخبث وابتسم في سعادة قائلًا:

- ما رأيك أن أبقى أنا بجوارك أوفر.

لكزته في كتفه قائلة:

- لا تكن سخيفًا.. الذهب زينة النساء.

تنهد في حسرة وهو يربت بيده على جيبه قائلًا:

- وخراب بيت الرجال.

أطلقت ضحكة سعيدة قبل أن تميل عليه وتخفض صوتها قائلة:

- أنت عندي أغلى من ذهب الدنيا كله.

نظر لها مكذبًا فقالت بصدق:

- هل عندك شك في ذلك.

هز رأسه نفيًا في حب وسارا معًا حتى أوصلها إلى باب المنزل فأعطاها الطفل الذي غرق في نوم عميق على كتفه وقال لها مودعًا:

- اصعدي أنت وسأذهب أنا لبعض العمل وسأعود باكرًا.

نفخت في ضيق قائلة:

- ألا بد من هذا العمل اليوم؟ لماذا لا تؤجله للغد وتصعد لنقضي السهرة معًا؟!.

قال في هدوء:

- لا يمكنني وأنت تعرفين ذلك.

انقلبت ملامحها استياءً فمال يطبع قُبلة على جبينها قائلًا:

- حبيبتي أرجوك لا تضيعي فرحتك ولا تفسدي يومنا وأعدك أنني لن أتأخر.

قالها وطبع قُبلة أخرى على رأس الطفل الغارق في النوم قبل أن ينسل خارجًا وسط نظرات حسرة وضيق من (هدى) التي أغلقت الباب خلفه.

توجه (كامل) من فوره إلى محطة الرمل وعرج منها سيرًا على الأقدام حتى وصل إلى ميدان المحطة فدار حوله قاصدًا محل الحاج (رضوان) والد (درية) الذي

عَمِد (كامل) أن ينتحي به جانبًا بعد أن عرَّفه بشخصيته وما إن جلسا حتى بدأ الحديث قائلًا:

- معذرة لأني سآخذ من وقتك ولأني سأفتح معك موضوعًا أعلم جيدًا كم يؤلمك لكن أرجو أن تساعدني قدر استطاعتك حتى أقدر على كشف غموض ما حدث مع ابنتك (درية).

توترت ملامح الحاج (رضوان) حين سمع اسم ابنته الغائبة لكنه غمغم في استسلام:

- أنا تحت أمرك.

التقط (كامل) نفسًا عميقًا وقد أحس براحة لتجاوب (رضوان) معه ثم بدأ يسأل قائلًا:

- ما معلوماتك عن اختفاء ابنتك؟

قلَّب (رضوان) كفيه وهو يقول في حيرة:

- ليس لدي الكثير لأحكيه وأعلم أنني لن أفيدك بالشيء الكثير فقد كانت ابنتي في بيت زوجها ولم تكن هناك أي مشاكل بينهما وفجأة وفي يوم وليلة فوجئنا جميعًا ب(شعبان) زوج ابنتي يأتي سائلًا عليها وقال أنه عاد من المقهى الذي يملكه فلم يجدها بالمنزل وحين انتظر عودتها غابت وتأخر بها الوقت فجاءنا سائلًا.

تساءل (كامل) يستوضحه:

- وماذا فعلتم بعد ذلك؟

تنهد (رضوان) في أسى وقال:

- بالطبع قلبنا الدنيا بحثًا عنها وسألنا كل معارفها وأصدقائها وفتشنا في جميع الأقسام والمستشفيات دون جدوى بعدها لم يكن أمامنا سوى حل أخير وهو أن نُبلغ الشرطة.

انتظر (كامل) حتى انتهى من جملته وصمت للحظة قبل أن يتطلع إليه قائلًا بهدوء:

- حاج (رضوان).. أنا لم آت إليك من أجل هذا.

نظر إليه (رضوان) مدهوشًا فأكمل قائلًا:

- ما جعلني أسعى للقائك الليلة ليس ما ذُكر في محضر الشرطة وتحقيقات النيابة فتلك أشياء أعلمها جيدًا وقرأتها من قبل لكنني أريد معرفة رأيك أنت.. ربما كانت هناك معلومات خافية لم تُذكر في الأوراق الرسمية قد تساعدنا في العثور على ابنتك.

ظهرت الحيرة على وجه (رضوان) ولم يدر ماذا يقول فحاول (كامل) مساعدته متسائلًا:

- مثلًا هل في يوم ما ذكرت ابنتك أن خلافًا كبيرًا وقع بينها وبين زوجها أو أنها تريد الذهاب لمكان ما أو أن هناك مَن يتبعها أو يهددها.

قال (رضوان) وقد فهم المقصِد من الحديث:

- لا يوجد شيء من هذا.. صحيح أن ابنتي لم تكن سعيدة مع زوجها بسبب عدم إنجابهما لأطفال على

الرغم من مرور سنوات على زواجهما لكن هذه أمور يمكن حلها على ما أعتقد إما بالعلاج أو بالخروج بالمعروف كما يقولون.

- هل كان لابنتك أصدقاء؟

سأله (كامل) فانقلبت ملامحه وأربدت من الغضب وصاح في استنكار:

- ماذا تقصد؟

أشار (كامل) إليه بيده مهدئًا وقال:

- اهدأ يا حاج (رضوان).. أنا لم أقصد ما فهمته أبدًا كل ما أسأل عنه هو هل كان لديها جارات قريبات من قلبها أو صديقات قديمات يعرفن عنها ما قد تُخفيه حتى عنكم.

هدأت ملامح (رضوان) وقال في نبرة معتذرة:

- سامحني يا ولدي فما نلقاه منذ أن اختفت (درية) لا يحتمله بشر فالكل يخوض الآن في سيرتنا ويتهمون ابنتي بأنها هجرت زوجها هربًا مع عشيق.. حتى زوجها (شعبان) يبدو أنه قد صدَّق هذه الشائعات فلم يعد يبحث عنها أو يسأل عنا وكأنه تبرأ منها ومنا ومن الموضوع كله.

تفهَّم (كامل) موقفه وعذر انفعاله فربت على ركبته مواسيًا وسأل:

- إذن فالصلة الآن مقطوعة بينكم وبين (شعبان)؟

هز (رضوان) رأسه أن نعم فسأله (كامل) قائلًا:

- سؤال أخير يا حاج (رضوان).. هل تشك في أن يكون لزوج ابنتك أي علاقة باختفائها؟

أجاب (رضوان) بصدق:

- الكذب خيبة يا ولدي.. في البداية شككت في أن يكون له يد في اختفائها لكن مع مرور الوقت وبعد أن

تفكرت في الموضوع رفض عقلي تصديق هذا الاحتمال لأنه لا يوجد سبب مُقنع لذلك.

قام (كامل) من مكانه مصافحًا الحاج (رضوان) وشاكرًا إياه على وقته قبل أن يسير في طريقه متفكرًا بتركيز شديد..

ماذا لو كان الحاج (رضوان) مخطئًا؟..

ماذا لو كان هناك سبب وجيه يدفع (شعبان) لقتل زوجته وإخفاء جثتها؟..

سبب يرفضه (رضوان) لما قد يحمل معه من مذلة وعار بين الناس..

سبب سيسعى هو خلفه بكل قوته ليؤكد صدقه أو نفيه..

قادته قدماه دون أن يشعر وهو مستمر في تفكيره وتحليل كل المعلومات التي يحصل عليها إلى مقهى (شعبان) فجلس على إحدى الطاولات بالخارج وطلب

شيئًا ليشربه وهو يرنو بعينه إلى داخل المقهى متطلعًا إلى (شعبان) الذي يجلس على مقعده خلف مكتبه الصغير ويتحدث مع أحد عاملي المقهى الشباب وتحديدًا مَن جاءه مستعلمًا عما يشربه قبل أن يتجه نظر الاثنين ناحيته فأدار وجهه بسرعة كي لا تلتقي أعين ثلاثتهم فيما نهض (شعبان) مقتربًا من منضدته وسحب مقعدًا ليجلس بجانبه متسائلًا:

- أرى أنك غريب عن المكان؟

ابتسم (كامل) بثقة والتفت إليه مُجيبًا:

- لست غريبًا يا معلم (شعبان).. لقد جئت إليك على وجه الخصوص.

رفع (شعبان) أحد حاجبيه في دهشة وقال:

- جئت إليَّ أنا.. ولماذا؟

رد (كامل) على سؤاله بسؤال قائلًا:

- قبل أن أُجيبك لا بد أن أسأل.. ما الذي دفعك لتترك مكانك وتأتي إلي وتسألني هذا السؤال؟

أجاب (شعبان):

- لأن الغريب فقط هو مَن يجلس على هذا المقعد.. فهذا المقعد لديه صاحب لا تحب أن يراك جالسًا عليه وكل زبائننا ومريدي هذا المقهى من أبناء الحي يعرفون تلك الحقيقة.

- ومَن هو هذا المرعب؟

سأل (كامل) فابتسم (شعبان) في سخرية مجيبًا:

- ابق جالسًا وستعرفه.

نظر له (كامل) للحظة في تحدٍّ ثم قال مديرًا دفة الحديث:

- لنعد لموضوعنا قلت أنني جئت من أجلك أنت.. تحديدًا من أجل قضية اختفاء زوجتك.

- ومَن أنت لتحدثني في أمر كهذا؟

سأله (شعبان) بحذر فأجاب (كامل) قائلًا:

- أنا اليوزباشي (كامل مدكور) من إدارة الأمن العام وأنا أيضًا المسئول عن التحقيق في قضية اختفاء زوجتك.

انقلبت ملامح (شعبان) فجأة وللحظة واحدة تداركها سريعًا لكنها لم تغب عن عين خبيرة لشخص مثل (كامل) الذي تغاضى عنها وهو يسمع (شعبان) يقول:

- ألن ننتهي من هذا الموضوع؟

ضيَّق (كامل) عينه وقال:

- أتريده أن ينتهي دون أن تعثر على زوجتك أو حتى تعرف مصيرها.

تلعثم (شعبان) ثم قال مدافعًا:

- لست أقصد هذا لكن ما جدوى كل هذه الأسئلة طالما مرت كل هذه المدة دون سبيل للعثور عليها..

ثم خفض صوته مع رأسه مكملًا:

- ثم إنني بدأت أصدق ما يقال عنها لذلك ترى أنه كلما فُتح هذا الموضوع ازداد الجرح إيلامًا.

تراجع (كامل) بظهره في مقعده قائلًا ببساطة:

- إذن دعنا نبحث لنصل للحقيقة ونحسم الجدل.. مَن يدري ربما كانت كل هذه الاتهامات لا أساس لها من الصحة وربما كانت زوجتك ضحية لا جانية.

- وبم سيفيد كل هذا؟.. هل ستعود لي زوجتي؟.. هل سيُغيِّر الناس رأيهم؟.. هل سأرفع رأسي مرة أخرى بين الناس؟

أجاب (كامل) بسرعة:

- الحقيقة ستُظهر الحق وعلى الأقل إن لم تُرح الناس فستريحك أنت.

ارتسمت ابتسامة باهتة على ركن فم (شعبان) الذي نظر له وقال في غموض:

- اطمئن يا سيادة اليوزباشي.. لقد استرحت.. استرحت تمامًا.

بدت ل(كامل) العبارة غامضة تحمل معانٍ كثيرة لكنه لم يُعلق عليها وبدأ في سؤال (شعبان) قائلًا:

- قل لي كيف كانت علاقتك بزوجتك في الفترة الأخيرة وهل هناك سبب يدفعها لترك المنزل بهذا الشكل؟

هز (شعبان) رأسه نفيًا وقال مؤكدًا:

- لا.. لم يحدث شيء بيننا ولست أدري حتى هذه اللحظة كيف حدث هذا.. لقد كانت يومها بحالة جيدة وقبل مغادرتي للمنزل طلبت مني الإذن في الذهاب

إلى والدتها وقالت لي أنها لن ستتأخر وستكون في المنزل قبل صلاة العصر.

- وماذا فعلت يومها؟

- أبدًا.. عدت من المقهى في فترة الغداء وتلك كانت من عاداتي أن أتناول الطعام في المنزل وأستريح قليلًا قبل أن أعود للمقهى مرة ثانية وأبقى فيها حتى منتصف الليل ولكن في ذلك اليوم عندما عدت لم أجدها فانتظرت عودتها لكن الوقت تأخر أكثر من اللازم وأنا أنتظر دون جدوى فبدأت بالسؤال عنها عند والدتها لأفاجأ بأنها لم تذهب إليها من الأساس.

سأله (كامل) من جديد:

- سمعت أن هناك أكثر من فتاة أخرى اختفت في ظروف غامضة.. هل كانت زوجتك على علاقة بأي واحدة منهن.. هل كنَّ على معرفة ببعضهن البعض؟

هز (شعبان) رأسه نفيًا من جديد وأجاب قائلًا:

- لا.. لم يكن لها أي علاقة بواحدة منهن.. صحيح أننا نعرف كلنا بعضنا البعض بحكم المعيشة في حي واحد لكن لم تكن هناك صداقة تجمعهن كما أن زوجتي كانت بطبيعتها منغلقة في بيتها بعد الزواج ولم تكن كثيرة الصداقات.

- هذا من ناحية الأصدقاء لكن ماذا عن الأعداء.

ضيَّق (شعبان) ما بين حاجبيه في دهشة متسائلًا:

- ماذا تقصد؟

قال (كامل) مفسرًا:

- أقصد هل كانت لها أو لوالدها أي عداوة مع أحد وهذا الكلام لك أنت أيضًا؟

أجاب (شعبان) بسرعة:

- لا.. لا أنا ولا حتى والدها وبالتأكيد ليس لها هي عداوة مع أحد.

- إذن أنت لا تشك في أن يكون سبب اختفائها بفعل فاعل.

قلّب (شعبان) كفيه ورفع وجهه للسماء قائلًا:

- العِلم عند الله.

ثم نظر إلى (كامل) مكملًا:

- كما إن هذه وظيفتكم أنتم.. أليس كذلك؟

تطلع (كامل) إليه دون أن يُجيب قبل أن يرشف آخر رشفة من كوب الشاي الذي أمامه ثم نهض منصرفًا يتبعه (شعبان) بعينه في سخرية ومن خلفه ظهر (جابر) الذي كان يسترق السمع للحديث على باب المقهى وعلى وجهه تعابير القلق.

* * *

في اليوم التالي..

طرق (كامل) باب المنزل برفق وانتظر حتى سمع صوت خطوات متثاقلة تقترب وثوان وفتح الباب ليطالعه وجه الحاجة (فردوس) التي ازدادت عمرًا على عمر لم يمنعها من أن ترحب به الترحيب اللازم وبعد أن وضعت صينية القهوة وجلسا بدأ (كامل) الحديث بلطف قائلًا:

- أعلم يا حاجة أن زيارتي لك مفاجئة ولكن كان لا بد من حضوري بدلًا من أن أستدعيك أنت للحضور إلى المديرية.

غمغمت (فردوس) بصوت خافت وهي تعلم ما هي مُقبلة على سماعه:

- أنت على الرحب والسعة يا ولدي.

قالتها ومدت يدها تلتقط فنجان القهوة وتقدمه ل(كامل) الذي تناوله منها شاكرًا وابتدرها قائلًا:

- حدثيني عن ابنتك (زينات).

عضَّت الحاجة (فردوس) شفتها السفلى في ألم وكتمت بصعوبة دموعًا تُجاهد لتنهمر بغزارة فقال (كامل) في اعتذار مُشفق:

- أعلم أن الأمر فيه كثير من الألم لك ولكني أتمنى أن تساعديني على أن أخرج بأي معلومة قد تساعدني في حل لغز اختفائها.. ومَن يدري ربما تكون تلك المعلومة سببًا في عودتها إليك مرة أخرى.

هزَّت (فردوس) رأسها نفيًا في أسى صامت وانحدرت رغمًا عنها دموعًا سالت على خديها وهي تقول:

- ابنتي لن تعود لي يا حضرة الضابط.. قلبي يُحَدثني بأنها ذهبت إلى الأبد حيث لا رجوع.

قالتها وتهانفت في شدة وقالت وهي ترفع عينها إليه:

- لا تستعجب يا ولدي فأنا أم وإحساسي لا يخيب وعندما أُخبرك أن ابنتي لم تعد على قيد الحياة فعليك

أن تصدقني.

ثم وضعت يدها على صدرها والتقطت نفسًا عميقًا وقالت مكملة:

- مع أنني أشعر بأنها قريبة مني.. رائحتها تملأ صدري.

وضع (كامل) فنجان قهوته على المنضدة مرة أخرى وقد تألم أشد الألم لمعاناة (فردوس) التي فقدت فجأة ابنة جميلة وزهرة يانعة رعتها وروتها حتى تفتحت للحياة لتختفي من أمام عينيها مرة واحدة تاركة ألمًا يعتصر القلب وحزنًا طغى على كل شيء وجرحًا لن يندمل للأبد واقترب منها مواسيًا:

- حتى لو كان قلبك يُحدثك بهذا فدعينا نقوم بما علينا لننتقم لها من الكلب الذي مسها بأذى.

أومأت برأسها موافقة ومسحت بيديها دموعها والتقطت نفسًا عميقًا وهي تسأله قائلة:

- حسنًا يا ولدي من أين تريد أن نبدأ؟

أجاب (كامل) وقد لاحظ أن كلماته أثمرت ودفعت (فردوس) لتتجاوب معه وقال:

- احكي لي عن حياة ابنتك.. عن أصدقائها.. هل كانت على علاقة بأحد ما؟.. هل كانت لديها عداوة مع أي أحد؟

تنهدت (فردوس) بصوت مسموع وقالت:

- (زينات) كانت فتاة جميلة.. هي مَن بقيت معي بعد وفاة المرحوم زوجي وسفر ابني البكر وزواج أختها الأكبر منها وطوال تلك الفترة كانت آية في معاملتها معي فكانت تبقى معي أغلب الوقت وترفض الخروج لأي سبب حتى لا تتركني بمفردي.. لذلك تجد أنها قليلة الأصدقاء ولم يعد لها صديقة مُقربة منذ أن تركت التعليم وجلست في المنزل أما عن الأعداء فلم يُخلَق بعد مَن يقدر على معاداة فتاة مثل (زينات).

- وماذا عن يوم اختفائها.. هل حدث شيء ما؟.. هل كانت على ما يرام؟..

سأل (كامل) فأجابت (فردوس) بسرعة:

- كانت طبيعية جدًّا يومها ولم تكن هناك أي مشاكل حتى حلَّ المساء فوجدتها متوترة بدون سبب ولم ترد أن تخبرني بما يزعجها حتى عندما سألتها لم تُجب.. ثم دخلت لأنام لأن الوقت كان قد تأخر وعند استيقاظي في الفجر كعادتي كل يوم لأداء الصلاة لم أجدها في غرفتها.. بحثت عنها في كل شبر من البيت دون جدوى وما بعد ذلك أنتم تعرفونه.

قال (كامل) مفكرًا:

- أيعني هذا أنها اختفت في البيت فجأة وبدون سبب.

نظرت له (فردوس) وقالت بحيرة مماثلة:

- هذا ما حدث.

ظلَّ (كامل) على صمته لبرهة قبل أن يسأل فجأة:

- أخبريني يا حاجة مَن يسكن معكم في هذا البيت؟

- هناك السيدة (سميحة) في الدور العلوي ومعها ابنتها (انتصار) وفي الطابق الأرضي هناك (محمود) وهو شاب دمث الأخلاق أتى من الصعيد أوصاني به أحد معارفنا وأحد زملاء زوجي القدامى.

- ما اسمه؟

- (سعيد) ويعمل محصِّل في السكة الحديد.

اختزن (كامل) تلك المعلومات في رأسه ليستفيد منها فيما بعد وشكر الحاجة (فردوس) على استضافتها وسعة صدرها وخرج من باب الشقة مودعًا إياها ونزل بخِفَّة على السلالم ليفاجأ بمَن يفتح باب شقته في الدور الأرضي.

لم يدر ما الذي دفعه للتوقف فجأة بحذر والاختباء خلف جدار السلم متطلعًا لهذا القادم..

شيئًا ما بداخله كان يدفعه وكأنه حدس داخلي يمتلكه.. حدس نما معه يومًا بيوم وصقلته سنوات من العمل المستمر والخبرات المكتسبة لذلك بقي في

مكانه ساكنًا دون حراك وبحذر بالغ وبدون إحداث أدنى صوت رفع رأسه لينظر لذلك القادم وضيَّق عينيه في حِدَّة..

إنه يذكر جيدًا ملامح هذا الشاب الذي لابد وأن يكون (محمود) الذي حدثته عنه الحاجة (فردوس) صاحبة البيت.. إنه نفس الشاب الذي رآه في مقهى (شعبان) والذي شاهده يتحدث معه بالأمس..

تُرى أتكون مصادفة أن يكون هذا الشاب عاملًا مشتركًا في اختفاء (درية) ومن قبلها (زينات)؟..

أتكون مصادفة أن يكون عاملًا لدى زوج الأولى وجار الثانية؟..

كيف غاب هذا الأمر عن أعين زملائه أثناء التحقيقات على الرغم من وضوحه الشديد؟..

أسئلة كثيرة دارت برأسه في تلك اللحظة ولم يلحظ خلالها (جابر) الذي دخل غرفته وأغلق بابها خلفه..

أسئلة لم يتنبه منها إلا على صوت خطوات خافتة بجواره جعلته يرفع رأسه بسرعة فزعًا ليطالعه وجه فتاة صغيرة التصقت بالجدار وهي ترتعد وتنظر إلى حجرة (جابر) المغلقة..

كانت تنظر إليها برعب شديد.

v v v

الفصل الخامس والعشرون

تركيز شديد وتفكير عميق صاحبا (كامل) الذي جلس في منزله منفردًا وبدا شاردًا في عالم آخر بعيدًا عن كل ما يُحيط به حتى أنه لم يلحظ زوجته (هدى) وهي تتحدث إليه إلى أن صاحت الأخيرة بصوت عال في حِدَّة:

- (كامل) أنا أحادثك.. ألا تسمعني؟

أدار (كامل) وجهه ناحيتها فجأة بانزعاج وكأن أحدهم قد أيقظه من سبات عميق وقال متسائلًا:

- ما الأمر يا (هدى)؟

صاحت الأخيرة في ضيق:

- الأمر أنني لم أعد أحتمل.

اعتدل (كامل) تجاهها وعاد يتساءل في هدوء:

- ما الذي لا تستطيعين احتماله؟

تزايدت حِدَّة غضبها من نبرته الهادئة فصاحت بضيق أكبر:

- أن تجلس معي في المنزل وأشعر أنني وحدي.. أن تكون حتى الساعات القليلة التي تمضيها معنا مجرد لحظات تفكير فيما سبق وفيما هو آت دون أن تُدرك أن لزوجتك وطفلك حقوقًا عليك.

صاح هو الآخر وقد ساءه صياحها:

- ما الذي فعلته لتصيحي هكذا هل لأنني جلست مع نفسي أفكر لبعض الوقت أم إنك تريدين افتعال شِجار من لا شيء.

أشارت بأصبعها إلى صدرها صائحة بغضب:

- أنا.. أنا أفتعل معك شجارًا ولماذا؟

أشاح (كامل) بوجهه بعيدًا وقال بغضب:

- لا أدري.

- لا يا (كامل) أنا لا أفتعل شيئًا.. أنا كل ما أطلبه أن تكون ناجحًا في بيتك كما أنت ناجح في عملك أم أن هذا شيء كثير.

صاح (كامل) في استياء:

- أأصبحت فجأة فاشلًا لأنني اختليت بنفسي بعض الوقت؟ وهل نجاحي في عملي يُثير غضبك لهذا الحد؟ لا يا (هدى) أنا ناجح غصبًا عنك.. ناجح في عملي وناجح في بيتي سواء صدقت هذا أو رفضتِه.

- وأنا سئمت هذه الحياة.. سئمت أن أكون دائمًا في المرتبة الثانية بالنسبة إليك.. سئمت أنانيتك وعدم إحساسك بي و..

أربدت ملامح (كامل) وصرخ في حِدَّة مقاطعًا:

- كيف تجرؤين؟

قالت والدموع تترقرق في عينها:

- لأن الأمر أصبح فوق طاقتي وأنت كما أنت لا تتغير ولا تريد حتى الإحساس بي وكل ما يحدث وما سيحدث ستكون أنت المسئول عنه.

- هل تهددينني؟

سأل (كامل) بحنق فأجابت قائلة:

- افهم الأمر كما تريد ولكني لن أبقى هنا لحظة واحدة بعد الآن.

نظر لها (كامل) مبهوتًا فاستدارت لتغادر الغرفة قبل أن تتوقف وتعاود النظر إليه مُكملة:

- أنا سأترك البيت يا (كامل).. سأتركه ولن أعود حتى تضع حدًّا لحكايتنا.

قالتها وغادرت تاركة (كامل) واقفًا مكانه لا يدري ماذا يفعل وكيف يتصرف بل لم يدر حتى كيف وصلت

الأمور بينهما إلى هذه الدرجة دون أن يشعر هو؟..

كيف بلغت المشاكل بينهما إلى حد الانفجار وهو غافل وكأنه في وادٍ آخر؟..

كيف سمح لنفسه أن يغرق في دوامة العمل التي لا تنتهي بإرادته تاركًا من أجلها كل شيء آخر؟..

الآن وفي هذه اللحظة بالذات عَلِم أن بيته أصبح كقصر من الرمال..

قصر تكفي موجة واحدة لنسفه من أساسه وتسويته بالأرض.

* * *

شاردًا عن كل ما حوله وبعينين لا تريان جلس (سليم) خلف مكتبه يُحدِّق في لا شيء وينقر بسبابته على سطح المكتب وقد بدا أنه غارق في تفكير عميق.. تفكير لم يصل به حتى هذه اللحظة للوسيلة الأمثل للإيقاع ب(محمود).

على الرغم من شكه الشديد فيه وحدسه الذي لا يخيب والذي يُخبره بأن هذا الفتى لا بد وأنه خلف كل ما حدث.. إلا أن المعلومات القليلة والأدلة الغير واضحة تغل يده وتجعله غير قادر حتى على توجيه استدعاء رسمي له لفتح تحقيق.. صحيح أنه يستطيع إحضاره وقتما يشاء وبشتى الطرق ولكن كل هذا سيكون بصورة غير رسمية وهو يريد إحضاره بشكل قانوني وبإذن رسمي من النيابة العامة وعليه البحث عن سبيل لذلك مهما كلفه الأمر.

استمر في تفكيره العميق حتى قطعه دخول أحد رجاله ليخبره أن هناك مَن يريد لقاءه بشكل خاص فأمره بإدخاله على الفور ومرَّت ثوان طالعه بعدها وجه (شعبان) الذي دخل في خطوات مترددة وبملامح متهيبة رغم ترحيب (سليم) به حتى أجلسه على المقعد المقابل له قبل أن يقول مُرحِّبًا:

- أهلًا بك يا (شعبان).. كيف حالك؟

أجاب (شعبان) بصوت خفيض:

- في خير حال والحمد لله.

نظر له (سليم) وقد لاحظ نبرة صوته ورأسه المنكسة ويده التي ترتجف في ارتباك وتساءل بقلق قائلًا:

- ماذا هناك يا (شعبان)؟

هز (شعبان) رأسه وهو يقول:

- لا شيء.

صاح (سليم) بدهشة:

- كيف لا شيء وأنت لا تدري ماذا تقول ويبدو عليك الاضطراب.

رفع (شعبان) عينه إليه وقال:

- هناك أمر ما أريد إخبارك به رغم أنني ترددت كثيرًا قبل أن آتي وأتكلم معك.

أومأ (سليم) برأسه في تفهُّم وقال مشجعًا:

- خذ راحتك يا (شعبان) وتحدث كيفما شئت فما ستقوله لي سيبقى سرًّا بيننا ولن يعرفه أي مخلوق آخر.

بدا على (شعبان) الهدوء وكأن كلمات (سليم) هبطت عليه فأشاعت الاطمئنان بداخله فحسم قراره وغلب تردده قائلًا:

- في الحقيقة هناك أمر يخص (محمود) الذي يعمل عندي في المقهى.. أنت بالتأكيد تعرفه كما تعرف أنني أعطيته هذا العمل بناء على توصية من الحاج (سعيد) أحد أصدقائي المقربين والذي هو من معارفك أنت أيضًا.

استرعت الكلمات انتباه (سليم) خاصة حين ذُكر فيها اسم (محمود) فاعتدل في مقعده وبدت عليه اللهفة ليواصل (شعبان) كلامه فلما تأخر الأخير قال يستحثه:

- أعلم كل هذا يا (شعبان) ولكن أكمل ماذا يخص (محمود)؟

أجاب (شعبان) في قلق:

- إننى أشك في أنه خلف ما حدث مع (استيفانوس) وابنته.

- وكيف هذا؟

عاد (سليم) يسأل فأجاب (شعبان) قائلًا:

- حقيقة الأمر أنني شككت في أمره منذ فترة طويلة خاصة ونحن لا نعرف من أين هو ولا مَن هم أهله ثم بدأت تصرفاته تُثير ريبتي حين طفق يتغيب عن مواعيده ويختفي لفترات ليست بالقصيرة كما أنه شُوهد أكثر من مرة يتردد على وكالة (استيفانوس) كما شُوهد أيضًا مع ابنته (مادلين) في أكثر من مكان.

- ولكن ما الذي جعلك تربط بين جريمة قتل (كمال) واختفاء (مادلين) وبين تردده على الوكالة أو حتى

علاقته بهم؟

ثم أكمل موضحًا:

- لا تنس أننا جميعًا كنا نتعامل مع (استيفانوس).

قال (شعبان) مُجيبًا على السؤال بسرعة وكأنه قد أعد الإجابة مسبقًا:

- ولكن كم منا يعلم عن مخزن (استيفانوس) السري الذي وقعت فيه جريمة القتل ويتردد عليه؟.

اتسعت عينا (سليم) وضاق ما بين حاجبيه وهو يقول:

- أتقصد أنه يعلم مكان هذا المخزن؟

أكمل له (شعبان) جملته مفسرًا:

- وشُوهد أكثر من مرة يدخل إلى هناك بمفرده.

تساءل (سليم) في دهشة:

- لكن (استيفانوس) أكد في التحقيقات أن المخزن ملكه وأنه الوحيد الذي كان يملك مفاتيحه حتى ابنته لا تمتلكها؟

- ربما أراد إبعاد التهمة عن ابنته دون أن يدري أنه يُبعدها عن الفاعل الحقيقي.

ضمَّ (سليم) رأسه بين كفيه وصمت لبرهة مفكرًا قبل أن يُرتب أفكاره ويقول:

- معنى كلامك أن (محمود) كان بإمكانه دخول المخزن وقتما شاء ويمكنه أن يقتل (كمال) ويدفنه في أرضية المخزن دون أن يشعر أحد.

هز (شعبان) رأسه موافقًا فأكمل (سليم):

- وإذا ربطنا بين ما تقول وبين الرسالة التي وصلت إلى مديرية الأمن من مجهول تخبرها فيه بمكان الجثة والتي أدت لاكتشافها والقبض على (استيفانوس) فسيصبح الكلام منطقيًا أكثر.

هنا تساءل (شعبان) بدهشة:

- ولكن كيف لم تحقق الشرطة في مصدر هذه الرسالة ومَن هو مرسلها؟

أجاب (سليم) ببساطة قائلًا:

- لأن الشرطة كان همها التأكد من صحة البلاغ قبل معرفة مصدره وعندما ثبت صحته لم يُنكر (استيفانوس) علاقته بمكان الجريمة خاصة أنه مكان سري لا يعلمه أحد من عماله ولا حتى ابنته كما قال هو بنفسه.

تنهد (شعبان) قبل أن يسأل:

- وما العمل الآن؟

- طبعًا لا بد من الإيقاع به.

- وكيف هذا؟

سأل (شعبان) فأخذ (سليم) ينقر بأصبعه على سطح المكتب قبل أن يقوم من مكانه ويسير في الحجرة عاقدًا كفيه خلف ظهره و(شعبان) يتابعه بترقب ولهفة واضحة حتى توقف والتفت إليه قائلًا:

- اسمع لدي فكرة.

قال (شعبان) بحماس:

- أخبرني بسرعة ما هي؟

أجاب (سليم):

- علينا أن ندفعه لدخول المخزن مرة أخرى بأي شكل.. ثم سنكون نحن في انتظاره لإلقاء القبض عليه وهو بالداخل وبذلك نستطيع أن نُثبت للنيابة أن (محمود) كان يعلم جيدًا بمكان المخزن ولديه القدرة على دخوله بمفرده وقتما يشاء.

- ومَن الذي سيجبره على دخول هذا المخزن مرة أخرى وبإرادته؟

ابتسم (سليم) بثقة وهو يُجيب قائلًا:

- أنت.

تراجع (شعبان) في مقعده وصاح بدهشة كبيرة:

- أنا!!

قال (سليم) في تأكيد:

- نعم أنت.. سيكون عليك أن تُوهمه بأن بلاغًا قُدِّم بأدلة جديدة وأن الشرطة ستسعى للكشف عن هذا الدليل الجديد في قضية قتل (كمال) وأنني أنا مَن طلبت هذا الأمر لكشف الفاعل الحقيقي ولذلك فستكون هناك حملة تفتيشية صباح الغد على المخزن لبحث آثار الجريمة من جديد وكشف غموض الحادث.

قال (شعبان) وقد فهم الأمر:

- وهذا سيدفعه لدخول المخزن الليلة لإخفاء أي دليل محتمل العثور عليه.

- بالضبط.

قال (شعبان) في سعادة مبهورة:

- أنت بحق داهية.

انتفخت أوداج (سليم) في سعادة كعادته كلما سَمِع المديح قبل أن يقول:

- لن أُخفيك سرًّا أنني أنا أيضًا كنت أشك في هذا الفتى منذ فترة وزاد شكي فيه بعد اختفاء (درية) زوجتك وأنا على يقين من أنه أيضًا وراء اختفائها هذا.

تساءل (شعبان) بغضب محتدم:

- ماذا تقصد؟

أجاب (سليم):

- الحقيقة أن زوجتك قد شكته لي مرة من قبل وقالت أنه حاول قبلًا التعدي عليها وأنا أحضرته هنا إلى مكتبي وأدبته ولم أتركه حتى حادثتني السيدة (درية)

وقالت لي أنه ندم على فعلته وقدَّم أسفه لها لكن بعدها بفترة فوجئنا جميعًا بحادثة اختفائها هذه فدبَّ الشك في قلبي تجاهه.

- ولماذا لم تخبرني في حينها؟

سأل (شعبان) بغضب فقال (سليم) محاولًا تهدئته:

- لقد خشت زوجتك أن تُخبرك حتى لا تفقد أعصابك وتُقدِم على فعل أهوج ولقد استحلفتني وهي تخبرني على أن يكون هذا سرًّا بيننا وألا أخبرك بأي شيء عن هذا الموضوع.

- الكلب الدنس.

قالها (شعبان) بمقت وهو يتطلع إلى (سليم) الذي قال في تفهُّم:

- زوجتك كانت سيدة فاضلة لذلك لجأت إلي.

هز (شعبان) رأسه قبل أن يقول:

- نعم لقد كانت سيدة فاضلة لا تستحق سوى كل خير.

ثم حدَّق في وجه (سليم) مكملًا:

- وأنت أيضًا مثلها.. لا تستحق سوى كل خير.

قالها ونهض مصافحًا (سليم) ومعاهدًا إياه على تنفيذ ما اتفقا عليه الليلة ودون إبطاء وما إن خرج من باب القسم حتى انقلبت ملامحه تمامًا ومن عينيه تصاعدت نظرة أخرى..

نظرة تصميم على الانتقام.

V V V

الفصل السادس والعشرون

في سكون الليل وعلى أضواء بعض المصابيح الخافتة تقدم (شعبان) بحذر بالغ وهو يتوقف كلما خطا عدد من الخطوات ويتلفت حوله في توتر حتى وصل إلى الجهة الأخرى من الشارع والمقابلة لمخزن (استيفانوس) وهناك كان (سليم) في انتظاره وقد توارى في منطقة مظلمة ليظل بعيدًا عن الأعين خاصة عين (جابر) الذي يُنتظر وصوله بين لحظة وأخرى وما إن تجاوروا حتى سأل (سليم) بلهفة:

- هل أخبرته بما اتفقنا عليه؟

أومأ (شعبان) برأسه إيجابًا وهو يقول مؤكدًا:

- بالطبع.. لقد أخبرته كما اتفقنا أنك أخبرتني أن الشرطة جاءها بلاغ جديد عن أدلة موجودة بالمخزن ستكشف عن الفاعل الحقيقي وأنك ستسعى خلف هذا الموضوع بنفسك لتكشفه.

- وهل تظن أنه سيأتي؟

- بالتأكيد.. الشك الذي دبَّ في قلبه والذي بدا واضحًا على ملامحه التي انقلبت وأنا أُخبره يقول أنه لن يستسلم وسيأتي الليلة ليسبق عمل الشرطة ويُخفي أي أدلة قد تكون موجودة بالمكان.

تلفَّت (سليم) حوله يتطلع إلى الشارع الذي خلا من المارة في هذا الوقت المتأخر من الليل قبل أن يقول بقلق:

- لكنه تأخر.. أخشى ألا يأتي ويضيع كل ما خططنا إليه.

قال (شعبان) بثقة:

- اطمئن أنا أعلم أنه سيأتي.

لم يكد (شعبان) ينهي جملته حتى لاح لهما شبح يتقدم من بعيد وهو يسير بخطوات حذرة متلفتًا كل فترة إلى الوراء ليتأكد أنه لا يوجد مَن يتبعه حتى

وصل إلى باب المخزن فأخرج مفتاحًا من جيبه وأولجه في القفل في الوقت الذي قال فيه (شعبان) في انتصار:

- ألم أقل لك.

ثوان وفتح (جابر) القفل وانسل إلى الداخل وموارب الباب خلفه بحذر فقال (سليم) وهو يلكز (شعبان) في كتفه بحماس:

- ها قد وقع الفأر في المصيدة.. الآن انتظر أنت هنا وإن حاول الخروج عطّله قدر الإمكان حتى أعود مع قوة من رجال الأمن لنقبض عليه.

همَّ بالنهوض من مكانه لكن (شعبان) تشبث به ليستبقيه قائلًا:

- بل يجب أن تبقى أنت هنا وسأعود أنا لقسم الشرطة لآتي بالنجدة.. فوجودك سيُرهبه ويجعله لا يفكر بالهرب خاصة لو قلت له أن رجالك يُحاصرون المكان من الخارج.

- وهل سيوقفه هذا؟

- على الأقل أفضل من أن أدخل له أنا بمفردي بدون أن يكون لي سُلطة رسمية تُرهبه وتجعله يخشى الإقدام على أي فعل أحمق.

تفكر (سليم) في كلامه للحظات مرت كالدهر على (شعبان).. كان الكلام منطقيًا بل أكثر من منطقي وهو ما دفع (سليم) ليأتي بمفرده اليوم خشية فشل الخطة أو أن يكشف (محمود) ما يدبرونه له فيعدل عن الحضور ويكون وقتها موقفه من أسوأ ما يكون خاصة لو تسرب لأحد ما حدث منه تجاه هذا الفتى في مرتين سابقتين عندها ستكون العواقب وخيمة..

عواقب لا يمكنه احتمالها.. عواقب تقضي على كل ما بناه في أعوام طوال من بث الخوف في نفوس مَن حوله وبناء حاجز من السطوة والهيبة حجب عنه رذالات البشر ونصّبه سيدًا عليهم يأمر فيُطاع.. لذلك حسم قراره وقبل باقتراح (شعبان) فقال له:

- حسنًا.. اذهب أنت بسرعة إلى القسم وأحضر الرجال وأنا سأراقبه من هنا.

نهض (شعبان) من مكانه وتسَحَّب عائدًا للخلف تاركًا (سليم) يُحدِّق بمزيد من التركيز إلى مدخل المخزن الموارب مُحاذرًا أن يخرج(محمود) في غفلة منه ولم تمر سوى دقائق قليلة حتى تحرك باب المخزن ليُفتح بدرجة أكبر قبل أن تتصاعد أصوات غريبة من الداخل وكأن هناك مَن يتصارعا بشكل عنيف..

استمر الصوت لفترة ليست بالقصيرة مما حدا ب(سليم) أن يأخذ قرارًا بالاقتراب علَّه يتبين ما يحدث بالداخل وبالفعل بدأ يأخذ خطوات للأمام بحذر شديد حتى تصاعدت من الداخل صرخة احتوتها جدران المخزن لكنها وصلت واضحة إلى أذني (سليم) الذي فقد كل حذر لديه في هذه اللحظة واندفع يقتحم المخزن شاهرًا سلاحه الميري الذي رفض أن يتركه وتأكد من وجوده معه عندما حضر إلى هنا ليُفاجأ بأن الظلام والصمت والسكون يستقبلونه فلم ير شيئًا ولم يجد أحدًا على الرغم من الصخب الذي كان

يسمعه وهو بالخارج.. فبدأ يتقدم في تحفز وحارب بقوة لمحة من الخوف تسللت رغمًا عنه إلى قلبه فوأدها في مهدها واستمر في طريقه عبر ردهة المخزن بين البضائع التي لا تزال مكدسة حتى سمع صوتًا خافتًا خلف أحد الأركان وبالتحديد بجوار المكان الذي استخرجوا منه جثة (كمال).

أرهف سمعه جيدًا ودار حول كومة البضائع بحذر مشوب بالتوتر حتى انتفض مرة واحدة على صوت هادئ يقول:

- كان متوترًا مثلك حين سعى خلفي.

تلفَّت (سليم) حوله بسرعة محاولًا تحديد مصدر الصوت وقال بصوت أراد أن يخرج حازمًا قويًا فخرج مرتعشًا ينضح بالتوتر:

- مَن أنت؟

انطلقت ضحكة ساخرة وصاحبها يقول:

- ومَن جئت لتسعى خلفه.

- (محمود).

لم يتلق إجابة فتسرب الخوف إلى نفسه أكثر وأكثر حتى انبعث الصوت من جديد ومن مكان آخر يقول:

- الأحداث تُعاد من جديد.. لأنكم جميعًا أغبياء.

بلغ الخوف ب(سليم) مبلغه وقد شعر أنه كالفأر في المصيدة ولا يدري أين المفر فقال مُحاولًا التفاوض:

- أظهِر نفسك يا (محمود) ولا داعي لهذه الألعاب السخيفة.. يمكننا أن نصل إلى حل يُرضي جميع الأطراف.

- قلت لك أن أيامك ستنتهي وساعتك ستحين.

انطلق الصوت عن يساره فقال يستحثه على الاستمرار بالكلام:

- هل ستقتلني؟

أجاب الصوت بمقت:

- ليس قبل أن أرى الذل في عينيك.

تيقن (سليم) من مصدر الصوت فتقدم شاهرًا مسدسه أمامه وقد أطبق يده عليه بمنتهى القوة وتحفزت كل عضلة من عضلات جسده قبل أن يقتحم تلك البقعة المظلمة متوقعًا رؤية (جابر) وهو يكمن له مختبئًا بها لكن توقعاته خابت حين وجدها خالية تمامًا..

حاول التراجع بسرعة لكن قواه خارت فجأة وسقط على الأرض فاقدًا الوعي حين تلقَّى ضربة قوية على مؤخرة رأسه دارت على أثرها عيناه في محجريهما قبل أن تُظلم الدنيا كلها أمامه ويسقط تحت قدمي (جابر) الذي ظهر من أمامه..

و(شعبان) الذي ظهر من خلفه.

* * *

انتظر (كامل) حتى هبط الليل وتأكد من خلو المكان من المارة ثم تقدم بخطوات حذرة لبيت الحاجة (فردوس).. كان يريد تفتيش الغرفة بكل دقة بعد أن تأكد من خلوها وغياب صاحبها ليحسم أمر الشك الذي سيطر على تفكيره وغلب عليه عقله..

الشك الذي أصبح كالحجر الجاثم على قلبه لا يتزحزح.. يُضيِّق عليه أنفاسه ويسحق معه كل فرصة لتعقل أو تفكير بتروٍ لذلك أراد الليلة أن يحسم الجدل الدائر بداخله..

أن يقطع الشك باليقين كما يقولون..

كان البيت مظلمًا والهدوء والصمت يخيمان على المكان فأخرج من جيبه أداة رفيعة وأولجها في القفل المعلّق على الباب وتلاعب به لبرهة بأنامل خبيرة قبل أن يسمع تكة خافتة جعلته يُطلق تنهيدة حارة من صدره وهو يُزيح القفل ويدفع الباب منسلًا إلى الداخل.

كان الظلام داخل الغرفة لا يقل في شدته عن الظلام بالخارج فأخرج كشاف إضاءة يحمله معه ثم أشعله وعلى ضوئه الضعيف بدأ يتحرك مستكشفًا الحجرة بأكملها.. كانت الحجرة صغيرة لا تحتوي على الكثير من المنقولات باستثناء سرير صغير ومنضدة وضعت عليها أدوات لصناعة الشاي ومشجبًا عُلِّقت عليه بعض الملابس خلفها جدران بالية وأرضية افترشتها الحصر لتغطي طبقة من البلاط الأبيض الذي اصفر لونه وبهت وبينما عيناه تجوبان أرجاء الغرفة وقعتا على باب مغلق وقد وضعت عليه بعض الحصر المطوية حتى كادت تحجبه فاقترب منه وعالج مزلاجه فانفتح ببطء كاشفًا عن حجرة أخرى أصغر مساحة امتلأت بقطع الأثاث والملاءات القديمة واشتركت مع الغرفة الأخرى في رائحة عطن طغت عليها رائحة بخور قوية تسري في أجواء المكان بالكامل.. رائحة قابلته من قبل أن يدخل إلى المكان وطغت على أنفه وأفعمت أنفاسه بعدما دخل.

أغلق باب الحجرة الصغيرة كما كان وعاد إلى الحجرة الرئيسية فأعمل فيها عينيه لمرة أخيرة بيأس من العثور على أي شيء يُجدي في إثبات مسعاه ويكون دليلًا على سداد خطاه قبل أن يهز رأسه في ضيق ويتوجه للخروج ليتوقف فجأة وعيناه ترتطمان بالأشياء الموضوعة على المنضدة..

شيء ما جذب اهتمامه وجعله يتوقف..

شيء كالحدس أضاء فجأة داخل عقله وجعله يلتفت ليواجه المنضدة بجسده كله وهو يُحدِّق في قنينة صغيرة وُضعت بحرص خلف إناء السكر وكأن من وضعه يحرص بشدة على مداراتها فالتقطها (كامل) وقرأ ما كُتب عليها وتطلع للحظة للسائل الرائق خلف زجاجها قبل أن تلتمع عيناه في ظلام الحجرة وقد عثر على ما كان يبتغيه..

دليل إثبات قوي طمأنه أنه يسعى في الطريق الصحيح..

طرف الخيط الذي سعى منذ بداية القضية للإمساك به..

حدَّق مرة أخرى في قنينة المخدر ثم وضعها مكانها وتمم على المكان بعينه مرة أخيرة قبل أن يخرج من الباب ويُعيد وضع القفل مكانه ليبدو وكأن شيئًا لم يكن وحين حانت منه التفافة للخلف ارتد للوراء في فزع قبل أن يتحول فزعه إلى توتر وهو يطالع وجه (انتصار) الذي ظلَّ يُحدِّق فيه عبر ظلام المدخل فاسترد أنفاسه التي احتبست داخل صدره بسرعة وقال في نبرة حاول أن يجعلها تحمل أكبر قدر من الود:

- لا تفزعي يا فتاتي.. سأشرح لك كل شيء.

ظلَّت (انتصار) تُحدِّق فيه بأعين متسعة دون أن تُبدي أدنى استجابة مما جعل توتر (كامل) يزداد متوقعًا انطلاق صرخاتها التي ستشُق جدار الصمت في أي لحظة لكن ولدهشته الشديدة كان رد فعلها غير متوقع ومخالفًا لكل ما كان يفكر فيه ويخشاه..

فالفتاة الصغيرة ودون كلمة واحدة استدارت بهدوء صاعدة إلى منزلها تاركة إياه واقفًا في مكانه لا يدري ماذا يفعل وقد أُلجم لسانه فدفع نفسه دفعًا للخروج من البيت وقد استقر قراره على آخر خطوة يريد تنفيذها هذه الليلة وهي الاستماع إلى مَن سيحسم له الجدل الثائر بداخله ويؤكد له صدق ظنه..

إلى (استيفانوس).

* * *

ضباب كثيف أحاط بعقله من كل جانب.. وطنين شديد ظلَّ يدوي داخل أذنيه بلا رحمة وأثقال لا يقدر على إزاحتها تُجثم على جفنيه تمنعه من فتحهما وهو يستعيد وعيه ببطء ويشعر معه بصداع قاهر يكاد يشطر رأسه نصفين قبل أن يتنبه على صوت يقول ساخرًا في تشفٍّ:

- هلم وافتح عينيك فبيننا حساب سوف يطول.

سمع الصوت قريبًا وميَّز فيه صوت (شعبان) فجاهد لتحرير عينيه من أسر أجفان تُغلقها كجدران من الصلب حتى استطاع فتحهما أخيرًا لتطالعه صورة مشوشة لا يميِّز فيها أحدًا فأغمض عينيه وفتحهما عدة مرات حتى وضحت الصورة ووجد نفسه يجلس على الأرض مقيَّد الذراعين خلف الظهر بينما تُحيط بعنقه أنشوطة من الحبال الغليظة التي تُستخدَم في لف البضائع وأمامه مباشرة وقف كل من (شعبان) و(جابر) والابتسامة الساخرة تعلو وجهيهما فقال في حنق:

- كان لا بد أن أتأكد أن الكلاب لا تعض بعضها.

رمقه (جابر) بنظرة حارقة وهو يرد قائلًا:

- هذا هو رأي خنزير مثلك.

صاح (سليم) وهو يدير عينه بينهما:

- والآن ماذا تريدان؟

قال (جابر) في بساطة:

- قتلك طبعًا.

زاغت عيناه ثم استقرتا على (شعبان) قائلًا في تساؤل:

- أنت يا (شعبان)؟

قال (شعبان) بمقت:

- هل كنت تتوقع أحدًا آخر أيها الخائن.

- ولماذا.. ماذا قصرت في حقك؟

صرخ (شعبان) في وجهه قائلًا:

- حقي.. تخرب بيتي وتغوي امرأتي وتخون الصداقة التي بيننا والآن تتبجح وتسألني فيم قصرت في حقي؟!.

ارتسم الذهول جليًا على وجه (سليم) وهو يقول مدافعًا:

- ماذا تقول؟.. أنا أخونك!.. لقد كنت أحميك من هذا الكلب الذي استحل حُرمة بيتك وحاول الاعتداء على زوجتك.

- اكذب كما شئت فلن يُنجيك من أيدينا شيء.

قالها (جابر) فصرخ (سليم) في هياج وهو يحاول التخلص من القيود التي تكبِّله:

- استيقظ يا (شعبان) إنه يتلاعب بعقلك.. إنه يخدعك ويُسَخِّرك ليجعلك شريكه في كل ما يفعله.

جاوبه صمت مطبق من (شعبان) وعينان تقدَّان الشرر فصرخ بقوة أكبر:

- اسمعني.. إنه يجرك معه لطريق بلا نهاية.. صدقني.

لم يمهله (جابر) أكثر من هذا فدار حوله ممسكًا طرف الحبل الذي انعقد حول عنقه ودار حول عارضة حديدية في السقف وجذبه للأسفل فاشتد الخناق حول عنق (سليم) وجعله ينهض مضطرًا عن الأرض فاقترب منه (جابر) مُقرِّبًا فمه من أذنه وقال بصوت هامس يقطر حقدًا:

- ألم أقل لك أنني سأراك ذليلًا أمامي.

صرخ (سليم) بكل قوته وهو يستنجد ب(شعبان):

- انجدني يا (شعبان).. إنه كاذب.. كاذب.

قابلته نظرة (شعبان) وابتسامته الساخرة ليعرف أنه لا جدوى مما يفعله وأن الحقد وشهوة الانتقام تتلاعب بعقل الاثنين.. وفي اللحظة التي رد عليه فيها قائلًا:

- (شعبان) لا ينسى ثأره ويعرف كيف يغسل عاره بيديه.

جذب فيها (جابر) الحبل أكثر وأكثر وعاونه (شعبان) على ذلك بكل قوته فارتفع جسد (سليم) إلى الأعلى حتى وازت قدماه أكتافهما وهو يحاول بكل قوته التخلص من الحبل المُحيط برقبته والذي يكاد أن يخلعها تمامًا بينما قدماه تدوران في يأس يمينًا ويسارًا علّها تجد أرضًا ترتكز عليها دون جدوى..

في الأسفل وقف (جابر) و(شعبان) متجاورين يتطلعان إلى جسد (سليم) الذي ظلّ يتأرجح أمامهما وأنفاسه تغيب وعيناه تجحظان وحركته تهمد شيئًا فشيئًا حتى همدت تمامًا وتدلت يداه بجانبه بينما تدلى لسانه خارج فمه وعلى وجهه نظرة ذاهلة بقيت معه للأبد.

٧ ٧ ٧

الفصل السابع والعشرون

حالة من التوتر الشديد المشوب باللهفة انتابت (كامل) وهو يخطو داخل مبنى سجن الحضرة حيث يُحتجز (استيفانوس) منتظرًا الحكم عليه.. كان (كامل) يريد أن يتأكد من صدق ما يفكر به وكلام (استيفانوس) سيكون هو الفيصل في ترجيح كفة ما يدور بداخل عقله لذلك لم تكد شمس الصباح تشرق حتى توجه من فوره لزيارته داخل محبسه.

بعد ترحيب مدير السجن واستقباله بحفاوة شديدة وبعد المرور بإجراءات روتينية لابد منها جلس (كامل) في حجرة مكتب مدير السجن منتظرًا وبينما هو جالس أخذ يفكر في الأسئلة التي سيُلقيها على (استيفانوس) ويتوقع الإجابات عليها وقد غمره الحماس لإحساسه بأنه اقترب من حل اللغز وإماطة اللثام عن الغموض الذي صاحب هذه القضية منذ بدايتها وحيَّر رجال التحقيقات لفترة طويلة.

سمع (كامل) هرجًا ومرجًا من خارج حجرة المدير انتزعاه من لُجة أفكاره وخواطره فنهض من مكانه وفتح باب الغرفة المغلق متطلعًا إلى الخارج ليقابله وجه مدير السجن الذي عاد إليه مهرولًا مبديًا انزعاجه فسأله (كامل) وقد شعر بأن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام:

- ماذا هناك يا سيادة المدير؟

أجاب مدير السجن وقد شحب وجهه:

- إنه السجين الذي جئت من أجله.

صاح (كامل) متسائلًا في ذعر:

- ماذا حل به؟

بكلمات مزقت ما كان يخطط له (كامل) كحد السيوف أجاب المدير في اقتضاب:

- لقد انتحر.

ردد (كامل) من خلفه مبهوتًا:

- انتحر.

أومأ مدير السجن برأسه إيجابًا وهو يُردف قائلًا:

- نعم.. لقد قطع شرايين معصمه ونزف دماءه حتى فارق الحياة.

تسمر (كامل) في مكانه وبدا وقد شلته الصدمة وهو يُحدِّق فيما حوله لا يدري ماذا يفعل قبل أن يترك مكتب المدير مندفعًا إلى الخارج يعدو في أروقة المبنى حتى وجد تجمهرًا من بعض عساكر السجن على باب إحدى الزنازين فاندفع ناحيتها وأزاح بيده عددًا ممَّن وقفوا يتطلعون في فضول ويسدون بابها.. فدفع نفسه إلى الداخل دفعًا ليجد (استيفانوس) وقد استلقى في فراشه فاردًا ذراعه على امتدادها بجانبه وقد غطَّتها الدماء التي أغرقت الأرض أسفلها بجانب الفراش إثر شق مخيف في معصمه مزق جلده وهتك شرايينه.

جلس (كامل) بجانبه على الفراش متطلعًا إلى ملامحه التي سادتها السكينة أخيرًا وعينه المغلقة التي انحدرت بجانبها دموع لم تجف وأحس بثقل شديد يُطبق على صدره ويخنق أنفاسه فقام من فوره مغادرًا المكان مقاومًا شعورًا شديدًا بالغثيان وفي قرارة نفسه أقسم أن يُكمل هذه القضية مهما كلفه ذلك من تضحيات..

وإلى النهاية.

* * *

لم تمض لحظات قصيرة على دخوله مكتبه في إدارة الأمن العام حتى وصله استدعاء عاجل من مكتب الحكمدار فقام من فوره متوجهًا إلى هناك ليستقبله الأخير بملامح غاضبة وغيظ مكتوم ثم دعاه للجلوس بإشارة من يده وابتدره بالحديث قائلًا بغضب:

- هل عَلِمت بما حدث؟

أومأ (كامل) برأسه إيجابًا وقال:

- نعم يا سيدي عَلِمت بما حدث اليوم.. أنا قادم الآن من هناك وبالتأكيد سيُحَاسَب المسئول عن هذا التقصير.

خبط الحكمدار براحة يده على سطح مكتبه بقوة وصاح قائلًا:

- ما حدث تحدٍّ سافر لنا جميعًا لا يمكن السكوت عليه.

قال (كامل) مُحاولًا تهدئته:

- أعدك يا سيدي أن يتم حسم الأمر في أقرب وقت.. لكن للأمانة لم يتوقع أحد أنه قد يُقدم على الانتحار بهذا الشكل.

حدَّق فيه الحكمدار للحظة ذاهلًا قبل أن يصيح بغضب أكبر:

- أي انتحار يا حضرة اليوزباشي.. إنها جريمة قتل مكتملة الأركان.

- ولكن يا سيدي..

قاطعه الحكمدار قائلًا:

- من أين لمنتحر أن يُكبِّل يديه خلف ظهره بهذا الشكل أو حتى كيف سيقدر على رفع نفسه بواسطة حبل كما حدث.

ارتفع حاجبا (كامل) في دهشة وقال في استفهام:

- عذرًا سيدي الحكمدار يبدو أنه قد اختلط علي الأمر.. عن أي جريمة تتحدث؟

صاح الحكمدار مُجيبًا وقد أوشك على أن يفقد أعصابه تمامًا:

- عن جريمة قتل معاون الشرطة (سليم فتوح) وتعليقه من رقبته ليراه الجميع مشنوقًا داخل مخزن (استيفانوس).

زوى (كامل) ما بين حاجبيه وبرقت عيناه بغضب فأكمل الحكمدار في لوم:

- كنت أظن أنك تُولي هذه القضية الاهتمام اللازم كما طلبت منك وكنت أتوقع أنك ستمدني بالمعلومات التي تتحصل عليها وليس أن أُخبرك أنا بما يخفى عنك ولا تدري عنه شيئًا.

جز (كامل) على أسنانه بغضب وتفصد جبينه عن قطرات عرق باردة وقال:

- الحقيقة يا سيدي الحكمدار أنني كنت أحقق في هذه القضية حتى وقت متأخر بالأمس وفي صباح هذا اليوم كنت أتابع قضية انتحار (استيفانوس) في سجنه ولم يمض على وجودي بمكتبي سوى لحظات حتى استدعيتني فلم تتسن لي الفرصة لمعرفة ما حدث لمعاون الشرطة بالأمس.

هز الحكمدار رأسه برفض وأتبع ذلك بقوله:

- هذا ليس عذرًا يا (كامل).. لقد شرحت لك خطورة الوضع وحالة الفزع التي بدأت تنتشر بين الناس ونخشى أن تتفشى أكثر من ذلك وأكدت عليك ضرورة حسم هذه القضية في أسرع وقت وتقديم الجناة للعدالة.. هل تفهم؟

نهض (كامل) من على مقعده وأدى التحية باحترام وهو يقول منهيًا الحوار بحسم:

- أعدك يا سيدي أن تنتهي هذه القضية في أسرع وقت وسيكون الجاني بين يدي العدالة في غضون أيام من الآن.

قالها وغادر مكتب الحكمدار في صرامة وقد انتوى تحقيق ما وعد قائده به..

أن يُنهي هذه القضية في غضون أيام قليلة..

وينال القاتل جزاءه العادل بلا رحمة.

* * *

على الرغم من حالة الذعر التي سادت بين الناس في تلك الفترة وخاصة مع تعدد حالات الاختفاء والقتل التي كانت ولا تزال غامضة لا يُعرَف لها تفسير ولا يظهر لها دافع إلا أن حالة أخرى من الارتياح اجتاحت البعض بعد إعلان خبر مقتل (سليم) والعثور على جثته.. فكم من شخص ظلمه (سليم) ومارس عليه سلطته التي كانت تنبع من إحساسه المُطلَق بالتفوق والسيادة وكم من شخص كان يتمنى أن تكون نهاية هذا الوحش على يديه ليخرج على الناس متفاخرًا بأنه قد حقق ثأره واسترد شرفه وأعاد الاعتبار لكرامته المهدورة.

اثنان فقط هما من التزما الصمت فلم ينطقا بحرف واحد..

اثنان لم يبد عليهما التأثر ومارسا حياتهما وكأن شيئًا لم يكن..

اثنان كانت الابتسامة تعلو وجهيهما كلما نظرا لبعضهما البعض وكأن كل منهما يهنئ الآخر على تحقيق ثأره

وشفاء غليله.. اتفاق على الكتمان ساد بين الطرفين ولم يتعكر صفوه إلا مع هبوط الليل وتوجه (كامل) ليجلس في نفس المكان وفي نفس المقعد على المقهى.. لحظتها تطلع كلٌّ من (جابر) و(شعبان) إلى بعضهما البعض قبل أن يقترب الأول من مكتب الثاني الذي قال:

- لقد عاد مرةً أخرى.

ألقى (جابر) بنظره إلى مدخل المقهى حيث يجلس (كامل) قبل أن يعود ببصره إلى (شعبان) ويقول:

- يبدو مثابرًا ولديه إصرار ولن يهدأ حتى يكشف كل شيء.

- وما العمل.. هل نترك المنطقة كلها ونهرب؟

ابتسم (جابر) قائلًا:

- ساعتها ستكون كمَن يُشير بأصبع الاتهام إلى نفسه وستثبت التهمة عليك وعلي.

همس (شعبان) في حيرة:

- ولكن بقاءنا منتظرين هكذا ليس حلًّا.

- وهروبنا أيضًا ليس حلًّا.

ثم صمت مفكرًا للحظة قبل أن يقول:

- الحل الأمثل الآن هو أن نترك له المبادرة لنرى في ماذا يفكر وكيف سيتصرف ووجوده هنا الليلة يؤكد أنه لن ينتظر طويلًا بل سيبدأ خطوته في أسرع وقت.

ثم أشار برأسه ناحية مدخل المقهى مكملًا:

- ربما الآن.

هز (شعبان) رأسه في عدم اقتناع وقال:

- لازلت أرى أن هذا ليس حلًّا.

ابتسم (جابر) في مكر وقال:

- بقاؤنا ساكنين لن يدوم طويلًا وكما سيسعى هو خلفنا سنسعى نحن خلفه.

اتسعت عينا (شعبان) في هلع وهو يقول في استنكار:

- هل جننت إنه ضابط شرطة.

رد (جابر) في صرامة قاسية:

- ولو كان حكمدار الإسكندرية شخصيًا.. أم إنك ترغب في حبل المشنقة حول رقبتك.

لم يتفوه (شعبان) بحرف في حين تركه (جابر) منصرفًا تاركًا إياه يُحدِّق فيه مشدوهًا..

ليس هذا هو (محمود) الشاب الصغير الذي أحضره (سعيد) إليه ليجد له عملًا لديه..

في فترة قصيرة تحولت شخصيته بشكل غير طبيعي ليُصبح شخصًا آخر أكثر قوة وبأسًا.. شخصًا أصبح

لديه استعداد لتغرق يديه بالدماء مرة تلو الأخرى دون أن ترمش عيناه أو يهتز له جفن.

أصبح يخشاه ويخشى الطريق الذي يسير فيه ويدفعه معه دفعًا إليه.. وفي عقله استعاد آخر كلمات قالها له (سليم) قبل أن يتدلى من مشنقته..

- إنه يخدعك ويتلاعب بعقلك ويجرك معه لطريق بلا نهاية.

وبينما هو سارح في أفكاره وجد نفسه يغمغم في شرود:

- صدقت يا (سليم).. صدقت.

انتبه لحظتها أن (كامل) ينظر إليه فلما التقت أعينهما دعاه الأخير بإشارة من رأسه ليشاركه الجلوس فنهض (شعبان) في تثاقل وهو يُعيد ترتيب كل شيء وكل ما تحدث بشأنه هو و(جابر) قبل أن يذهب إلى (كامل) الذي ابتسم في هدوء وهو يدعوه للجلوس قائلًا:

- تفضل.

جلس (شعبان) وقد تصاعدت بداخله نبضات قلبه منتظرًا ما سيقوله (كامل) الذي ظلَّ صامتًا لفترة وكأنه يعلم ما يدور بنفس (شعبان) ويريد أن يُطيل عذابه قدر الإمكان ثم مال ناحيته وهمس بكلمة واحدة:

- مبروك.

تعجب (شعبان) من الكلمة أشد العجب وقال مدهوشًا:

- مبروك.. على أي شيء؟

تراجع (كامل) بظهره وكأنه لا يُصدِّق دهشة (شعبان) قبل أن يعود ويميل عليه من جديد موضحًا:

- مبروك على نجاح الخطة.

عاد (شعبان) يردد بحيرة:

- خطة!!

ابتسم (كامل) وهز رأسه في أسى قبل أن يقول:

- ألم يخبرك صديقك أن (استيفانوس) قد انتحر في سجنه.. أم إنه يُخفي هذه الأمور عنك.

ظهر الانزعاج جليًّا على وجهه مما أكد ل(كامل) أنه لم يكن يدري أي شيء عن هذا الموضوع مما ساعده على أن يُكمل قائلًا:

- الأمور كلها ستنتهي والقضية في طريقها للحل فإلى أي جانب تُحب أن تكون.

- لا أفهم.

- بل أنت تفهمني جيدًا.

ثم اعتدل ليواجه (شعبان) مستطردًا:

- اسمعني يا (شعبان) أنا سأكون أكثر صراحة معك.. أنت ليس هناك دليل واحد ضدك حتى الآن ولكن قلبي يخبرني أنك ضالع في كل ما يحدث ولديك معلومات

تُخفيها فلو أحببت أصبحت معي من هذه اللحظة ولن يطالك شيء أما لو أصريت على الطريق الذي تسير فيه فسأكون عدوك وصدقني أنت لست بحاجة لعداوتي.

أنهى (كامل) كلامه تاركًا (شعبان) يُحدِّق فيه بعينين لا تطرفان وقد ارتج عليه فلم يدر ماذا يقول قبل أن يحاول التكلم لكن الكلمات انحشرت داخل فمه فخرج صوته مبحوحًا يكاد لا يُسمع ثم سعل بقوة وقال:

- أنا لا أعلم شيئًا يا حضرة الضابط ومحاولة استدراجي بهذا الشكل ساذجة جدًّا وأنت أذكى من هذا.

قال (كامل) بصبر:

- نعم لديك كل الحق.. أنا أذكى من هذا لذلك أريدك أن تفكر ما الذي يدفعني للقدوم إليك الآن وتقديم عرضي هذا إلا لو كنت صادقًا معك.

قالها وقام من مكانه واضعًا بعض النقود ثمن المشروب الذي طلبه أمام (شعبان) واستدار مغادرًا دون كلمة أخرى إضافية تاركًا الأخير يتلوى على جمر القلق لا يدري أين السبيل.. ولا كيف يخرج من الكابوس الذي أصبح يعيشه ليل نهار.

v v v

الفصل الثامن والعشرون

على الرغم من أن درجة الحرارة لم تكن متدنية وحالة الجو كانت جيدة لم تتسم بالبرودة في هذا اليوم إلا أن جسد عم (سعيد) كان لا يتوقف عن الارتجاف وهو يخطو مع بعض رجال الأمن إلى داخل مبنى المديرية حيث اصطحبوه من مكان عمله دون سبب أو تفسير أو حتى يتفوهوا معه بكلمة واحدة حتى وصل إلى المديرية فأدخلوه حجرة فارغة إلا من مقعد صغير ومنضدة تتوسطها وتركوه لما يزيد عن الساعة يعدُّ الثواني والدقائق التي كانت تمر عليه وكأنها سنوات ويعض على أنامله حتى كاد يأكلها من فرط التوتر والضغط العصبي الذي يُعانيه وهو يسأل نفسه للمرة الألف عن السبب وراء القبض عليه.. وماذا حدث منه؟..

ظلَّ على تلك الحالة لبضعة دقائق أخرى قبل أن يُفتح باب الحجرة فجأة مما جعل جسده ينتفض وقشعريرة باردة تسري على ظهره قبل أن يدخل أحد رجال الأمن

ويصحبه معه إلى غرفة مكتب اليوزباشي (كامل مدكور)..

كان الأخير يجلس خلف مكتبه ولكن ما إن رأى (سعيد) يدلف إلى غرفته حتى نهض إليه مصافحًا ومبددًا بعضًا من غيوم القلق التي لبَّدت سماء اليوم ودعاه للجلوس ثم طلب كوبين من عصير الليمون قبل أن يعود ليجلس خلف مكتبه قائلًا:

- مرحبًا بك يا حاج (سعيد).

رد (سعيد) التحية بوجل قائلًا:

- حياك الله يا سعادة البك.

أخرج (كامل) علبة سجائره وفتحها أمام (سعيد) الذي التقط منها واحدة شاكرًا قبل أن يُخرج من جيبه علبة ثقاب التقط منها عودًا أشعل به السيجارة ونفث دخانها في توتر لا يزال يسيطر عليه قبل أن يتطلع إلى (كامل) الذي نفث دخان سيجارته في بطء وهدوء ثم قال:

- لقد طلبت حضورك اليوم لنتبادل الحديث في موضوع ما أريد أن أسألك عنه.

ظهرت علامات الاستفهام واضحة على وجه (سعيد) الذي قال:

- أنا تحت أمرك يا بك.

التقط (كامل) نفسًا عميقًا من سيجارته قبل أن يسأل:

- ماذا تعرف عن الشاب (محمود الصعيدي) الذي توسطت بنفسك لدى (شعبان) ليعمل لديه في المقهى؟

ظهرت حيرة صادقة على وجه (سعيد) وهو يقول:

- أكون كاذبًا لو قلت أنني أعرف عنه الشيء الكثير كل ما في الأمر أنني قابلته في أحد الأيام في القطار الذي كنت أعمل عليه وقد كان في حالة سيئة بلا طعام أو نقود.. حتى إنه لم يقدر ساعتها على دفع ثمن التذكرة فتعهدت برعايته وسعيت لتوفير مسكن وعمل له حتى يبدأ حياته بسلام.

- هل تحدثت معه بشأن ماضيه؟

سأل (كامل) بشغف فأجاب (سعيد) قائلًا:

- الحقيقة أنه لم يحك لي الشيء الكثير وأنا لم أحاول أن أضغط عليه في هذا الأمر واكتفيت بمعرفة أنه هارب من ثأر دم على عائلته في الصعيد.

سأله (كامل) في صرامة:

- وهل تساعد أي أحد تجده دون أن تعلم عنه شيئًا بل وتُدخله بيوت الناس وتتوسط له في العمل لدى الغير وأنت لا تعرفه ولا تعرف عن أصله إلا حكاية واهية عن ثأرٍ مزعوم.

ارتبك (سعيد) وحار فيما يقول فحاول (كامل) أن يُخفف من حِدّته بأن ناوله كوب عصير الليمون وانتظر عليه حتى رشف منه رشفة كبيرة ثم قال:

- يا حاج (سعيد) أنت رجل طيب وخدوم ولكن ما تقوله غير منطقي.. كيف نجد شابًّا بين يوم وليلة لا

نعرف عنه شيئًا يُصبح فجأة وسطنا فيسكن معنا ويعمل لدينا ونحن غير متأكدين حتى من صدق روايته أو حتى صحة اسمه.

ثم أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يعاوده بالسؤال قائلًا:

- من أي محافظة أتى (محمود) هذا؟

- والله العظيم يا بك أنا لست متأكدًا بالتحديد لكني قابلته بعد أن غادرنا محطة أسيوط باتجاه المنيا.

اعتدل (كامل) بغتة في مقعده وظهر عليه الاهتمام وهو يسأل بلهفة:

- تقول محافظة أسيوط؟

أومأ (سعيد) برأسه إيجابًا وقال مؤكدًا:

- هذا ما حدث يا بك والله على ما أقول شهيد.

التقط (كامل) من جانبه ملف التحريات الذي تسلمه من الحكمدار وفتحه على صفحة معينة قبل أن يسأل

(سعيد) من جديد:

- هل تعلم عن شخص من محافظة أسيوط يُدعى (طلبة الشحات)؟

تفكر (سعيد) للحظة قبل أن يهز رأسه نفيًا فلم يبال (كامل) بنفيه بل التمعت عيناه في ظفر وشكر (سعيد) على حضوره مؤكدًا عليه ضرورة الحفاظ على سرية هذا اللقاء وسرية كل ما دار فيه فتعهد الأخير بالكتمان وقد أحس بخطورة الموضوع وفداحة الأمر.

ولثوان ظلَّت عينا (كامل) تبرقان حتى غادر (سعيد) المكتب فالتقط سماعة الهاتف وما إن سمع صوت محدثه على الطرف الآخر حتى قال في صرامة حاسمة:

- (إبراهيم).. أريد كافة المعلومات الممكنة عن (طلبة الشحات) أحد ضحايا قضية الاختفاءات الغامضة كما أريد معلومات عن بلدته ومَن هم أصدقاؤه وهل هناك

حوادث حدثت هناك في الفترة الأخيرة لم يُستدَل على مرتكبيها بعد.

انتظر حتى سمع تأكيد مُحدثه وصديقه اليوزباشي (إبراهيم خليل) على جمع كل المعلومات الممكنة في أسرع وقت ثم وضع سماعة الهاتف وبداخله بدأ بركان من الأمل يتفجر.

* * *

مرت الأيام التالية بطيئة للغاية على (شعبان) وكأن عقارب الساعة أبطأت حركتها متعمدة لتُثير أعصابه أكثر وأكثر بينما التوتر ينهشه كألف وحش مفترس وهو جالس في مكانه على مقعد في صالة منزله متطلعًا إلى باب شقته المُغلق وقد رسم عقله عدة سيناريوهات سوداء أقلها أن يتم كسر الباب الآن أمام عينيه ليجد قوات الأمن أمامه يترأسهم اليوزباشي (كامل مدكور) الذي سيتقدم منه مبتسمًا بظفر ويقول:

- ها قد وقعت أيها الشقي.. ألم أقل لك أن لكل شيء نهاية.

ثم سيقتادونه إلى زنزانة مظلمة منتظرًا حبل المشنقة الذي سيتأرجح فوق رقبته ليبقى أمامه اختيارًا من اثنين إما الصعود على طبلية المشنقة والإعدام وإما اختيار الحل الآخر الذي ارتضاه (استيفانوس) لنفسه.

عابثت مخيلته صورة (استيفانوس) مُنتحرًا وقد لوَّثت الدماء جسده وغطت بلونها الأحمر القاني على بياض شعره الذي ظلَّ يرثي سنواته التي شاب فيها فهز رأسه بقوة نافضًا عنها تلك الأفكار والصور البشعة وأخذ يُعيد ترتيب الأمور مرة أخرى وربما للمرة الألف في رأسه وقد أيقن في كل مرة فيها أن النهاية تقترب وأن بقاءه هنا منتظرًا معناه الانتحار وأيقن أيضًا أن الحلول المتاحة أمامه ليست كثيرة فهناك حل أن يترك كل شيء خلف ظهره ويهرب ليبدأ حياة جديدة في مكان جديد بعيدًا عن كل هذا الموت أو أن يتعاون صاغرًا مع الشرطة وتحديدًا مع الضابط (كامل) ويسلم لهم (محمود) على أمل أن يتجنب هو توجيه اتهامات له في حين تُلقى التهم كلها على عاتق الشاب الغريب فتنتهي الأمور على خير.

حسم قراره داخل عقله بعدما تأكد أن بقاءه منتظرًا أكثر من هذا سيزيد من مساحة الخطر حوله وسيعود عليه بأذى لا يمكن أن يحتمله..

نهض من مقعده بغتة واتجه ناحية غرفة نومه الذي كان يتجنبها منذ مقتل (درية) فسحب حقيبة السفر الكبيرة من أعلى صوان الملابس وبدأ في ترتيب حاجياته بداخلها حتى صك مسامعه صوت طرقات قوية على باب الشقة فاقشعر بدنه وارتجفت كل ذرة فيه ودون أن يدري وجد نفسه يتلفت حوله في هلع يبحث بعينه عن مكان يصلح للهرب منه بينما استمرت الطرقات تخرق عقله وتحجب عنه أي فرصة للتفكير فأخذ يقترب بحذر من الباب وأصاغ السمع للحظة قبل أن يهتف متسائلًا بصوت مذعور:

- مَن؟

جاءه الصوت من الخارج ليجعله يلتقط أنفاسه التي احتبست داخل صدره ليزفرها في قوة خانقة حين سمع من على الجهة الأخرى من الباب مَن يقول:

- (محمود).

فتح الباب بسرعة وجذب (جابر) إلى الداخل ونظر بالخارج نظرة سريعة قبل أن يُغلق الباب بعنف ويلتفت إلى (جابر) قائلًا بحنق:

- لقد أثرت فزعي لدرجة لا تُصدَق يا (محمود).

قال (جابر) محاولًا التخفيف عنه:

- هوِّن عليك فلم ينتهِ أمرنا بعد.

قال (شعبان) بغضب:

- ولكننا على طريق سريع نحو النهاية.. لقد أصبح هذا أمرًا حتميًا لا مهرب منه.

رد (جابر) باستهانة:

- مَن قال ذلك.. إنه خوفك الذي يسيطر عليك.

أثارت استهانته غضب (شعبان) أكثر فقال بحِدَّة:

- بل أنت الذي تسير نحو حتفك بحُمق.. تريد أن تتحدى الجميع ولا تخشى أن يُكشف أمرنا ونُعلَّق معًا في حبل المشنقة.

- وهل توترك وجزعك سيحل المسألة؟

سأله (جابر) بضيق فرد (شعبان) قائلًا:

- لا.. ولكنني لن أنتظر حتى أجد رجال الشرطة يقفون بيننا.. سأهرب قبل أن يطالني أحد وأبدأ من جديد بعيدًا عن كل هذا الرعب.

قالها وترك (جابر) واقفًا ودخل إلى حجرة نومه يُكمل ما بدأه فخطا (جابر) خلفه ليجد حقيبة السفر وقد أُعدت فقال:

- لقد أعددت العُدة للهرب دون أن تخبرني.

قال (شعبان) دون أن يلتفت إليه:

- لم يعد هناك مجال لهذا الآن.. ولو كنت تخشى على حياتك أنت أيضًا لجهزت نفسك للهرب فهذا أفضل لي ولك بدلًا من أن نضطر لأن يبيع أحدنا الآخر.

اقترب (جابر) منه حتى وقف خلف ظهره مباشرة وقال بصوت صارم:

- لن أهرب يا معلم.. لقد عشت حياتي كلها أهرب من مكان لمكان والخوف يلاحقني أينما حللت وكأنه قدر مكتوب علي لذلك لن أهرب مرة أخرى.. ولو كان نصيبي الموت فليأت وقتما يشاء.. لكنني لن أموت بسهولة قبل أن أجعل الجميع يدفع الثمن وأولهم هذا الضابط الذي يبغي قتلي.

قال (شعبان) بلا مبالاة وكأن الكلام لم يُقنعه وهو يضع باقي حاجياته داخل حقيبة السفر:

- هذا شأنك يا (محمود).. لكني أنا اكتفيت.

- بالمناسبة اسمي ليس (محمود).

توقف (شعبان) وترك ما بيده ليلتفت إلى (جابر) مرددًا في دهشة:

- ليس (محمود).

أومأ (جابر) برأسه إيجابًا وقال:

- نعم.. اسمى الحقيقى هو (جابر).. (جابر عبد الحميد وهدان).

تساءل (شعبان) بحذر:

- ولِم تخبرني بهذا الآن؟

أجاب (جابر) في بساطة:

- لن تضيرني معرفتك في شيء ما دمت مغادرًا.

ثم ابتسم ابتسامة قاسية بركن فمه مُكملًا:

- أليس كذلك؟

تصاعد الشك بداخل (شعبان) من لهجة (جابر) التي بدا وكأنها تقطر قسوة وحقدًا فبدأ يتراجع بظهره للوراء قليلًا موسعًا المسافة بينه وبين الأخير حتى اصطدم ظهره بحافة الفراش فقال بتوتر:

- خذ نصيحتي يا (جابر) واهرب من هنا قبل فوات الأوان وسأعطيك مالًا يكفيك حتى تبدأ من جديد.

قال (جابر) بغموض:

- لم يعد لأمثالي بداية من جديد.. أنا أكتب نهايتي الآن.

قالها وقفز بقوة تجاه (شعبان) وهو يُخرج سكينًا كبيرًا من أسفل قميصه وأولجه بكل قوته في صدره حتى مقبضه فجحظت عينا (شعبان) بألم غير مصدق واندفع للأمام قبل أن يخر دفعة واحدة على ركبتيه وهو يجاهد ليلتقط أنفاسه وقال بذهول:

- أيها ال..

اقترب منه (جابر) وجثا أمامه على ركبتيه وهو يقول:

- لا تنس أن تُبلغ سلامي ل(طلبة) فستجده بانتظارك.

ازداد جحوظ عينا (شعبان) وهو يستمع إلى كلمات (جابر) الذي مد يده وانتزع السكين بعنف من صدر (شعبان) ودار حوله ليقبع خلف ظهره ويطبق بكفه على فمه وببرود قاتل محترف حز عنقه بحد السكين حتى انهمرت أنهار من الدماء لُتغرق كل شيء فمسح (جابر) سكينه وأخفاه مرة أخرى بين طيات ثيابه وألقى نظرة أخيرة على (شعبان) الذي انكفأ على وجهه في الأرض وقد فارق الحياة ثم على الحجرة التي شهدت أيامًا بينه وبين (درية) قبل أن يقول بحسم:

- الموت قدري منذ مولدي أحمله أينما أحل.

قالها وعقله يرسم صورة (كامل مدكور) في زيه الرسمي ثم غادر المكان صافقًا الباب خلفه ليُكمل مسيرته المحتومة نحو الموت.

v v v

الفصل التاسع والعشرون

انعزلت (هدى) عن أسرتها بالكامل وجلست وحيدة في غرفتها على طرف سريرها تتطلع إلى ولدها (حسين) ذي الثلاث سنوات الذي غرق في نوم عميق هادئ فمسحت بكفها على رأسه في حنان وقالت له شاكية والدموع تترقرق في مقلتيها:

- أرأيت يا (حسين) كيف لم يسأل عنا والدك ولو مرة واحدة؟!.

جاوبها تنفسه المنتظم وملامحه الهادئة التي تُشبه ملامح والده إلى حد كبير فمالت تطبع قُبلة حانية على خده في اللحظة التي فُتح فيها باب الغرفة ليدخل والدها ويجلس بجانبها قائلًا في حنان:

- لقد غرق في النوم.

قالها وهو يتطلع إلى (حسين) فهزَّت (هدى) رأسها وقالت بابتسامة حزينة:

- ظلَّ يسأل عن والده بكلماته المتعثرة حتى استسلم أخيرًا للنوم.. لكن بعد أن شق قلبي بكلماته.

- إلى متى يا ابنتي ستبقين على هذا الوضع؟

هزَّت (هدى) رأسها مرة أخرى وهي تُطرق بها إلى الأسفل في أسى قائلة:

- وماذا بيدي لأفعله؟

- بيدك الكثير يا بنيتي.. بيدك أن تحافظي على زوجك وبيتك وألا تُذيقي ابنك مرارة بُعده عن والده أكثر من ذلك.

ردت (هدى) بحنق:

- إنه حتى لم يفكر في السؤال عنا ولو مرة واحدة.. حتى (حسين) لم يفكر في السؤال عليه وكأنه ليس ولده الوحيد.

- أنت تعرفين طبيعة عمله وهذا أمر ليس جديدًا عليك.

صاحت بغضب:

- ولكنني اكتفيت يا أبي.. اكتفيت.

ومدت يدها تمسح دموعها التي سالت على وجهها وقالت مُكملة:

- إنني أصبحت أخشى الحياة معه رغم كل شيء.. رغم حبي الشديد له أشعر أن نهايتي معه تقترب مني بشدة.. لا أدري يا أبي لكن إحساسًا عارمًا يُسيطر علي بل يكاد يُطبق على رقبتي بأن كل شيء سينتهي قريبًا.. سينتهي أسرع حتى من خاطري.

قالتها وانهارت في البكاء فاحتواها والدها في صدره بارتياع وقبَّل رأسها في حنو فلم يكن يتوقع أبدًا أن تصل الأمور بابنته إلى هذا الحد.. بل لم يكن يتخيل أن يصل بها مدى اليأس إلى درجة تصور الموت قابعًا ينتظرها كما تعتقد هي.. لذلك ربت على ظهرها ومسح

على رأسها وقال مواسيًا ومحاولًا بعث الأمل بداخلها من جديد:

- أنت ما زلت في أول شبابك ولديك ولدك بجانبك ولديك أيضًا زوج يحبك كما تحبينه فلا تدعي اليأس يستولي على حياتك ويبدد فرحتك ويقتل كل فرحة قد تُنير حياتك وحياة مَن حولك.

قالت بعناد:

- ولكنه لم يذكرنا حتى الآن.. كيف يكون هذا حبًّا؟!.

قال والدها بحكمة مفسرًا:

- أنت لا تعلمين الغيب يا (هدى).. ربما حبه لك ولولده هما السبب في بعدكما عنه حتى الآن فربما يخشى عليكما من وجودكما بجواره في هذا الوقت فلا أحد يدري ولا حتى أنت ما هي ظروف عمله الآن.. وزوجك كما تعلمين ضابط كفء دائمًا ما يُكلَف بالقضايا الصعبة ثقة منهم في قدراته وأدائه وهذا يستدعي منا جميعًا مراعاته والصبر عليه.

تطلعت إلى وجه والدها للحظة أشرق فيها وجهها قبل أن تُقبِّله على جبينه قائلة:

- أنت حقًّا نِعم الأب يا أبي ويا ليت زوج ابنتك يعلم كم تحبه.

قالتها ونهضت فسألها والدها قائلًا:

- إلى أين؟

ابتسمت وهي تُجيب قائلة:

- سأذهب لشراء هدية ل(كامل) ثم سأضعها في البيت دون أن يدري حتى يجدها عندما يعود من عمله في المساء.

ابتسم لها والدها مُشجعًا وقام يغادر الغرفة مفسحًا المجال لها لتُبدل ملابسها ولم تمض دقائق حتى كانت (هدى) تسير في شوارع الإسكندرية تبحث بعينها بين الأشياء المعروضة في واجهات المحلات التجارية عن

هدية تصلح لزوجها دون أن تدري بزوج الأعين اللتين تتبعانها منذ غادرت منزل والدها حتى الآن.

كان (جابر) قد عمل منذ فترة على جمع أكبر قدر من المعلومات عن اليوزباشي (كامل مدكور) وكل ما يخصه وذلك عن طريق رشوة عدد من المخبرين والعاملين معه في دائرة الأمن العام حتى عَلِم عن زوجته ومنزل والدها الذي لجأت إليه بعد مشاجرتهما سويًا كما أخبره حارس العقار الذي تسكنه فقرر أن تكون هي هدفه ونقطة الضعف التي سيستخدمها ليجعل (كامل) يأتي إليه حيث هو وينفذ ما ينتظره منه رغمًا عنه.

لذا ظلّ (جابر) يتبعها وقد عقد العزم على أن ينتظر عودتها إلى بيت والدها ليقابلها قبل أن تصله وكان قد بحث عن عنوانها حتى وجده.. لكن لدهشته وجدها تحمل هدية صغيرة وتسير بها إلى منزل (كامل) ففهم ما هي مقدمة عليه وسارع ليلقاها قبل أن تصل إلى مدخل العمارة وقال بصوت أراد أن يحمل أكبر قدر من الانزعاج:

- لو سمحتِ يا سيدتي.

التفتت له (هدى) فسأل:

- هل اليوزباشي (كامل مدكور) يسكن هنا؟

أجابت وقد ارتفع حاجباها في دهشة:

- نعم.. إنه يسكن هنا.

قالتها وأشارت نحو مدخل العمارة قبل أن تسأل هي في لهفة:

- هل هناك شيء ما.. أنا زوجته؟

أجابها (جابر) وهو يرسم على وجهه ملامح الأسى:

- لقد كان يداهم وكر السفّاح الذي يُثير ذعر الناس في الفترة الأخيرة لكنه أُصيب بطلق ناري في موقع الحادث وأول شيء طلبه هو إحضارك إليه.

صاحت (هدى) في هلع وهي تُلقي ما بيدها:

- (كامل).. خذني إليه أرجوك.

قادها (جابر) إلى مكان بيته بعد أن استقلا سيارة أجرة حتى ميدان محطة القطار وبعدها سارا بخطى تُشبه العدو حتى وصلا إلى بيته فأشار لها قائلًا:

- إنه بالداخل.

اندفعت (هدى) بكل جوارحها عبر المدخل المظلم ولم تلتفت لسكون المكان من فرط لهفتها لتجد نفسها تُحدِّق في غرفة فارغة.. فحاولت الالتفاف لتسأل مَن أحضرها عن مكان زوجها لكن المحقن الذي انغرس في عنقها واليد التي أطبقت عليها من الخلف كانتا أسرع من ردة فعلها فحاولت المقاومة قدر استطاعتها لتجد الأرض تميد من تحت قدميها وحوائط الحجرة تدور بها قبل أن يُظلم كل شيء في وجهها وتسقط تحت قدمي (جابر) فاقدة الوعي..

في عرين السفَّاح.

* * *

ظلَّ (كامل) جالسًا في مكتبه يتطلع إلى جهاز الهاتف على مكتبه بلهفة وقلق ولم يحتمل الجلوس فقام من مكانه ليذرع أرجاء الغرفة جيئة وذهابًا كأسد حبيس يبحث عن ثغرة واحدة للهروب من محبسه.. ثغرة تعتمد على مكالمة تليفونية ينتظرها على أحر من الجمر لدرجة أنه كاد يقفز في الهواء حين دق جرس الهاتف فاندفع ليرفع السماعة بلهفة قائلًا:

- مَن؟

أتاه صوت محدثه فقال:

- قل لي أنك حصلت على المعلومات التي طلبتها.

أتاه صوت (إبراهيم) يقول بحماس:

- بالطبع حصلت عليها وإلا ما فكرت في السفر إلى أسيوط بنفسي.

فسأل (كامل) بلهفة:

- وماذا لديك؟

أجاب (أبراهيم) وحماسه يتزايد:

- بالفعل عثرت على منزل (طلبة الشحات) هذا وسألت عن أصدقائه ليبلغني أقربهم إليه ويدعى (مرزوق) أنه بالفعل قد سافر إلى الإسكندرية ولم يعد منذ شهور ولكن عندما سألته عن وجهته تحديدًا في الإسكندرية كانت المفاجأة..

صمت لحظة ليزيد من شوق (كامل) قبل أن يُجيب:

- لقد ذهب لمقابلة (شعبان جودة) زوج المختفية الثانية (درية رضوان).

اتسعت عينا (كامل) وهو يسمع هذه المعلومات وقد أحس أن خيوط القضية تترابط وتتسق مع بعضها لكن ذلك لم يمنعه من السؤال قائلًا:

- وماذا أيضًا؟

- لقد ذهبت لمقابلة عمدة القرية ومعاون الشرطة هناك وسألتهما عن أية جرائم تكون قد وقعت في الفترة الأخيرة دون العثور على مرتكبها حتى الآن ليكون جوابهما واحدًا وهو أن هناك جريمة قتل وقعت منذ أكثر من عام بطلها شاب صغير قتل أمه خنقًا وشنق عمه وذبح إخوته الصغار قبل أن يفر هاربًا ولم يُعثر له على أثر حتى الآن.

سأل (كامل) وهو يدوِّن هذه المعلومات أمامه:

- صفه لي؟

أجاب (إبراهيم) وقد تأكد من أهمية ما حصل عليه:

- إنه شاب لم يتجاوز العشرين من العمر ذو بشرة فاتحة وعينين خضراوين وشعر بني.

ثم أكمل كمَن تذكر فجأة:

- وأكثر ما يُميِّزه ندبة غائرة على جبينه.

كادت السماعة تسقط من يد (كامل) من فرط الحماس لكنه سأل سؤالًا أخيرًا قائلًا:

- وما اسمه؟

- (جابر).. (جابر عبد الحميد وهدان).

قالها فشكره (كامل) جزيل الشكر وأعاد السماعة مكانها وعيناه تبرقان بشدة بعد أن تأكد من صدق حدسه وسلامة خطواته قبل أن يرفع سماعة الهاتف من جديد طالبًا رقمًا داخليًّا وما إن سمع صوت محدثه حتى قال:

- أريد إشارة عاجله بالقبض على (شعبان جودة) صاحب المقهى المجاور لمحطة قطار الإسكندرية وأحد العاملين لديه بالمقهى ويُدعى (محمود) وإحضارهما إلى مبنى المديرية في الحال.

لم تمض دقائق على مكالمته وبينما هو يُفكر في قانونية إجراءاته كي لا يترك ثغرة ينفذ منها أي من

المتهمين حتى دق جرس الهاتف من جديد فرفعه بسرعة متسائلًا:

- مَن؟

أتاه صوت أحد ضباط الإدارة قائلًا:

- عفوًا يا (كامل) بك لكن أمر القبض على (شعبان جودة) لم يعد ذا جدوى الآن.

تساءل (كامل) بقلق قائلًا:

- لماذا؟.. ماذا حدث؟

أجاب الضابط بسرعة:

- لقد عُثر عليه مقتولًا في شقته يا سيدي.

أفقدت المفاجأة (كامل) القدرة على الكلام فأعاد السماعة دون كلمة واحدة إضافية وشبَّك أصابع كفيه أمام وجهه بغضب ليأتيه صوت طرقات على باب غرفته قبل أن يُفتح الباب عن أحد العساكر الذي دخل

وأدى التحية باحترام قبل أن يُقدِم مظروفًا مغلقًا كُتب عليه اسم (كامل مدكور) وقال:

- هذا المظروف أحضره أحدٌ ما على البوابة وتركه باسم سيادتك.

التقط (كامل) المظروف بسرعة وفضه ليجد بداخله ورقة مطوية بعناية ما إن فتحها وقرأ ما فيها حتى قبض عليها بكل قوته وبغضبٍ صارخ والتقط سلاحه ثم اندفع مغادرًا المكتب عدوًا وسط دهشة العسكري الشديدة دون أن يدري أن الجملة الوحيدة التي كُتبت في الورقة التي تلقاها (كامل) هي ما جعلته ينطلق بكل هذه السرعة بل ويُمكنها أن تجعله يطير لو أمكنه فقد كانت الجملة تقول:

- القادمة هي زوجتك.

وبكل ما بداخله وبكل ما يعتمل داخل نفسه من غضب ومرارة ظلَّ (كامل) يصرخ باسم (هدى) وهو يعدو

كالمجنون نحو المكان الوحيد الذي سيطر على عقله في هذه اللحظة..

نحو بيت (جابر).

∨ ∨ ∨

الفصل الثلاثون

ببطءٍ شديد ووسط صداع رهيب يدق رأسها بلا رحمة.. أفاقت (هدى) من غيبوبتها وفتحت عينيها تستكشف ما حولها والضباب المُحيط بعقلها ينجلي رويدًا رويدًا لتستعيد صفاء ذهنها وتجد نفسها مُقيدة اليدين خلف الظهر بحبل غليظ بينما تم تكميم فمها بقطعة قماشية منعتها من الصراخ أوالاستنجاد بمَن يمكنه أن ينقذها قبل أن تسمع صوتًا من حولها يقول:

- لم يحن أوان إنقاذك بعد.

ثم أطلق ضحكة قوية وهو يُكمل:

- هذا لو حان.

اتسعت عيناها في هلع وحاولت بشتى الطرق التملص من القيد المحيط بيدها واللثام الذي يلتف حول فمها لكن دون جدوى أو فائدة تُذكر لتزداد ضحكات (جابر) في استمتاع مجنون بينما هي تصرخ بصوت مكتوم

ودموعها تنساب على خديها من فرط الرعب وصورة ولدها (حسين) وزوجها (كامل) لا تفارقان مخيلتها.

اقترب (جابر) منها ليجد دموعها تنساب فحاول مد يده ليمسح دموعها لكنها دفعت نفسها دفعًا لتبتعد عنه فقال بصوت هادئ:

- لا تخافي.. سوف أحنو عليك وأُريحك من هذه القذارة التي نحياها.

كانت كلماته وملامحه توحي بما لا يدع مجال للشك أنه مجنون قد فقد عقله تمامًا لذلك كادت عيناها تخرجان من محجريهما من شدة الارتياع حين وجدته يمد يده ليتحسس جسدها.. فظلَّت ترفس بقدمها وتُطيح بها ناحيته حتى أصابت وجهه بمنتهى القوة فتراجع إلى الخلف بغضب يتحسس أنفه التي سال منها الدم قبل أن تتحول ملامحه كلها إلى الوحشية الشديدة وينقض عليها مكيلًا لها الصفعات حتى كادت تفقد وعيها من شدة الألم ثم بكل عنف أخذ يمزق

ملابسها من عليها ويعريها تمامًا كما فعل مع (مادلين) من قبل.. (مادلين) التي أراد أن ينالها قبل موتها.

بعد أن أنهى مهمته ابتعد عنها يتطلع إلى جسدها العاري بشبق بينما ضمَّت هي فخذيها وثنت ركبتيها لتضم ساقيها إلى صدرها متخذة وضع الجنين لتحمي نفسها حتى اقترب هو منها مرة أخرى ليتحسس جسدها.. لحظتها هاجت بشدة ودفعت بقدميها تزود بها عن نفسها فأصابته مرة تلو الأخرى حتى أصابت بكعب قدمها بمنتهى القوة أنفه من جديد فازدادت الدماء التي تنزف منها غزارة ففقد كل قدرة له على الصبر وقفز فوقها ويديه تطبقان على عنقها وهو يقول بمقت:

- جميعكن تدعون الفضيلة لتخفين القذارة الساكنة بداخلكن.

ثم اعتصر عنقها بقوة وغل وهو يُكمل قائلًا:

- يا له من زيف.

في نفس الوقت كان (كامل) يعدو كالمجنون وقد تحول لآلة عدو والناس تتطلع إليه في تعجب حتى وصل إلى بيت الحاجة (فردوس) فعبر مدخله بسرعة وبكل قوته ركل باب غرفة (جابر) فانفتح على مصراعيه وقد تحطم رتاجه الداخلي بعنف فشهر (كامل) سلاحه واندفع إلى داخل الغرفة قبل أن يقف ناظرًا عبر فضاء الغرفة الفارغ حتى توقف بصره على باب الحجرة الأخرى الموارب فاقتحمه بقوة ليجد (جابر) واقفًا في استسلام وأمامه حفرة عميقة حفرها للتو وبجانبها صندوق صغير مغلق بقفل أصغر و..

هنا اتسعت عيناه في ارتياع وذهول وارتعشت ملامحه كلها بغضب كاد يُفجر الغرفة ومَن فيها وهو يشاهد (هدى) وقد رقدت بجواره جثة هامدة عارية تمامًا.

لثوان ظلّ الموقف جامدًا حتى قطعه (جابر) الذي أخذ نفسًا عميقًا وقال في بطء مستسلم:

- أخيرًا وصلنا إلى لحظة النهاية.

قال (كامل) بغل كاد يُفقده عقله وهو يصوب سلاحه تجاه (جابر):

- أيها الوغد المريض.

جثا (جابر) على ركبتيه على حافة الحفرة التي صنعها أمام (كامل) وهو يرد بهدوء شديد:

- كلنا مرضى.. كلنا قتلة وكلنا ضحايا.

كانت سبابة (كامل) تكاد تعتصر زناد المسدس لتُفرغ طلقاته فيه لكن يده توقفت مما حدا ب(جابر) أن يهتف به:

- هيا اقتلني.. ماذا تنتظر؟

قال (كامل) وصدره يعلو ويهبط بشدة ودموعه تسيل على وجهه وجثة (هدى) ترقد أمامه وصورة ولده (حسين) ماثلة أمام عقله:

- القانون سينتقم منك على كل جرائمك وسأراك ماثلًا أمام عيني متدليًا من حبل المشنقة أيها القذر.

ابتسم (جابر) في مرارة وقال:

- تحدث كما شئت لكنك لم تعش ما عشته ولم تمر بما مررت أنا به.

صاح (كامل) بغضب:

- لا تُبرر أفعالك أيها القاتل.. لا يوجد سبب واحد يجعلك تقتل كل هؤلاء البشر.. تقتل النفس التي حَرَم الله قتلها.. حتى أمك وعمك وإخوتك الصغار لم ترحمهم.

- إذن فأنت تعلم مَن أنا.. على العموم أنا أعلم أن حياتي انتهت منذ فترة طويلة فقط كنت أنتظر اللحظة المناسبة بعد أن أكون حققت انتقامي كاملًا.

صرخ (كامل):

- أنت مجنون.. مجنون.

- نعم أنا مجنون وكلنا أصبحنا مجانين.

ثم التقط نفسًا عميقًا ونظر إلى (كامل) قائلًا بمقت:

- تحاسبني على قتل مَن.. أمي وعمي.. اللذين خانا أبي على سريره أمام عيني وتآمرا على قتله معًا.. على قتل (طلبة) الذي شارك عمي التآمر على أبي وأتى ليساومني على أرضي.. على (مادلين) و(كمال) اللذين تلاعبا بي وكأني حيوان بلا مشاعر ليُحققا أغراضهما.. على (استيفانوس) الذي سخَّر ابنته لتتلاعب بي ليُهرِّب البضائع ويُخالف القانون.. على (سليم) الذي عذَّب وقهر الجميع ليشعر أنه سيد بلا منازع.. أم على (شعبان) الذي تاجر في الممنوعات لسنين طويلة وشاركني في قتل زوجته.

صرخ (كامل) في جنون:

- وزوجتي ماذا جَنَت لتقتلها؟

- زوجتك ضحية مثلما كان أبي وكما كنت أنا منذ طفولتي وحان الوقت لتأخذ أنت بثأرها.

لم يستوعب (كامل) منطقه المريض لذا قال:

- نحن لسنا في غابة يا (جابر) ليأخذ كل منا ثأره بيده.. هناك قانون يحكمنا.

- أي قانون؟.. يجب أن تفهم أن كلنا نتشابه.. أنا قَتلت انتقامًا ممَّن خانوا أبي و(شعبان) قَتل انتقامًا من زوجته لأنها خانته و(سليم) قُتل لأنه خان أمانة عمله وتجبَّر و(مادلين) قُتلت لأنها خانت حبي لها حتى (استيفانوس) عندما لم يجد مَن يقتله قَتل نفسه.. أترى كلنا نتشابه وكلنا قتلة.

هز (كامل) رأسه وقال بإصرار:

- هذا لا يشملني.

حدَّق (جابر) فيه لفترة قبل أن يهز رأسه قائلًا وعلى شفتيه ابتسامة قاسية:

- معك حق فأنت رجل قانون.. لكن قانونك هذا لن ينفي استمتاعي بها قبل أن تموت.

- كفى.

صرخ بها (كامل) بينما مد (جابر) يده ليُعابث ثدي (هدى) وهو يُكمل:

- ولن يمحي بصماتي التي انطبعت على كل جزء من جسدها لتصحبها في قبرها.

- كفى أيها القذر.

صرخ بها (كامل) مرة أخرى وقد طار عقله فابتسم (جابر) بقسوة أكثر وهو يُنهي قائلًا:

- حتى فرجها سيذكرني أنا.. وليس أنت.

- كفى.

وانقض (كامل) عليه ليُلقي مسدسه بعيدًا ويلتقط الرفش الذي حفر به (جابر) الحفرة وخُيل إليه أنه

سمع تنهيدة ارتياح من (جابر) قبل أن ينهال به مرة وثانية وثالثة على رأسه وهو يصرخ بجنون حتى تهشمت جمجمته واختلطت دماؤه بعظامه ليسقط في الحفرة كالحجر بينما وقف (كامل) يلهث بقوة ودموعه تُغرق وجهه ومن حوله جثة (هدى) وجثة (جابر) التي حملت بسمة لا تزال على وجهه وكأنه استراح بعد طول معاناة وبعد أن حقق مبتغاه بأن جعل الجميع قتلة مثله.

* * *

لفترة طويلة ظلَّ (كامل) يبكي بحُرقة ودموعه تُغرق وجهه وهو يحتضن جثمان (هدى) بين ذراعيه قبل أن يُقبِّل رأسها قائلًا بأسى:

- سامحيني يا حبيبتي.. سامحيني يا شريكة عمري لقد أضعتك بغبائي وجهلي وكبريائي الأحمق.. سامحيني أرجوك.

استمر يُقبِّلها ويعتذر منها في ذهول كاد يُفقده عقله ثم نظر فجأة إلى عريها وكأنه يراه لأول مرة فعض

شفتيه في ألم ونظر حوله يبحث عن شيء يسترها به فلم يجد فوضعها بحرص على الأرض ثم اندفع بسرعة خارجًا إلى الغرفة الأخرى وجذب ملاءة السرير وهمَّ بالعودة بها إلى زوجته.. لكنه توقف فجأة وهو يُحدِّق في (انتصار) التي وقفت على الباب وعيناها متسعتان في خوف ذاهل فاقترب منها ببطء خشية أن تفر منه هاربة وقال:

- الأمر ليس كما تظنين.

سألته بصوت راجف:

- هل.. هل قتلته؟

أومأ برأسه إيجابًا وقال:

- كان لا بد من هذا.. لقد قتل الكثيرين من قبل والآن قتل زوجتي.

قالها وخفض عينيه في ألم فعادت تسأله من جديد:

- وماذا ستفعل الآن؟

أجاب في تصميم:

- سأخرجها من هنا مهما كلفني الأمر حتى لو دفعت حياتي ثمنًا لهذا.

ثم مسح دموعه وتركها ليُغلق الباب الخارجي ويعود للغرفة الأخرى حيث (هدى) التي تمددت على الأرض فدثَّرها بالملاءة ولفها بحرص ثم التقط الرفش الذي غرق بالدم وركل الصندوق الصغير ليُسقطه بداخل الحفرة العميقة قبل أن يُهيل التراب ليردم الحفرة ويسويها بالأرض كما كانت و(انتصار) تتابعه من على باب الحجرة حتى انتهى ثم حَمَل زوجته والرفش والتقط مسدسه وأعاده لجرابه ولم ينس ملابس (هدى) الممزقة وخرج ليُغلق باب غرفة (جابر) للأبد بقفلها الحديدي ويهرب متسترًا تحت جُنح الظلام.

V V V

الفصل الحادي والثلاثون

أغلق (شريف) دفتر مذكرات جده ومسح دموع انسابت من عينيه دون أن يشعر ونظر عبر النافذة التي أضاءت بنور الشمس التي أشرقت قبل أن يُعيد الدفتر لمكانه ويُغلق نور الحجرة ثم غسل وجهه وتوجه للمستشفى ليطمئن على جده وما إن وصل إلى هناك حتى وجد والده وقد غفا على مقعد الاستقبال متدثرًا بمعطفه فلم يشأ إيقاظه وتوجه لغرفة جده ليفاجأ بامرأة عجوز تقف خلف شباك الغرفة الزجاجي وتتطلع إلى جده الراقد في وهن على سريره والخراطيم متصلة بجسده الضامر فاقترب منها وقال في خفوت:

- حاجة (انتصار).

التفتت إليه ومسحت دموعًا ترقرقت في عينيها وقالت:

- أعلم أنك تستعجب وجودي هنا الآن.

هز (شريف) رأسه نفيًا وابتسم لها قائلًا:

- لا.. لقد قرأت مذكرات جدي وعَلِمت كل شيء.

نظرت له في دهشة فاستطرد قائلًا:

- عَلِمت كيف ساعدتِه وتسترت عليه ولماذا ظلَّلت تشهدين من يومها وحتى جئت أنا إليك أنك شاهدت (جابر) وهو يحمل حقيبة سفره مغادرًا المنطقة بلا رجعة.

ابتسمت في حزن وقالت وهي تُعيد بصرها إلى حيث يرقد جده:

- لكنك لم تعلم أن جدك ظلَّ يرعاني لسنوات حتى بعد وفاة أمي جرَّاء مرضها ولم ينسني ولو للحظة واحدة وكأنني أخته الصغيرة.

ثم كفكفت دمعة فرت من عينها مُكملة:

- أكرمه الله.

قالتها وربَّتت على كتفه في حنو وغادرت المكان بخطوات متثاقلة بينما دخل هو إلى جده وجلس بجانبه على طرف السرير ففتح هذا الأخير عينيه وتعلقت بوجه (شريف) ثم ابتسم قائلًا بوهن:

- إنني أرى ملامحي في وجهك وكأنني أنظر عبر مرآة.

ابتسم (شريف) بدوره وانحنى يُقبِّل يد جده وقال:

- أنا مجرد صورة من أصل جميل.

- حتى بعد ما عَلِمته؟

قالها (كامل) متسائلًا فأجاب (شريف) قائلًا:

- ما قرأته زاد احترامي وتقديري لك يا جدي وعلى قدر ما كشف لي أشياء كانت خافية عني فإنني تعلمت منك الكثير يا مُعلمي.

تردد (كامل) للحظات التقط فيها نفسه بصعوبة وقال:

- عندي لك رجاء يا (شريف).

قال (شريف) بسرعة وبصدق:

- مُرني يا جدي.

- لا تُكابر يا ولدي.. لا تكرر خطئي الذي ظلَّلت عمري كله نادمًا عليه وأدفع ثمنه حتى الآن.

- تقصد (جميلة).

- لا تتركها بعيدًا عنك أكثر من ذلك.. ما دمت تحبها احتوِها وضمها إليك ولا تدعها تبعد عن نظرك ما تبقى لكما من عمر.

ابتسم (شريف) وربت على كف جده برفق قائلًا:

- حاضر يا جدي.

- عندي رجاء آخر.

- ما هو؟

همس (كامل):

- دع سري يُدفن معي.

نظر له (شريف) في تردد فقال (كامل):

- لا تنبش في ماضٍ راح وانتهى ولن تجني منه سوى الألم.. تطلع دائمًا إلى المستقبل ودع الماضي يُدفن مع أهله.. أرجوك.

أومأ (شريف) برأسه إيجابًا فتنهد (كامل) في راحة جعلت (شريف) يمد يده داخل جيبه ويُخرج شيئًا وضعه في يد جده وأطبقها عليه فرفعه (كامل) أمام عينيه قبل أن يبتسم في سعادة وهو يتطلع إلى صورة ولده (حسين) وهو بعمر ثلاث سنوات تتوسط قلادة ذهبية..

قلادة لم ينسها رغم مرور كل هذه السنوات.

* * *

حين فتحت الباب لم تتخيل أن تجده واقفًا أمامها يبتسم.. ودون أن تشعر وجدت ابتسامة سعادة كبيرة

ترتسم على شفتيها تحولت إلى ضحكة صافية أنارت وجهها حين وجدته يرفع أمامها قلادة ذهبية تحمل صورة صغيرة لزفافهما وباقة من الزهور الحمراء التي تعشقها خاصة حين قال ممازحًا:

- كل سنة وأنت طيبة.. عيد الحب الشهر القادم.

لمعت عيناها من الفرح وقالت:

- هذه أول مرة تُحضر لي فيها زهورًا.

غمز لها بعينه وقال:

- ولن تكون آخر مرة.

احتضنت الزهور وقالت بعتاب:

- لكنك تركتني فترة طويلة لم تسأل فيها عني.

داعب (شريف) خصلات شعرها وقال معتذرًا:

- كنت أحمق لأنني تركت كل هذا الحُسن يغيب عن عيني.

ثم احتضنها وقال:

- أريدك بجانبي دائمًا يا (جميلة).. إنني أحتاجك الآن أكثر من أي وقتٍ مضى.

تطلعت إليه بقلق متسائلة:

- ماذا هناك؟

أجابها قائلًا:

- جدي في المستشفى وأشعر بألم شديد من أجله.. ألم لن يخففه سوى وجودك بجانبي.

دفنت وجهها في صدره وهي تقول بصدق وحب:

- سأبقى بجانبك ما بقيَ لي من عمر.

احتواها (شريف) بين ذراعيه وقَبَّل رأسها بحنان وهو يتمتم بخفوت:

- صدقت يا جدي.. صدقت.

* * *

قدَّم (شريف) تقريرًا مفصلًا إلى رئيسه ذكر فيه كل المعلومات التي توصل إليها في أثناء التحقيقات التي أجراها بالإضافة إلى ما عَلِمه من خلال دفتر مذكرات جده لكنه لم يذكر في هذا التقرير أي شيء يخص جدته أو جده أو حتى الحاجة (انتصار) واكتفى بتوجية تهمة القتل العمد إلى مَن يُدعى (محمود الصعيدي) آخر مَن سكن هذا المكان والذي يتوافق وقت سُكناه طبقًا لشهادة الشهود مع الوقت التقريبي الذي حدده الطب الشرعي لتلك الجرائم والذي هرب منذ تلك الفترة ولم يُستدَل على مكانه حتى الآن.

وعلى ذلك فقد أُغلقت القضية وأُعدت للحفظ.

* * *

بعد أيام قليلة على غلق القضية توفي (كامل مدكور) في هدوء ورقد رقدته الأخيرة في سلام بجوار زوجته (هدى) بمقابر العائلة وسار في جنازته كل أحبائه وعلى رأسهم (شريف) ووالده وزوجته وحتى الحاجة (انتصار) التي جاءت تتعكز كي تودع صديقًا وأخًا أكبر ولم ينس (شريف) أن يدفن مع جده دفتر مذكراته الأثير وقلادة ذهبية تحمل صورة بالأبيض والأسود لطفل صغير..

مات ويده تُطبق عليها بإحكام.

* * *

أتمَّ المقاول الشهير (منصور المحمدي) إنشاء برجه السكني الضخم الذي حلم به وظلَّ حافظًا لفضل الرائد (شريف مدكور) الذي صدقه الوعد وأخفى عن الصحافة كل المعلومات عن ما وجدوه في موقع البناء حتى أنه استقطع جزءًا من الأرض وتحديدًا الجزء الذي شهد كل هذه الأحداث وأقام عليه مسجدًا كبيرًا حضر (شريف) افتتاحه..

سمَّاه (منصور).. مسجد الهدى.. بناءً على طلب (شريف).

{ تمت بحمد الله}

v v v